الحياة النبوية

حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه



عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

المجلد الثاني

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ _ ٢٠٢٣م




الحياة النبوية
حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه



El-hayat el-nebeviye©
ISBN: 978-605-71319-8-0



+90 551 163 82 25
wasmbookstore.com
wasm.bookstore@gmail.com
WasmBookstore
Wasm_Bookstore


www.altriri.net

altriri@gmail.com
/altriri
@Abdulwahab.altriri
/c/AbdulwahabAltorairy
t.me/altriri
abdulwahabaltriri
+905467723779

الطبعة الأولى
1444هـ - 2023 م

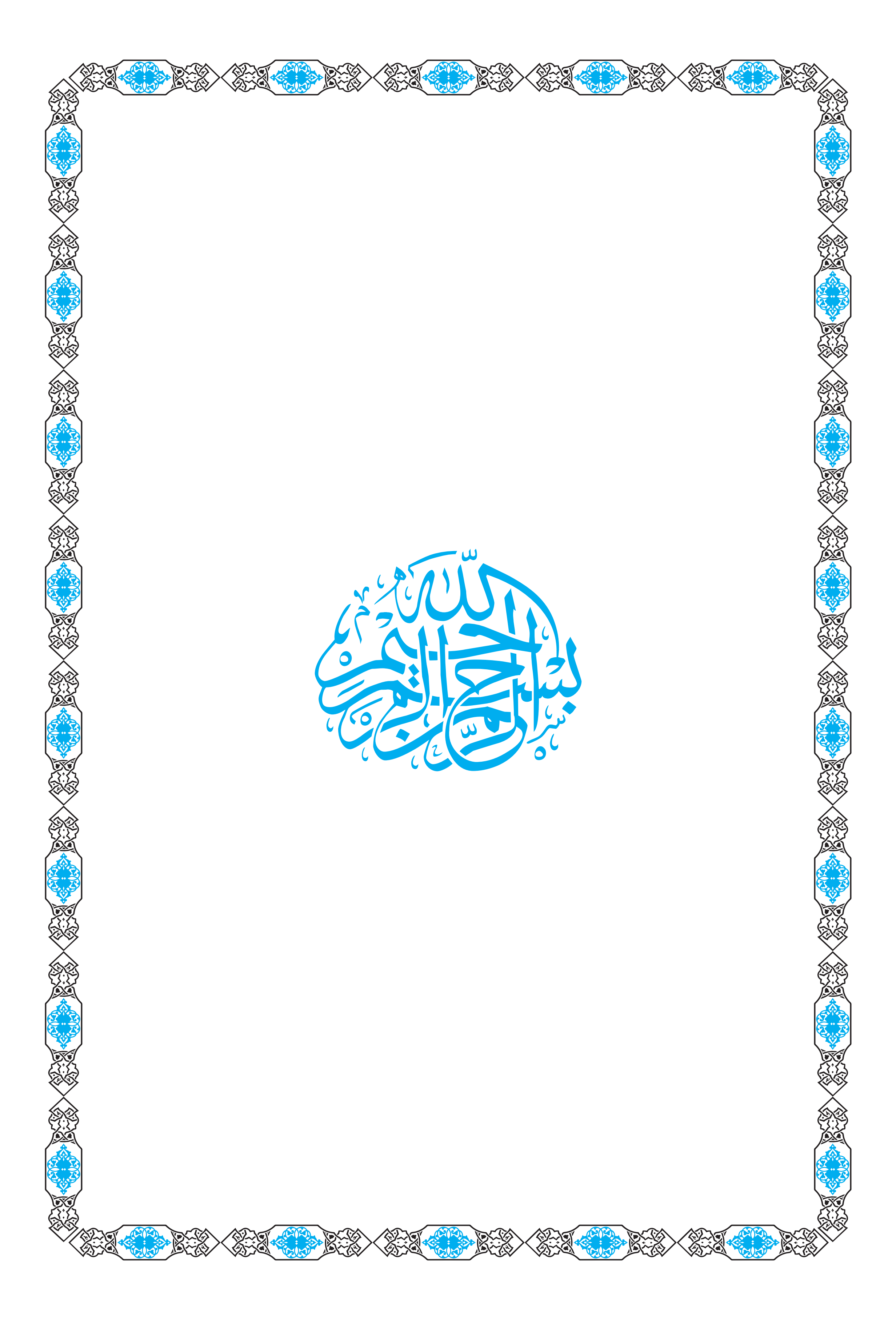
وسم للمعرفة والثقافة ـ اسطنبول ـ تركيا
Fatih, Aksemseltin mahallesi, Haliciar Cd, No 18, Istanbul



حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

المجلد الثاني


بسم الله الرحمن الرحيم


الباب الخامس
الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأحوال حياته

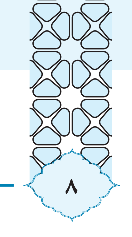
الرسول ﷺ والنعم

كلما عظمت معرفة العبد بربه عظم امتنانه له، وحسُن تلقّيه لنعمه وفضله، واستشعر مع كل نعمة: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وعاش شعور ازدحام النعم وكثرتها ووفرتها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ واستشعر عجزه عن شكر هذه النعم وباء بتقصيره في أداء حق الله بها: «**أَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**». فما ظنك بأعلم الخلق بالله، حين يتلقى نعم الله ونعماءه؟

كيف كان حاله ﷺ مع النِعَم؟ كيف كان يتذوقها؟ وكيف يتحدث عنها؟

لنرى النبي ﷺ وهو يفتق مع النعم تفاصيل التفاصيل، فلكل نعمة تذوقها، ولكل نعمة حديثها، ولكل نعمة ذكرها وشكرها.

لقد كان من أول ما نزل على النبي ﷺ في أول البعثة سورة الضحى، وختمت سورة الضحى بهذه الآية العظيمة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وجاء هذا التوجيه إلى النبي ﷺ في أول البعثة لأنه توجيه لأمر يحتاج إليه طوال بعثته، وبقية حياته.



﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾، ولم يقل له من يحدث، فأول من تحدثه بالنعم نفسك، وأول من تتحدث إليه بالنعم ربك، تتحدث بها مع نفسك تذوقاً وعرفاناً، وتتحدث بها إلى ربك شكراناً وامتناناً.

ومن مشاهد تذوق النعم والتحدث بها في حياة نبينا ﷺ:

١ - أنه كان إذا آوى إلى فراشه ليودع يقظة الحياة ويستقبل إغفاءة النوم، فإنه ينفصل عن الحياة بحديث النعم والشكر للمنعم جل وعز فيقول: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ**»[١]، ولا يذكر ماذا كفانا لأن ما كفاك الله شيء لا يمكن أن تحصيه، فأنت عرضة لأخطار وأضرار وأمراض، والله ﷻ كفاكها كلها: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

«**وَآوَانَا**» فرزقنا مأوى نأوي إليه بأمان وسكينة، ثم يكمل حديث الامتنان بقوله: «**فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ**». فكم غيرنا من خلق الله لم تحصل لهم هذه النعم التي حصلت لنا، فلم يكفَوْا شروراً كثيرة فتعرضوا لها، ولم يُرزقوا مأوى يأوون إليه بأمان، فهم في تشرد وضياع، ونحن قد كفينا وأُوِينا.

هذا التذوق للنعم يجعل الإنسان ينام قرير العين مغتبطاً بنعم الله التي عددها، وممتناً لله الذي وهبها، وتعداد هذه النعم يجدد في القلب الشعور بالوفرة وعطاء الله ﷻ الغامر ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

٢ - ثم يغفو النبي ﷺ إغفاءته، وينام نومته فإذا استيقظ فإن أول حديث يتحدث به إلى ربه أن يتذكر النعم أول ما يتذكر إذا استيقظ فيقول: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[٢]. يا الله تذوقَ نعمة الحياة بعد

(١) «صحيح مسلم» (٢٧١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١).

النوم، كأنما يقول: الحمد لله الذي وهب لي نوماً استغرقت فيه حتى كأنني ميت، وكم من إنسان جاء لينام فلم يستطع النوم من الألم، وكم من إنسان أتى لينام فلم يستطع النوم من الخوف، وأنا وهبني الله نوماً استغرقت فيه، وكم من إنسان نام ثم لم يستيقظ لأن روحه قبضت، أما أنا فرد الله إلي روحي وأحياني.

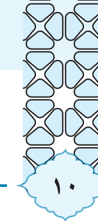
إنه تذوق نعمة الاستيقاظ من النوم، وهبة الحياة وتجددها في يوم جديد، إنه الشعور بالنعم، وتذكرها شكراً لله وعرفاناً بفضله، وعند تذكر النعم عند الاستيقاظ تعيش النفس انتعاشاً، وشعوراً بتجدد السعادة والامتنان لله عز وجل باستئناف الحياة.

٣ – وفي حياة النبي ﷺ مع أصحابه وقفات مع تذوق النعم، فقد خرج النبي ﷺ في الظهيرة في يوم شديد الحر لأنه لا يوجد في بيته شيء يأكله، فلقي أبا بكر، ثم لقيا عمر فقال لهما النبي ﷺ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**» ـ لأن وقت الظهيرة ليس وقتاً يخرج الناس فيه ـ قَالَا: الجُوعُ، يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا**». ثم انطلق بهم إلى أبي الهيثم بن التَّيِّهان وكان صاحب نخل، فدخلوا عليه ففرح بهم وقال: من أكرم أضيافاً مني؟ ثم انطلق بهم إلى حديقته وأجلسهم في الظل، ثم ذهب إلى عذق نخل فيه رطب وبسر وتمر فقطعه وأتى به إليهم، وأتى إليهم بالماء البارد وقال: كلوا، فأقبل النبي ﷺ على أصحابه وقال: «**لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[١]. ثم بدأ يعدد لهم هذا النعيم، فقال: «**ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ، لتُسأَلنَّ عَنْ هَذَا النَعِيم**»[٢]. والسؤال عن هذا النعيم

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٣٨).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٣٦٩).



يوم القيامة ليس سؤال محاسبة عسيراً، ولكنه حساب عرض وتذكير بالنعم، لكن لاحظ تذوقها وتفصيلها وتعدادها، ظل بارد، وماء بارد، وتمر طيب.

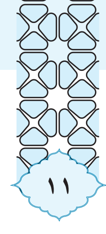
٤- ومن حفاوته بالنعمة حسن استقبالها، وقد كانت بواكير النخل تحضر للنبي ﷺ فيضعها على ثَنِيّتيه ثم يقبّلها ثم يعطيها الأطفال الصغار في مجلسه.

وهذا مشهد احتفاء بالثمرة وإكرام للنعمة وشكر للمنعم بها.

فهل نقف مع النعم التي تغمرنا ولا نستطيع أن نحصيها عدّاً، فنتذكرها بعرفان وامتنان لله بها؟ هل نتذكرها فنشعر بالغنى والعطاء الإلهي يغمرنا؟ هل ننظر إلى النعم التي عندنا فنشعر بالوفرة والغنى بدل أن ننظر إلى النعم التي عند غيرنا فنشعر بالبؤس والحرمان؟ فلنأخذ من هذا الدرس النبوي هدياً في تذوق النعم، حتى لا يقتل الاعتياد بهجة النعمة ومذاقها، وإنما نتذوق النعم كأنما نتلقاها أول مرة، فنشعر ببهجتها وعظيم إنعام الله بها، نذكرها ونعلن لله شكرها، نذكرها ذكرَ شكر لا ذكر فخر.

كان قارون يذكر النعم لكن بفخر فيقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ أما نبي الله سليمان عليه السلام فيذكر النعم بامتنان وشكر فيقول: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾.

٥- ومن أعظم النعم وأجلها نعمة الهداية وفتح بصر البصيرة للتعرف على الله، وسلوك الطريق الموصل إليه، ولذا امتن الله بهذه النعمة على نبيه فقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾.



وعاش النبي ﷺ شعور الامتنان لله بهذه النعمة، ومن ذلك كثرة دعائه بالتثبيت عليها قالت أم سلمة: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِك يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»(١).

ومن ذلك استشعار نعمة الله وفضله في كل عمل صالح يوفقه له ويعينه عليه، وأنه لولا هداية الله وتوفيقه ما تيسَّر له هذا العمل ولا اهتدى إليه.

ولذا كان ﷺ وأصحابه وهم في شدة البرد وشدة الخوف وشدة الجوع يحفرون الخندق حول المدينة ويرتجزون:

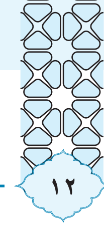
لاهم لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فهم في هذه الشدة يستشعرون نعمة الله بالهداية وأنها محض هبة وإنعام منه عَزَّ وَجَلَّ.

وكذلك عندما دخل ﷺ مكة فاتحاً بعد جهاد عشرين سنة صبر فيها وصابر، ورابط وجاهد، وتحمل أنواع الأذى، وأخرج من وطنه، وقتل حوله أصحابه وأقاربه، طأطأ رأسه خشوعاً وخضوعاً وتواضعاً لله وهو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، ويُرَجِّع في قراءته فيهتز صوته من شدة تأثره وكأنما يعلن لربه البراءة مِن حوله وقوته والامتنان لله بفضله ومعونته.

يا رب ما أنا فتحت ولكن أنت فتحت، وما أنا رميت ولكن أنت رميت، وما أنا انتصرت ولكن أنت نصرت، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

(١) «جامع الترمذي» (٣٥٢٢).



٦- وفي رؤية النِعَم واستحضار فضل الله بها ترقٍّ في مقامات الشكر لله والتي كان أنبياء الله ورسله أعظم الخلق تحقيقاً لها، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وكما قال سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقال جل وعلا لموسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وقال لعبده لقمان: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾، وقال جل وعز لنبيه محمد: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ولذا قام صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى مقامات الشكر باستشعار إنعام الله والامتنان له والاجتهاد في شكره، فقام صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الليل حتى تفطرت قدماه، فلما قيل له كيف تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»[(١)].

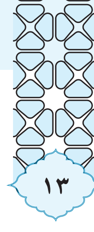
خلاصات:

١- أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فكان أول من يحدث بها نفسه تعداداً وتذوقاً، وأول من يتحدث إليه بها ربه شكراً وامتناناً.

٢- كان تعداد النعم وشكرها آخر ما يتحدث به قبل أن ينام، وأول ما يتحدث به عندما يستيقظ.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٠).



٣- من حفاوته بالنعمة حسن تلقيها، فيتلقى بواكير النخل ويقبّلها احتفاء بها، وتعظيماً لإنعام الله المتفضل بها.

٤- النعم التي يذكرها النبي ﷺ ويجدد الشكر عليها هي نعم الحياة المعتادة، لكنه يتذوقها وكأنما يتلقاها جديدة كل يوم.

٥- الإحساس بالنعم المصاحبة للحياة كالصحة، والمطعم، والمأوى يشعر الإنسان بالغنى والاكتفاء، ووفرة العطاء الإلهي الغامر.

٦- الإحساس بالنعم وتعدادها بامتنان لله من شعائر الشكر لها.

٧- من أعظم النعم التي نستشعرها نعمة الهداية من الضلال والتوفيق لصالح الأعمال.

٨- ومما يثمره النظر إلى النعم والامتنان لله بها، الترقّي في مقامات الشكر لله، ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾.



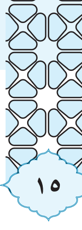
الرَّسُولُ ﷺ والشَّدَائِد

عبرت الشدائد حياة النبي ﷺ، وكان لكل مرحلة من حياته شدائدها، حتى لا تدري أيها أشدها، هل معاناته في حصار الشِّعْب، أم فجيعته عام الحزن، أم تركه لبلده وهجرته عنها، أم ما أصابه في أحد، أم حصار الخندق يوم الأحزاب، أم فجيعته بأصحابه القراء في بئر معونة؟

لكن عائشة رضي الله عنها، جلت لنا الأمر حين سألت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ**(١)**، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ**»(٢)، وذلك حين ذهب إلى الطائف وعرض دعوته عليهم وقابل كبراءهم فلم يجيبوه إلى ما أراد لهم، فاغتم لذلك حيث سيرجع إلى قريش والتي زادت جراءتها عليه

(١) اختلف في تحديد العقبة، فذهب كثيرون إلى أنها عقبة منى في مكة، وقيل هي العقبة التي في قرن المنازل بين مكة والطائف، ولعل هذا هو الأرجح؛ لأن الذين عرض النبي ﷺ عليهم الإسلام في منى فلم يستجيبوا كثيرون، وما كان ذاك يكرب النبي ﷺ أو يغمه، ولكن الذي أكربه أن يذهب إلى الطائف يعرض عليهم دعوته فلم يجيبوه وسيعود إلى مكة فيشمتوا به ويزدادوا جراءةً عليه.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).



بعد وفاة أبي طالب، فكرب من إعراض أهل الطائف حين دعاهم ومن شماتة أهل مكة وجراءتهم إذا رجع إليهم، ودعا ربه بالدعاء المشهور: **«اللَّهمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»**[(١)].

وكان ﷺ في حال من الكرب حين عاد إلى مكة يسير مستغرقاً لا يشعر بما حوله قال ﷺ: **«فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»**[(٢)].

وفي هذا الحديث هدي النبي ﷺ في الشدائد والمحن التي عبرت حياته، ومن ذلك:

أولاً: أنه في وقت الشدائد والمحن يقوم بعبوديةِ الضراعة لله واستجداء عونه، واستنزال مدده، فعندما كان يسير مغموماً كان دعاؤه لله وتوجه إليه

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٢٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

بغاية الضراعة والصبر: «**اللهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي**».

ومثل ذلك: دعاؤه في ليلة معركة بدر حيث قضى الليل في العريش يناشد ربه: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»(١)، حتى سقط رداءُهُ فأتاه أبو بكر والتزمه من ورائه وأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه وهو مشفق عليه من شدة الضراعة يقول: «**يَا نَبِيَّ الله، كَفَاكَ مُنَاشَدَتك رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ**»(٢).

وفي الأحزاب دعا في مسجد الفتح يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء حتى جاءته البشرى بالفتح(٣).

وكان ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى(٤)، امتثالاً لأمر الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

ثانياً: أنه في شدة الكرب والمحنة في غاية الثبات ورباطة الجأش؛ فعندما أصيب المسلمون في أحد وانهزم من انهزم منهم قال كعب بن مالك: فعرفت رسول الله ﷺ بعينيه تبرقان تحت المغفر(٥)، ففي هذه الشدة كانت عيناه تشعان ثقة وطمأنينة، وفي غزوة الخندق عندما بلغه نقض بني قريظة للعهد أرسل إليهم من يتأكد من ذلك فلما بلغه الخبر

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٥٧٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩١٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٥٦٣).

(٤) «سنن أبي داود» (١٣١٩).

(٥) «المعجم الأوسط» للطبراني (١١٠٤).

قال: «**اللهُ أكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ**». ثم تقنّع بثوبه واضطجع، ومكث طويلا، فعرفوا أنه لم يأته خبر عن بني قريظة، ثم رفع رأسه وقال: «**أَبْشِرُوا بِفَتْحِ الله وَنَصْرِهِ**»[١]، وفي حنين لما انهزم من حوله وبقي في نفر قليل معه اقتحم على بغلته وهو يقول: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ**»[٢].

ثالثاً: أنه في حال شدة البلاء والضر يكون في غاية الرضا والتسليم لله والصبر على بلائه، واحتساب الأجر والفضل منه، فصبره هو الصبر الجميل البعيد عن الجزع والضيق والتضجر، ومن جميل صبره هنا التسليم لله والرضا عنه: «**إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي**».

ولما دخل عليه ابن مسعود وهو يوعك في مرض موته قال: فمسسته بيدي فقلت: يا رسول الله، إنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكاً شَدِيداً، قال: «**إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**». قُلْتُ: إنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذىً إِلَّا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ**»[٣].

ولما دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بآخر أنفاس الحياة بكى وقال: «**تَدْمَعُ العَيْنُ وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى ربُّنا، وَاللهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ**»[٤].

ويقول: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ**»[٥]، و«**مَا يَزَالُ البَلَاءُ**

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٠٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).

(٤) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

(٥) «جامع الترمذي» (٢٥٦١).

بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[١].

رابعاً: أنه في الشدة لا يفقد أمله ويقينه، فهو في الشدائد متفائل ومبشر، ويظهر أمله في موقفه مع ملك الجبال حين قال له: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**». فأمله ممتد إلى الأجيال القادمة وإن لجّ الملأ في غلوائهم.

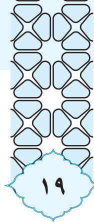
وفي طريق الهجرة حين لحقه سراقة وقد نذرت به القبائل فكان يسير والرَّصْد أمامه والطلَب خلفه فلما ساخت قوائم فرس سراقة وعلم عجزه طلب أن يكلمهم، فلما وصل إليهم وجد النبي ﷺ في غاية التفاؤل يبشره بسواري كسرى، وكانت مفاجأة أخرى لسراقة فقال: كسرى أنو شروان؟ قال: «**نَعَمْ**». فخاف سراقة أن هذا الذي سيبلغ ملكه ملك كسرى سيطلبه وينتقم منه بعد ذلك، فطلب منه كتاب أمان هو أعجب كتاب أمان في التاريخ، يمنحه المطلوب للطالب، فكتبه له أبو بكر وأعطاه إياه[٢].

وفي غزوة الخندق عندما زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً، وعرضت لهم الصخرة وهم يحفرون الخندق قام إليها النبي ﷺ وقد عصب على بطنه حجراً من الجوع، فجعل يضرب فإذا قدح الشرر كبَّر وقال: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»، ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ**» وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ المَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»، ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ**» وَضَرَبَ ضَرْبَةً

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٣٩٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ١٤٨).



أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الحَجَرِ فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»[١].

وهكذا هو في ذروة الأزمات والشدائد يبشر بتفاؤل، وينظر إلى موعود الله وكأنه رأي عين.

خامساً: تعرض النبي ﷺ لأنواع شتى من الشدائد الحسية والمعنوية؛ فتعرض لشدة الإيذاء حين ألقي سلى الجزور على ظهره وهو ساجد عند الكعبة، وتعرض لشدة الجوع حتى ربط على بطنه الحجر، وتعرض لشدة الخوف في المدينة حين حاصرها الأحزاب، وتعرض لشدة الثُكل حين توفي أبناؤه وبناته، ولشدة المرض حتى قال: «**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رجُلَانِ مِنْكُمْ**»[٢]، وغيرها من الشدة في رجوعه من الطائف، وفي أُحد، وفي حادثة الإفك وغير ذلك.

وكل هذه الشدائد على تنوعها تلقَّاها ﷺ بالصبر الجميل، ويقين الرضا عن الله، واحتساب الأجر منه وكان يقول: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[٣].

سادساً: في الشدائد التي صاحبت النبي ﷺ في حياته سلوة لكل مكروب، وعزاء لكل مفجوع، وأسوة لكل مبتلى، ويعلم المسلم أن خيرة الله وأفضل خلقه قد لقوا في هذه الدنيا ما لقوا فصبروا واحتسبوا، وأن هذا من هوان الدنيا على الله، ولذا لم يجعلها نعيماً لأوليائه، وإنما جعل لهم نصيباً من لأوائها وشدائدها وكبدها، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾.

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٦٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).

(٣) «مسند أحمد» (٢٧٠٧٩).

طُبِعَـت عَلى كدرٍ وَأَنـتَ تُريدُها   صَفـواً مِـنَ الأَقـذاءِ وَالأَكـدارِ

وادخر نعيمهم الكامل الذي لا كدر فيه ولا تحول عنه في دار المقامة والخلود.

سابعاً: عدم استصحاب ذكريات الشدائد وآلامها بعد تجاوزها، وفي هذا الحديث مشهد واضح من ذلك، فإن عائشة لو لم تسأل النبي ﷺ عن أشد ما لقي مما هو أشد من أُحد لما علمنا بذلك، ولا يوجد الخبر عن هذا الكرب في غير هذا الحديث.

وذلك أن النبي ﷺ لم يكن يتحدث به، ولا يجدد ذكراه، وإنما تجاوزه كما تجاوز أحزاناً وشدائد كثيرة.

وبرغم شدة المصيبة في أُحد إلا أنه لم يجعلها مأتماً يتذكره ويجدد أحزانه، بل قال عن جبل أُحد الذي وقعت عنده المصيبة: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»(١)، ومع شدة حبه لخديجة إلا أنه كان يذكر حبها ولا يذكر حزنه بفقدها فيقول: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَإِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**»(٢).

وتفارط أبناؤه وبناته في حياته وأهال التراب على قبورهم ولم يجعل موت أحدٍ منهم مأتماً يتذكره ويجدد أحزانه، وكأنما دفن حزنه معهم في قبورهم، فالشدائد والمصائب لها آلامها وأحزانها الآنية، والتي يعبر عنها في حينها ولا يتنكر لها، لكنها لا تُعمّر ولا تتجدد ولا تستصحب في الحياة.

ثامناً: القدرة على استئناف الحياة، وتجديد العزيمة فلا يتجاوز شدة إلا وهو أقوى عزماً وأشد مضاء، يستقبل أمله ولا يجتر ألمه، ولذا لما هاجر

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

إلى المدينة من بلده مكة التي هي أحب البلاد إلى الله وإليه، لم يجعل تَذَكُّرَ منازله ومرابعه وذكرياته فيها حديثه وشاغله، وإنما استأنف الحياة وكأنه انفصل عن ذلك الماضي تماماً وتوجه إلى المستقبل قُدُماً، وسرى ذلك إلى بقية المهاجرين فلا تجد مشاريعهم متوقفة، ولا نفوسهم متطلعة للعودة إلى بلدتهم ودورهم، بل كان من حكمة الشارع أن حرم عليهم العودة إلى مكة أو الإقامة بها فوق ثلاث(١).

وعندما عاد إلى مكة فاتحاً نزل الأبطح ولم يسأل عن بيوته ورباعه التي استولى عليها ابن عمه عقيل، وقال: «**وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ مَنْزِلٍ؟**»(٢).

وعندما غادرت قريش المدينة بعد الخندق، ودعهم بقوله: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا**»(٣)، وإذا به بعد سنة واحدة من غزوة الأحزاب يقصد مكة معتمراً عمرة الحديبية.

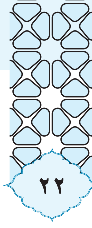
وهكذا فقه الصحابة منه هذه الروح فما إن نفضوا أيديهم من تراب قبره ﷺ بعد مصيبتهم بوفاته والتي هي أعظم المصائب في حياتهم حتى استأنفوا حياتهم، وانطلقوا في مشروعهم، وهو نشر رسالة نبيهم، وساحت جيوشهم في الأرض لا لتنعَى رسول الله ﷺ إلى البشرية ولكن لتبشر بدينه ورسالته، واستأنفوا مسيرة البلاغ والدعوة، وتحملوا مسؤولية ما بعث به ﷺ تجاه البشرية، وتناثرت قبورهم بين القارات الثلاث رسلاً لرسول الله ومبعوثين بما بعث به.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٣٥٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٨٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٥١).

(٣) «صحيح البخاري» (٤١١٠).



وهكذا كانت الشدائد تعبر حياة النبي ﷺ فيتلقَّاها بالرضا والتسليم، ويتحملها بالصبر الجميل، ويحتسب شدتها ولأواءها، ولا يفقد عندها أمله واستبشاره، ويستأنف الحياة بعد كل شدة أقوى عزيمة وأمضى عزما.

خلاصات:

١- عبرت الشدائد حياة النبي ﷺ، وصحبته في كل مراحلها.

٢- كان في الشدائد يقوم بعبودية الضراعة لله، ودعائه، واستنزال مدده.

٣- كان في الشدائد في غاية الثبات، ورباطة الجأش، لا يطيش ولا يتضعضع.

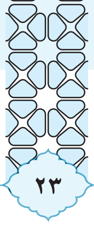
٤- تنوعت الشدائد التي مرت به ﷺ حسية ومعنوية، وتلقاها على تعددها وتنوعها بالصبر الجميل ويقين الرضا عن الله واحتسابه الأجر منه.

٥- لا يفقد أمله في الشدة، وإنما يستصحب فأله واستبشاره وثقته ويقينه.

٦- عدم استصحاب المعاناة واستذكار الشدائد، والقدرة على استئناف الحياة بعدها، والانطلاق قُدماً.

٧- فيما أصاب النبي ﷺ من الشدائد سلوة لكل مصاب، وأسوة فيما يصنع المسلم عندما تعرض له الشدائد أو تحل به المصائب.





الرَّسُولُ ﷺ وَالمَالُ



جعل الله المال قياماً للناس فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾، وجعل في فطرة الإنسان حب المال فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، فهو يسعى لتحصيله وجمعه والاستكثار منه، ثم يشح ببذله ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾، ولذا فإن تجاوز هذه الرغبات النفسية ببذل المال، والسخاء في الإنفاق، والكرم في العطاء، منقبة عظيمة وخلق كريم، يحبب صاحبه عند الله وعند الناس، وقد كان ﷺ أجود الناس بالمال وأسخاهم ببذله والمواساة به، وأزهدهم في ادخاره والاستكثار منه، وعندما ننظر إلى حال النبي ﷺ مع المال تتضح لنا معالم منها:

أولاً: كان ﷺ من أسرة ثرية، فجده هاشم الذي هشم الثريد للحجاج، وجده عبد المطلب كبير مكة وسيدها، ولا سيادة إلا بمال وثراء، ولم يذكر الفقر في أطوار حياته في مكة، وهذا يضعف روايات تردد حليمة في رضاعته ليتمه وفقره.

ثانياً: كان له مال وتجارة قبل أن يتزوج بخديجة، وإذا كان في يفاعه قد رعى الغنم فلن يكون في شبابه عالةً أو عاطلاً ولكن عاملا وكاسباً، وما كانت

خديجة لتبعث بأموالها إلى الشام مع من لا خبرة له بالتجارة ولا مال له.

ومما ينبغي تصوره أن البيئة التجارية في مكة ليست كما يتصور في التجارة الحالية، من وجود محلات خاصة وتبادلٍ دائم، ولكنها كانت تجارة موسمية، فالتاجر يعرض بضاعته ويبيع ويشتري في الأسواق الموسمية مثل منى، وعكاظ، وذي المجاز، وعندما يحتاج الناس إلى بيع وشراء مع التاجر في غير الموسم فإنه يقصده في بيته فهو محله وخزائنه.

وعندما يبيع أو يشتري في الشام أو اليمن فلا يلزم أن يسافر مع كل رحلة فإن القافلة يكون فيها تجار وأموال لهم ولغيرهم ممن يرسل بماله معهم، ويوضح ذلك قول أبي سفيان عندما سافر بتجارة قريش بعد صلح الحديبية، قال: فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ بِمَكَّةَ امْرَأَةً وَلَا رَجُلاً إِلَّا وَقَدْ حَمَّلَنِي بِضَاعَةً[1].

ولذا فلن تجد وصف الحال التجارية المعهودة لدينا في حال النبي ﷺ لأن نمط التجارة في ذلك الوقت نمط موسمي وليس نشاطاً يومياً.

وهذا النوع من التجارة كان موجوداً مثله في مكة إلى أوائل القرن الماضي حين كانت مكة مقصداً في موسم الحج ثم ينقطع عنها الوافدون إلى الموسم القادم وكذا كان موجوداً مثله في بعض مدن نجد.

وأما قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ فهو مثل قوله قبلها: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ فليس معناها أنه كان في ضيعة في يتمه ثم آواه، ولا أنه وقع في الضلالة ثم هداه الله، ولكن المعنى أنه كان عرضةً لضيعة اليتم فآواه الله، وعرضة للضلال فهداه الله وحفظه، وعرضة للفقر فأغناه الله، فتلقته عناية الله إيواءً وهدايةً وإغناءً منذ مسيره الأول في الحياة.

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٨١).

ثالثاً: هاجر ﷺ إلى المدينة فصودرت عقاراته بمكة، ولكنه أخذ من المال ما يُحمل على الرواحل، مما أخذه معه في هجرته، أو ما تبعه به علي بعد ذلك، ويظهر ذلك من قوله لأبي بكر لما عرض عليه الراحلة فقال له: «**بِالثَّمَنِ**»(١)، ولم يقل له ذلك إلا أن المال متيسر عنده.

رابعاً: وفي المدينة ولي أمر المسلمين وتفرغ لشأنهم ولم ينقل عنه أنه عمل عملاً آخر من أعمال الكسب المالي سواء كان تجارة أو زراعة، أو عملاً باليد.

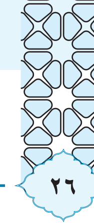
وكانت معيشته ﷺ في المدينة أول الهجرة وإلى غزوة بدر على الكفاف والقلة، والظاهر أنه كان ينفق مما حمله من ماله من مكة، ويرتفق بما يصله به أصحابه من هداياهم له، ومن ذلك وصف عائشة رضي الله عنها لزواجها به ﷺ: قالت: بَنَى بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِنَا، مَا نُحِرَتْ عَلَيَّ جَزُورٌ، وَلَا ذُبِحَتْ عَلَيَّ شَاةٌ، حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْنَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ بِجَفْنَةٍ كَانَ يُرْسِلُ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذَا دَارَ إِلَى نِسَائِهِ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ(٢).

وعَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَعَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ جَفْنَةٌ تَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ مِنْ نِسَائِهِ(٣).

خامساً: مرت به في المدينة حالات قلة وفقر احتملها بجميل الصبر، وحسن التجمل، ومن ذلك:

١- قالت عائشة: إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ. قيل: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ:

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٥).
(٢) «مسند أحمد» (٢٥٧٦٩).
(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٨٣١٨).



الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ، كَانَ لَهُمْ مَنَائِحُ[١]، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ الله ﷺ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ[٢].

٢- وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا المَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا[٣].

٣- وَعَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**». قَالَا: الجُوعُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**». فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ المَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَباً وَأَهْلاً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ المَاءِ، إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ لله مَا أَحَدٌ اليَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافاً مِنِّي، فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ المُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِيَّاكَ، وَالحَلُوبَ**». فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ العِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**»[٤].

---

(١) منائح: جمع منيحة وهي كعطية لفظا ومعنى، وأصلها عطية الناقة أو الشاة. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٣٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٥٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٧٩٨).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٠٣٨).

وهذه الحالات من القلة حالات طارئة وليست مستديمة، ويظهر أنها كانت في أول الهجرة قبل أن يفتح الله عليه، وكانت جزءاً من الحالة العامة في المدينة وقتها، فهو عسر عام يشارك فيه النبي ﷺ الناس حالهم تلك، وليس حالاً خاصاً ببيت النبي ﷺ.

سادساً: بعد معركة بدر أصاب نصيبه من الغنائم مما شكل توسعة نسبية في النفقة.

ثم حصل التوسع الأكثر بعد فتح بني النضير والتي كانت مما أفاء الله على رسوله، ولذا قالت عَائِشَةُ رضي الله عنها: مَا شَبِعْنَا مِنَ الأَسْوَدَيْنِ حَتَّى أَجْلَى اللهُ النَّضِيرَ وَأَهْلَكَ قُرَيْظَةَ[(١)].

وكان يدخر لنسائه قوت سنة، فعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ[(٢)].

وهذا الذي يبيعه ﷺ هو ما كان يعده لبيت المال ونوائب المسلمين، ولذا ورد أنه يضعه في الكراع والسلاح[(٣)]، أي في الخيل والإبل إعداداً للجهاد، أما المال الذي يملكه لنفسه فلم يرد أنه باع في المدينة شيئاً، ولم يخرج شيء من ملكه بالبيع وإنما يخرج هبةً أو صدقة.

ثم حصل التوسع إلى الغنى بعد فتح خيبر، وفدَك.

سابعاً: وكان المال يمر ولا يستقر في يدي النبي ﷺ، وإنما كان يعطي منه عطاء من لا يخشى الفقر، ولا يدقق في العطاء بل يجزل.

---

(١) «تهذيب الآثار» للطبري (١/ ٢٨٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٣٥٧).

(٣) «صحيح مسلم» (١٧٥٧).

١- فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنماً بَيْنَ جبلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عطَاءً مَا يَخَافُ الفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا[(١)].

٢- وبعد معركة حنين قسم من الخمس الذي جعله الله له فكانت عطاياه بالمئات من الإبل لأشراف قريش وسادات القبائل يكرمهم بها ويتألفهم على الإسلام وما أخذ لنفسه ولا لقرابته شيئاً.

٣- وعنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَقَالَ: «**انْثُرُوهُ فِي المَسْجِدِ**»، فَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذْ جَاءَهُ العَبَّاسُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْطِنِي إِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَفَادَيْتُ عَقِيلاً[(٢)]. قَالَ: «**خُذْ**» فَحَثَا فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: اؤْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إِلَيَّ. قَالَ: «**لَا**»، قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: «**لَا**»، فَنَثَرَ مِنْهُ ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَقَالَ: اؤْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ، قَالَ: «**لَا**»، قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: «**لَا**»، فَنَثَرَ ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَمَا زَالَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا، عَجَباً مِنْ حِرْصِهِ، فَمَا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَمَّ مِنْهَا دِرْهَمٌ[(٣)].

٤- وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ

(١) «صحيح مسلم» (٢٣١٢).

(٢) فادَيتُ نفسي وفاديْت عقيلا: أي: أعطيت فداء نفسي وفداء عقيل ابن أبي طالب حيث إنهما أسرا في غزوة بدر. ينظر: «عمدة القاري» (٤/ ١٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٢١).

فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ[١].

ثامناً: وأما هو ﷺ فلم يتأثل من هذا الغنى وما استكثر به، فما تغير بيتُه ولا أثاثه، وقد دخل عليه عمر في السنة التاسعة بعد فتح مكة ودينونة الجزيرة كلها له، قال عمر: وإنه على حصير وليس بينه وبينه شيء، تحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وعند رجليه قَرَظٌ مصبوب[٢]، وعند رأسه أُهُب[٣] معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**». فَقلت: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ الله، فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**»[٤].

واجتمع إليه نساؤه في السنة التاسعة بعد أن فتح الله عليه وأوسع، فجعلن يسألنه التوسعة في النفقة، فاعتزلهن شهراً، ثم خيرهنَّ، وتلا عليهن الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، قَالَ: فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ. فقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْراً أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ**». قَالَت: وَمَا هُوَ؟ يَا رَسُولَ الله، فَتَلَا عَلَيْهَا الآيَةَ. قَالَت: أَفِيكَ، يَا رَسُولَ الله، أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ[٥]، وهكذا اختارت بقية

---

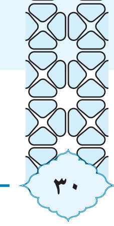
(١) «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).

(٢) القَرَظ: هُوَ وَرقَ السَّلَم. وقوله مصبوب: أَيْ مَجْمُوع قَدْ جُعِل صُبْرَة كصُبْرَة الطعامِ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٩) (٤/ ٤٣).

(٣) أُهُب: جمع إهاب، وهو الجلد الذي لم يدبغ. ينظر: «عمدة القاري» (١٩/ ٢٥١).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٩١٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٥) «صحيح مسلم» (١٤٧٨).



أمهات المؤمنين الله ورسوله على متاع الدنيا الزائلة.

ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير(١).

وعن عائشة قالت: لَقَدْ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ، وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ، يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ، فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ، حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ(٢).

وما مر به ﷺ من أحوال القلة العارضة هي من تنوع ظروف حياته ليكون أسوة لكل أمته في غناه وفقره، وليس في ذلك تَطَلُّبٌ للفقر، ولا اختيار له، فقد كان ﷺ يستعيذ بالله من الفقر: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ، وَالفَقْرِ**». واستعاذ من أعراض الفقر وهي المغرم وغلبة الدين: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ**». فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ يَا رَسُولَ اللهِ مِنَ المَغْرَمِ، قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»(٣).

وكان من سؤاله: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ وَالغِنَى**».

وأخبر أن المال الصالح خير ونعمة لمن اتقى في كسبه وإنفاقه فقال: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ للمَرءِ الصَالِحِ**»(٤). وقال: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَآخَرُ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**»(٥).

وقد كان الصحابة حول رسول ﷺ من أصحاب الأموال واليسار كأبي بكر وعمر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله عنهم.

---

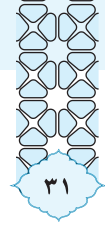
(١) «صحيح البخاري» (٢٩١٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٠٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٣٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٣).

(٤) «الأدب المفرد» (٢٩٩).

(٥) «صحيح البخاري» (٧٣١٦).



فالعشرة المبشرون بالجنة في جملتهم من أصحاب اليسار.

ولذا فإن اكتساب المال ووفرته بأيدي الصالحين من مصلحة المجتمع المسلم ومظاهر قوته: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»(١).

تاسعاً: ومن تمام زهده وعدم استتباعه الدنيا أنه لم يورث ديناراً ولا درهماً، ولم تقسم له تركة وقال: «**لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةً**»(٢)، وقال: «**لَا يَقْتَسِمُ وَرَثَتِي دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي، وَمَئُونَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ**»(٣). وفي مرضه الذي توفي فيه قال لعائشة: «**يَا عَائِشَةُ، مَا فَعَلَتِ الذَّهَبُ؟**». يعني دنانير كانت بقيت عنده، قالت عائشة: فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية فجعل يقلبهن في يده ويقول: «**مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟ أَنْفِقِيهَا**»(٤).

وعنها قالت: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً، ولا درهماً، ولا شاة، ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء(٥).

فلم يجمع المال ليتأثله ولا ليورثه، وكان المال يمر بيده ولا يستقر، كرماً وإيثاراً، ولذا استدان في آخر عمره مع أنه يدخر قوت سنة، ولكن آثر بما ادخره، وأنفقه قبل أن تنتهي السنة، فاقترض ورهن درعه ﷺ.

---

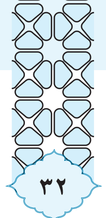
(١) «صحيح مسلم» (٢٦٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٥٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٠).

(٤) «مسند أحمد» (٢٤٢٢٢).

(٥) «صحيح مسلم» (١٦٣٥).



خلاصات:

١- كان ﷺ من أسرة ثرية، ولم يذكر الفقر في أطوار حياته في مكة.

٢- كان له مال وتجارة قبل أن يتزوج خديجة، وبعد زواجه تاجر معها في مالها.

٣- لما هاجر إلى المدينة ولي أمر المسلمين وتفرغ لشأنهم ولم ينقل أنه عمل عملاً يتكسب منه كالتجارة والزراعة.

٤- كانت معيشته أول الهجرة على الكفاف، وكان ينفق مما حمله من ماله من مكة، ومما يرتفق به من هدايا أصحابه، ولذا مرت به حالات قلة وفقر احتملها بجميل الصبر.

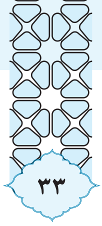
٥- بعد معركة بدر أصاب نصيبه من الغنائم والخمس، ثم حصلت التوسعة بعد فتح بني النضير وقريظة، ثم اتسعت الحال بعد فتح خيبر.

٦- كان المال يمر ولا يستقر في يد النبي ﷺ، فكان أجود الناس، وأكثرهم بذلاً وأوسعهم عطاءً.

٧- مع كثرة المال الذي يجتمع عنده إلا أنه ما استكثر منه، ولا تأثله، ولا ادَّخره لنفسه، وبقي يعيش على ذات المعيشة التي كان يعيشها.

٨- ومن تمام زهده وعدم استتباعه الدنيا أنه لم يورث ديناراً ولا درهماً، ولم تقسم له تركة، وأنفق آخر ما عنده صدقة، ولحق بالرفيق الأعلى ودرعه مرهون عند يهودي في أصواعٍ استلفها طعاماً لأهله.





الرَّسُولُ ﷺ ورِيَاضَةُ الأَبْدَانِ



١- كانت طبيعة الحياة في البيئة العربية التي عاش فيها النبي ﷺ حافلة بالمجهود البدني الذي لم يكن رياضة مقصودة ولكنه جزء من فعاليات الحياة، فالمجهود البدني يبذله الزارع في مزرعته، والراعي مع غنمه، والتاجر في تجارته، وسير الناس في تنقلهم كان المشي السريع غالباً، ولذا فالرياضة البدنية جزء من نمط الحياة وضروراتها.

٢- كان النبي ﷺ يتمتع بلياقة بدنية عالية فكان جسده متينا مشتداً، وكانت حركته سريعة قوية، ولذا جاء في صفة مشيه أنه إذا مشى تقلّع أي: ينتزع قدميه ولا يجرها، ووصف عمر صعوده السلم وكان جذع نخلة مسندة إلى غرفة المشربة، فقال: فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالجِذْعِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ[١]، وهذه لياقة بدنية.

وعندما سعى بين الصفا والمروة اشتد في الهرولة في بطن الوادي وهو يقول: «**لَا يُقْطَعُ الأَبْطَحُ إِلَّا شَدّاً**»[٢]، ووصفت سرعته بأن إزاره كان يدور على ركبتيه من شدة العدو.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٢) «سنن ابن ماجه» (١٩٨٧).

وعندما دفن عثمان بن مظعون، أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً أَنْ يَأْتِيَهُ بِحَجَرٍ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ حملها، فَقَامَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، قَالَ الراوي: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ ذِرَاعَيْ رَسُولِ الله ﷺ، حِينَ حَسَرَ عَنْهُمَا ثُمَّ حَمَلَهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَقَالَ: «**أَتَعَلَّمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي، وَأَدْفِنُ إِلَيْهِ مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي**»(١).

وعن البراء بن عازب قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ بحَفْرِ الخَنْدَقِ، وعَرَضَتْ لنا في بعضِ الخَنْدَقِ صخرةٌ لا تأخذُ فيها المَعَاوِلَ، فاشتَكَيْنا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فجاء فأخذ المِعْوَلَ فقال: «**بِاسْمِ الله**». فضرب ضربةً قدح الشرر منها، فبرقت منها برقة وصدعها فكسر ثُلُثَها، وقال: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ السَاعَةَ**». ثم ضرب الثانية فصدعها وبرقت منها برقة، فقطع الثُلُثَ الآخَرَ فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ المَدَائِنِ أَبْيَضَ**». ثم ضرب الثالثة وقال: «**بِاسمِ الله**»، فصدعها وبرقت منها برقة، فقطع بَقِيَّةَ الحَجَرِ فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا السَاعَةَ**»(٢).

إن هذه الضربة القوية التي تقدح الشرر وتكسر الحجر تدل على لياقة بدنية وقوة جسدية، وكانت هذه اللياقة محفوفة بالرياضة التي يمارسها ﷺ نشاطاً حياتياً ضمن برنامجه اليومي.

٣- وهناك رياضات تمارس كمهارات يحصل فيها التنافس، وكانت معروفة في البيئة العربية قبل الإسلام فبقيت على أصل الإباحة الواسع، ومنها:

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٢٠٦).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٥٨).

أ - السباق على الأقدام، وهي مهارة بدنية، ومنافسة عالمية توجد عند الشعوب منذ القدم.

ومما ورد في ذلك: حديث سلمة بن الأكوع في رجوعه ردف النبي ﷺ من غزوة ذي قَـرَد قال: فبينما نحن نسير، وكان رجل من الأنصار لا يسبق شداً فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك فلما سمعت كلامه قلت: أما تكرم كريماً، ولا تهاب شريفاً؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ذرني فلأسابق الرجل، قَالَ: «**إِنْ شِئْتَ**». قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ، فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ، فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ أَسْتَبْقِي نَفَسِي(١)، ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ، فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ، ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى أَلْحَقَهُ، فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قُلْتُ: قَدْ سُبِقْتَ وَاللهِ، قَالَ: أَنَا أَظُنُّ، فَسَبَقْتُهُ إِلَى المَدِينَةِ(٢).

وهذه المسابقة بين سلمة وهذا الأنصاري هي منافسة بينهما، ومتعة للركب الذين يصحبونهم ويشاهدون تنافسهم، والرياضات التنافسية متعة للمتنافسين والمشاهدين.

وفي سفر الحج كان ثَمَّ فرصة لهذه الرياضة، فإن النبي ﷺ لما توجه من المزدلفة إلى منى انطلق أسامة بن زيد ونفر من سباق قريش عدواً على أرجلهم إلى منى(٣).

---

(١) أيْ تمهلت قليلًا حتى أروح نفسي وأستجمع قوتي، حتى تجاوز شرفاً أو شرفين، والشرف ما ارتفع من الأرض. ينظر: «إكمال المعلم» (٦/ ١٩٩).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٠٧).

(٣) «صحيح مسلم» (١٢٨٠).

وسابق ﷺ زوجته عائشة مرتين في أسفاره، فعنها رضي الله عنها قالت: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ، وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**». فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ لِي: «**تَعَالَيْ أُسَابِقْكِ**». فَسَابَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ فَسَبَقْتُهُ فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**». فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**». فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**»(١).

وهذه المسابقة بين النبي ﷺ وزوجته عائشة هي رياضة ومؤانسة، وملاعبة بين الرجل وامرأته، فهي أجمل الرياضة وأعذب اللهو.

ومن السباق السباقُ على الإبل قال أنس: كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تكاد تُسْبَق، فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه ﷺ فقال: «**حَقٌّ عَلَى اللهِ** عز وجل **أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ**»(٢).

وكذلك السباق بين الخيل فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ الَّتِي أُضْمِرَتْ(٣) مِنَ الحَفْيَاءِ، وَأَمَدُهَا ثَنِيَّةُ الوَدَاعِ، وَسَابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضْمَرْ مِنَ الثَّنِيَّةِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ(٤).

ب ـ ومن الرياضات المشهورة بين الفتيان المصارعة، ومما ورد في ذلك ما رواه سمرة بن جندب قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ غِلْمَانَ

(١) «سنن أبي داود» (٢٥٨٧).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٨٠٢).

(٣) أُضْمِرَتْ: المراد به أن تُعلف الخيلُ حتى تَسْمَن وَتَقْوَى ثم يقلل علفها بقدر القوت حتى يشتد لحمها وتقوى على الجري. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٧٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٢٠).

الأَنْصَارِ، فِي كُلِّ عَامٍ فَيُلْحِقُ مَنْ أَدْرَكَ مِنْهُمْ. قَالَ: فَعُرِضْتُ عَاماً، فَأَلحَقَ غُلَاماً، وَرَدَّنِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، لَقَدْ أَلحَقْتَهُ وَرَدَدْتَنِي وَلَوْ صَارَعْتُهُ لَصَرَعْتُهُ. قَالَ: «**فَصَارِعْهُ**». فَصَارَعْتُهُ فَصَرَعْتُهُ فَأَلحَقَنِي[1].

ج ـ ومن المهارات الرمي، وكان الرمي حينها بالقسي والسهام، وقد ورد الحث عليها لأنها من المهارات الحربية، وتَعُّلمها من الإعداد للجهاد، فعن عقبة بن عامر قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، يَقُولُ: «**﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ**»[2].

وعن عَنْ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَلَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ المُسْلِمُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَهْلَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الحَقِّ**»[3].

وقوله: باطل لا يريد به الحرام، وإنما يريد أنه عار من الثواب، وأنه للدنيا محضاً ولا تعلق له بالآخرة وإن كان من المباح، وأما هذه الثلاث فلها ثواب خاص، قال ابن حجر: أطلق على الرمي لهواً لأنه في صورة اللهو، لكن المقصود من تعلمه الإعانة على الجهاد، وكذا تأديب الفرس وملاعبة الأهل للتأنيس[4].

---

(١) «المستدرك» (٢٣٥٦)، ورويت في ذلك قصة مصارعة النبي ﷺ ركانة، ولكنها لا تثبت سنداً ولا متناً.

(٢) «صحيح مسلم» (١٩١٧).

(٣) «جامع الترمذي» (١٦٣٧).

(٤) من «فتح الباري» مختصراً (١١/ ٩١).

وعَنْ عطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، وَجَابِرَ بْنَ عُمَيْرٍ الأَنْصَارِيَّ يَرْتَمِيَانِ[(١)]، فَمَلَّ أَحَدُهُمَا فَجَلَسَ، فَقَالَ لَهُ الآخَرُ: كَسَلْتَ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ فَهُوَ لَهْوٌ وَسَهْوٌ، إِلَّا أَرْبَعَ خِصَالٍ: مَشْيُ الرَّجُلِ بَيْنَ الغَرَضَيْنِ**[(٢)]**، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَتَعَلُّمُ السِّبَاحَةِ**»[(٣)].

وعن سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**». قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟**». قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْمُوا؛ فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**»[(٤)].

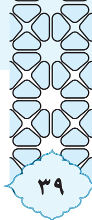
وفي هذه المشاركة النبوية تحفيز في اكتساب هذه المهارة وإتقانها.

د ـ ومن الرياضات السباحة، وقد ورد أن النبي ﷺ تعلم السباحة في طفولته في آبار المدينة حينما جاء مع أمه، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَأَحْسَنْتُ العَوْمَ فِي بِئْرِ بَنِي عدي بن النَّجَّارِ**». قال: «**وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ اليَهُودِ يَخْتَلِفُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ**»[(٥)].

وجاء الترغيب في تعلم السباحة في حديث جابر المتقدم وفيه: «**كُلُّ شَيْءٍ**

---

(١) يَرْتَمِيَانِ: أي يرميان الغرض. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٦٩).
(٢) الغرضين: المقصود بهما مكان الرامي ومكان الهدف الذي يرميه. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٦٠).
(٣) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨١٤٧).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٨٩٩).
(٥) «الرصف لما روي عن النبي ﷺ من الفعل والوصف» (١/ ٣٥).



لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ فَهُوَ لَهْوٌ وَسَهْوٌ، إِلَّا أَرْبَعَ خِصَالٍ..» وذكر: «**تَعَلُّمُ السِّبَاحَةِ**»(١).

وجاء عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح: أن علموا غلمانكم العوم، ومقاتلتكم الرمي(٢).

وكان عمر وابن عباس في طريق فنزلوا على غدير، فكان عمر وابن عباس يتباقيان في الماء، قال ابن عباس: قال لي عمر: أُبَاقِيكَ فِي المَاءِ أَيُّنَا أَطْوَلُ نَفَساً، وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ(٣)، وهي رياضة الغطس.

هـ - رفع الأثقال، ومما ورد من ذلك ما رواه أنس بن مالك قال: مر النبي ﷺ بقوم يرفعون حجراً يريدون الشدة، فقال: «**مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟**». فقالوا: يرفعون حجراً يريدون الشِّدة، فقال النبي ﷺ: «**أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ؟ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»(٤).

وهنا نجد أن النبي ﷺ أقر أصحابه على ممارسة هذه الرياضة التي تدل على الشدة والقوة، ثم لفت أنظارهم إلى القوة الأخلاقية، وهي قوة التحكم في انفعالات الغضب.

وهذه قوة نفسية، عبر عنها الرسول ﷺ بألفاظ شتى في مناسبات مختلفة، فقال: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ**(٥)، **إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»(٦). فإذا كانت القوة هي التي تصرع بها الخصم، فان القوة

---

(١) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨١٤٧).

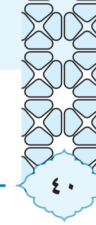
(٢) «مسند أحمد» (٣٢٣).

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (٩١٣٤).

(٤) «السلسلة الصحيحة» للألباني (٣٢٩٥).

(٥) الصُّرَعَة: المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٣).

(٦) «صحيح البخاري» (٦١١٤).



التي تحتاجها للتغلب على غضبك، وإطفاء ناره في صدرك، وأن تبدو هادئا في حركاتك وصوتك ولهجتك، أصعب من تلك وتحتاج إلى إرادة أقوى وأشد[١].

وممن عرف بالقوة من الصحابة الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ففي معركة الخندق ضرب نوفلَ بن عبد الله بالسيف على رأسه فشقه نصفين، ووصلت الضربة إلى كاهل فرسه، فقيل له: يا أبا عبد الله ما رأينا مثل سيفك، فقال والله ما هو السيف ولكنها الساعد التي تحمله[٢].

٤- وهذه المهارات البدنية مشهورة في بيئتهم وزمنهم، ولم تكن اختراعاً إسلامياً، ولكنها مهارات البيئة استوعبها التشريع في مساحة الإباحة الواسعة، ورغب ببعض ما كان فيه نفع منها.

ونهى عن ما فيه ضرر بالإنسان أو الحيوان، فنهى عن الخذف، وهو الرمي بالحصى[٣]، وقال: «**إِنَّهَا لَا تَقْتُلُ الصَّيْدَ، وَلَا تُنْكِي العَدُوَّ، وَلَكِنَّهَا تَفْقَأُ العَيْنَ، وَتَكْسِرُ السِّنَّ**»[٤]، لما يترتب عليها من أضرار وإتلاف.

ونهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتخذ شيء فيه روح غرضاً للرمي، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَتَّخِذُوا شَيْئاً فِيهِ الرُّوحُ غَرَضاً**»[٥]، لما في ذلك من تعذيب الحيوان والعبث بحياته.

---

(١) باختصار من: «تعريف عام بدين الإسلام» (ص ١٧٦).

(٢) «مغازي الواقدي» (٢/ ٤٧٢)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ٤٢٨).

(٣) الخذْف: هُوَ رَمْيك حَصَاة أَوْ نَوَاةً تَأْخُذُهَا بَيْنَ سبَّابَتَيك وتَرْمي بِهَا، أَوْ تَتَّخذُ مِخْذَفَةً مِنْ خَشَبٍ ثُمَّ تَرْمِي بِهَا الحَصَاةَ بَيْنَ إبْهامك وَالسَّبَّابَةِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٦).

(٤) «سنن ابن ماجه» (٣٢٢٧).

(٥) «صحيح مسلم» (٥٨).

ولذا فأي ألعاب رياضية توجد لدى بعض الشعوب أو في بعض الأزمنة مثل كرة القدم والطائرة والتنس والكركت والرجبى، وقفز الزانة، وغيرها من المهارات الرياضية فهي من المهارات المباحة، ولا تثريب على ممارسيها ولا مشجعيها ما لم يخالط هذا اللعب محرم كرياضات العنف مثل المصارعة العنيفة والملاكمة فتمنع لما يترتب عليها من ضرر، وكمصارعة الثيران فتحرم لما فيها من تعذيب الحيوان، أو الألعاب التي يخالطها الميسر والمقامرة فتحرم لما يخالطها.

وتبقى مساحة المباح واسعة تستوعب المهارات المتنوعة والمتجددة.

خلاصات:

١- كانت الحياة في البيئة العربية حافلة بالمجهود البدني الذي يعتبر رياضة غير مقصودة، ولكنه جزء من فعاليات الحياة.

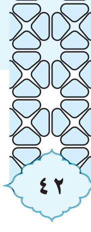
٢- كان ﷺ يتمتع بلياقة بدنية عالية تظهر في مشيه إذا مشى وقوته إذا عمل.

٣- كانت المهارات الرياضية التي يحصل فيها التنافس تجري بين يدي النبي ﷺ، ومنها المصارعة والمسابقة والرمي.

٤- كانت هذه المهارات الرياضية معروفة في البيئة العربية فأقرها النبي ﷺ ورغب في النافع منها.

٥- الألعاب رياضية توجد لدى بعض الشعوب أو في بعض الأزمنة فهي من الرياضات المباحة ما لم يخالطها محرم، كرياضات العنف، أو ما يخالطه الميسر والقمار.

٦- نهى ﷺ عن الألعاب التي فيها ضرر بالإنسان أو الحيوان فنهى عن الخذف، ونهى أن يتخذ شيء فيه الروح غرضاً للرمي.



الرَّسُولُ ﷺ وَالمَرَضُ[١]



كان نبينا ﷺ موفور الصحة، مستتم العافية، أيِّداً شديداً، وكان الذي يراه يحسب أنه أصغر من عمره، ولذا لما قدم المدينة مع أبي بكر قال الراوي: وكان أبو بكر شيخاً وكان رسول الله ﷺ شاباً مع أنه أكبر من أبي بكر سناً.

وكان هناك جذع مسند إلى مشربة[٢] يصعد إليها النبي ﷺ أحياناً، يقول عمر: فَنزَلَ رَسُولُ الله، وَنزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالجِذْعِ، وَنزَلَ رَسُولُ الله ﷺ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ[٣].

وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث[٤].

وخرج ﷺ في جنازة عثمان بن مظعون إلى البقيع فلما دفنوا عثمان

(١) ينظر: «التاريخ الصحي للرسول ﷺ»، د. حسين مؤنس.

(٢) المَشْرَبَةُ: كَالغُرْفَةِ يُخْزَنُ فِيهَا الطَّعَامُ وَغَيْرُهُ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٢٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٤) «جامع الترمذي» (٣٦٤٨).

نظر النبي ﷺ إلى حجر كبير فأمر أحد الصحابة أن يحضره حتى يُعلم به قبر عثمان بن مظعون فذهب هذا الصحابي وأراد انتزاع الحجر فلم يستطع، فقام النبي ﷺ فحسر عن ذراعه يقول الصحابي: كأني أنظر إلى بياض ساعد النبي ﷺ فالتزم الحجر ثم رفعه فأتى به حتى جعله عند رأس القبر[١].

وكان في بدنه قوة ومناعة، فلما قدم المدينة أصابت الحمى كثيراً من أصحابه ولم يرد أنه أصيب بها قبل مرض وفاته، ولم يذكر أن مرضاً أصابه قبل مرض وفاته غير صداع الشقيقة أصابه مرتين، مرة في غزوة خيبر[٢]، ومرة في طريقه لحجه الوداع[٣].

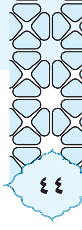
وهكذا كانت حياة النبي ﷺ في عمومها حياة الرجل القوي الأيد الشديد، ثم بدأت تعترضه الأوجاع وكان ذلك في آخر سنتين من حياته ﷺ، وكان من أسباب ذلك أن عام الوفود عام كثر فيه الناس على رسول الله ﷺ قالت أمنا عائشة: حَطَمَهُ النَّاس[٤]. فلما كثرت عليه الوفود حبس نفسه لهم وجلس إليهم حتى فقد لياقته البدنية ﷺ وسمن، وكان هذا الجلوس للناس والتصدي لقضاياهم ووفودهم مما استنفد قواه وأجهد بدنه، ولولا معرفتنا بمرض وفاته لقلنا: إن الذي ذهب به هو الإجهاد الذي استهلك قوته وصحته.

(١) «سنن أبي داود» (٣٢٠٦).

(٢) «المستدرك» (٤٣٣٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٧٠٠).

(٤) «صحيح مسلم» (١٢٩٠).



وصار يصلي أكثر صلاة الليل جالساً؛ لأن بدنه قد ثقل بسبب حبس نفسه للناس، قالت عائشة: ما توفي رسول الله ﷺ حتى كان أكثر صلاته جالساً، وكان يقول لأصحابه إذا صلَّى بهم: «**إِنِّي قَدْ بَدَّنْتُ فَلاَ تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلاَ بِالسُّجُودِ**»(١).

وبدأت تعتريه الأوجاع، تقول عائشة: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَسْقَمُ عِنْدَ آخِرِ عُمْرِهِ، أَوْ فِي آخِرِ عُمْرِهِ(٢).

وأما حال النبي ﷺ مع المرض:

١- كان النبي ﷺ يبوح بألمه، ولا يستنكف أن يذكر آلامه لمن يحبونه ويحبهم، يقول لعائشة وقد قالت له: وَارَأْسَاهُ، فقَالَ: «**بَلْ أَنَا يَا عَائِشَةُ وَارَأْسَاهُ**»(٣). وكانت بدايته مع الحمى ووجع الوفاة.

ودخل عليه عبد الله بن مسعود فرآه قد استعر جسده من الحرارة فقال: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً؟ قال: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»(٤). ولذلك أخذ العلماء من ذلك جواز أن يذكر المريض مرضه ويبوح بمعاناته وألمه على سبيل الإخبار لا على سبيل التسخط.

٢- وكان في أمراضه يتداوى بالرقية، وبالأدوية التي كانت معروفة في البيئة حينها من الحجامة، والتداوي بالأعشاب ونحوها.

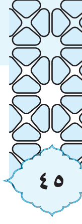
---

(١) «سنن أبي داود» (٦١٩).

(٢) «مسند أحمد» (٢٤٣٨٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٧٢١٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).



فكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يرقيه إذا اشتكى فعن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «**يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟**» قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَالَ: «**بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، وَاللهُ يَشْفِيكَ**»(١).

وكان هو يرقي نفسه وكانت عائشة ترقيه، فعن عروة أن خالته أخبرته: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ(٢).

وتداوى بالحجامة وهي من الطب الشائع في الجزيرة العربية ويناسب بيئتها، فاحْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ فِي رَأْسِهِ، مِنْ شَقِيقَةٍ كَانَتْ بِهِ(٣).

وعَنِ ابْنِ بُحَيْنَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: احْتَجَمَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ مُحْرِمٌ بِلَحْيِ جَمَلٍ(٤) فِي وَسَطِ رَأْسِهِ(٥).

وعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ احْتَجَمَ عَلَى وِرْكِهِ، مِنْ وَثْءٍ(٦) كَانَ بِهِ(٧).

---

(١) «صحيح مسلم» (٢١٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٣٩).

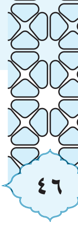
(٣) «صحيح البخاري» (٥٧٠١).

(٤) لحي جمل: اسم موضع بين مكة والمدينة. ينظر: «معجم البلدان» (٥/ ١٥).

(٥) «صحيح البخاري» (١٨٣٦).

(٦) الوَثْء: هو وَهْنٌ في الرجل، دون الخلع، والكسر. ينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١٥/ ٥٥٩).

(٧) «سنن أبي داود» (٣٨٦٣).



وكان يتداوى بالأعشاب والأخلاط، فعن عروة أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف عرفت الطب؟ فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسقم في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه، فتنعت له الأنعات وكنت أعالجها له، فمن ثَمَّ[1]، أي فمن ثمَّ عرفت الطب وتركيب الأدوية.

فقد تداوى صلى الله عليه وآله وسلم، وداوى بعض أصحابه، وأمر أمته بالتداوي فقال: «**تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الهَرَمَ**»[2].

٣- وفي مرض وفاته صلى الله عليه وآله وسلم وُجِعَ وَجعاً شديداً واشتد عليه الألم حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ أحداً أشد وجعاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[3].

فإن بدنه استعر بالحمى، وكان ذلك في فصل الصيف في شهر يونيو/ حزيران، قال عبد الله بن مسعود: إن كنت لأضع يدي فوق غطاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأجد حرارة بدنه من فوق الغطاء، وكان يغمى عليه من شدة الحرارة، وكان الماء يصب عليه من سبع قِرَب من آبار شتى لم تحلل أوكيتهن، لتبرد شدة الحرارة، فإذا أراد أن يقوم أغمي عليه حتى قال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»[4].

ويا لله لهذا النبي الكريم يستعر بدنه بحرارة الحمَّى في فصل الصيف فلا يوجد ما يطفئ التهاب الحرارة إلا الماء يصب عليه.

لقد كنت مرة مريضاً في المستشفى وارتفعت حرارتي فأعطيت دواء لخفض

---

(١) «مسند أحمد» (٢٤٣٨٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٠١٥)، و«جامع الترمذي» (٢١٥٩)، و«سنن ابن ماجه» (٣٤٣٦).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٥٧٠).

(٤) «صحيح البخاري» (١٩٨، ٦٦٤). والأوكية جمع وكاء، وهو الخيط الذي يشد به رأس القربة. ينظر: «عمدة القاري» (٣/ ٩١).

الحرارة ووضعت كمادات الثلج حول رأسي فتذكرت حينها حال النبي ﷺ حين اشتدت عليه الحرارة والمعاناة التي كان يعانيها، ولا يوجد ما يعالجها به إلا وسائلهم البدائية كماء القِرَب، وتمر به هذه الآلام فيتلقَّاها بصبر ورضاً، لم ينقل عنه ضجر أو تبرم، وإنما غاية الرضا والتسليم والاحتساب، وهو أكرم الخلق على الله وأحبهم إليه، فكان في تذكر هذا المشهد النبوي مواساة وسلوى، وعظة وذكرى، حتى نسيت ألمي لألمه، وذهلت عن حالي بحاله ﷺ.

٤- وكان النبي ﷺ مع هذه الآلام يحتسب أجر معاناته عند الله ﷻ، قيل له: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً. قال: «**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**». قالوا: يا رسول الله ذلك أن لك أجرين؟ قال: «**أَجَلْ، مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذىً وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**»(١). فكان ﷺ وهو يتألم يحتسب عند الله ﷻ الأجر والتطهير، ويقدم لأمته القدوة الحسنة في التعامل مع آلام المرض بالصبر واحتساب الأجر.

٥- إن أوجاع النبي ﷺ وآلامه في مرضه لم تذهله عن علاقاته، فها هو في مرض موته يستدعي فاطمة عليها السلام حتى إذا أتت إليه رحب بها وأجلسها إلى جنبه وسارَّها وأخبرها بدنو أجله فبكت، فبشرها أنها سيدة نساء أهل الجنة فضحكت.

ويدخل عليه أسامة بن زيد وقد اشتد به المرض فأُصمت فلا يستطيع أن يتكلم، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء ثم يشير بها إليه، قال أسامة:

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٤١، ٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).

فعلمت أنه يدعو لي[١]. فآخر مشهد رآه أسامة بن زيد من رسول الله ﷺ حبه ودعاؤه له.

وكان يقول لعائشة: «**إِنَّهُ لَيُهَوِّنُ عَلَيَّ أَنِّي رَأَيْتُ بَيَاضَ كَفِّ عَائِشَةَ فِي الجَنَّةِ**»[٢]، فانظر إلى هذه المشاعر الجميلة يبوح بها ﷺ في شدة المرض.

٦- كما أن مرضه ووجعه وآلامه لم تذهله عن أحب شيء إليه، عن قرة عينه، وراحة نفسه، عن صلاته، فعندما أغمي عليه في مرض وفاته كان أهل بيته حوله ينظرون إلى وجهه ويرمقون شفتيه، فلما أفاق كان أول ما تكلم به أن قال: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**». قالوا: لا، هم ينتظرونك[٣]، فكان أول ما سأل عنه حين أفاق الصلاة.

٧- ثم نجد آلام المرض لم تذهله عن أمته والاهتمام لها، فيتحامل في مرض موته على جسد واهن أضناه المرض فيخرج بين علي والعباس ورجلاه تخطان في الأرض لا تحملانه حتى أُجلس بجانب أبي بكر فصلى بالناس وخطبهم[٤]، فكانت خطبة مودع.

وعندما اشتدت به كرب المرض ونزلت به سكرات الموت كان يضع خميصة على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه وقال: «**لَعْنَةُ اللهِ على اليَهُودِ والنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا[٥]. وادخر آخر أنفاسه هتافاً يهاتف به أمته في شأن الصلاة، فَسُمِع آخر ما قال أن قال:

---

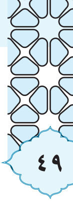
(١) «جامع الترمذي» (٣٨١٧).

(٢) «مسند أحمد» (٢٥٠٧٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٨٧)، و«صحيح مسلم» (٤١٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٧١٣)، و«صحيح مسلم» (٤١٨).

(٥) «صحيح البخاري» (١٣٩٠)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).



«**الصَلَاةَ، الصَلَاةَ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم**»[١]. حتى ما يكاد يبين بها صوته، فما أذهلته آلام المرض وكرب الموت وسكراته عن أمته ودعوتها وهدايتها.

فيا أحبتي الراقدين على الأسرة البيضاء إذا اشتد بكم الألم وأضناكم المرض فتذكروا مرض نبيكم ﷺ، ففي مرضه لكم سلوة، وفي حاله مع الأوجاع أسوة، إنه أكرم الخلق على الله ومع ذلك كان يوعك ويقول: «**إِنِّي أُوعكُ كَمَا يوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُم**»[٢].

خلاصات:

١- كان ﷺ في عامة عمره موفور الصحة، مستتم العافية، ظاهر النشاط والقوة.

٢- اعترته الأوجاع في آخر سنتين من حياته لما حطمه الناس وفقد لياقته، وبَدُن جسمه.

٣- كان يتداوى وكان العرب يَفِدُون عليه فيصفون له أدويتهم فتصنعها له عائشة.

٤- كان يبوح بألمه لأهله وأصحابه، ويحتسب أجر شدة المرض إذا اشتد عليه.

٥- لم يذهله المرض عن إظهار حبه لمن يحبهم.

٦- لم يذهله المرض عن الاهتمام بأمته تعليماً ونصحاً ودعوة إلى آخر أنفاس حياته ﷺ.

(١) «سنن أبي داود» (٥١٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).

الرَّسُولُ ﷺ والطب(١)



جاء ﷺ بالرسالة الهادية للبشرية، والدالة على طريقها إلى الله، وتَرَكَ معايش الناس وأمور دنياهم في مساحة العفو والإباحة موكولةً لاجتهاد البشر؛ لتغيرها بتغير أحوال الناس وأزمانهم وأوطانهم، مع ضبط ذلك بمنعهم من المحرمات الضارة لهم في دينهم ودنياهم.

وكان منها شأن الطب، فهو كغيره من الخبرات البشرية تتكون بتراكم التجربة، كعلم الزراعة والصناعة والعمران وغيرها.

وإذا نظرنا إلى أحاديث الطب في سنة النبي ﷺ وتطبيقاتها في حياته فإنَّا نجدها في هذا السياق، وهذه المساحة الواسعة، وهي مساحة المباح الموكولة إلى اجتهاد البشر وخبراتهم.

ونجد لها في حياة النبي ﷺ معالم هادية، منها:

أولاً: أَمرُه بالتداوي، ففي حجة الوداع سأله الأعراب يوم النحر فقالوا:

(١) ينظر في ذلك كتاب: «فقه الطب النبوي» للشيخ هانئ الجبير، وهو بحث متين محرر، ومنه استفدت في هذا الفصل.

يا رسول الله أَنَتَدَاوَى؟ قَالَ: «**تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»(١).

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا، وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**»(٣).

ثانياً: وكما أمر ﷺ بالتداوي فقد تداوى هو، وداوى بما هو معروف في زمانه من نمط التداوي، فتداوى بالحجامة، كما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ احْتَجَمَ وَهْوَ مُحْرِمٌ فِي رَأْسِهِ مِنْ شَقِيقَةٍ كَانَتْ بِهِ(٤).

وعن جابر، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ عَلَى وَرِكِهِ مِنْ وَثْءٍ(٥) كَانَ بِهِ(٦).

وكان ﷺ يسقم في آخر عمره فكانت وفود العرب تنعت له من أدويتها(٧)، فعن عروة قال: سألت عائشة فقلت: يَا أُمَّتَاهُ، لَا أَعْجَبُ مِنْ فَهْمِكِ؛ أَقُولُ: زَوْجَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَا أَعْجَبُ مِنْ عِلْمِكِ بِالشِّعْرِ، وَأَيَّامِ النَّاسِ؛ أَقُولُ: ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ أَوْ مِنْ

(١) «مسند أحمد» (١٨٤٥٦).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٨٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٦٧٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٧٠١).

(٥) الوَثْء: هو وَهْنٌ في الرجل، دون الخلع، والكسر. ينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١٥/ ٥٥٩).

(٦) «سنن أبي داود» (٣٨٦٣)، و«سنن ابن ماجه» (٣٤٨٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٢٨٤٨).

(٧) «مسند أحمد» (٢٤٣٨٠).

أَعْلَمِ النَّاسِ، وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِنْ عِلْمِكِ بِالطِّبِّ كَيْفَ هُوَ؟! وَمِنْ أَيْنَ هُوَ؟! قَالَ: فَضَرَبَتْ عَلَى مَنْكِبِهِ وَقَالَتْ: أَيْ عُرَيَّةُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْقَمُ عِنْدَ آخِرِ عُمْرِهِ، أَوْ فِي آخِرِ عُمْرِهِ، فَكَانَتْ تَقْدَمُ عَلَيْهِ وُفُودُ الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَتَنْعَتُ لَهُ الْأَنْعَاتَ[١]، وَكُنْتُ أُعَالِجُهَا لَهُ، فَمِنْ ثَمَّ[٢].

ثالثاً: وكما تداوى ﷺ فقد داوى غيره، جاءه رجل فقال: إن أخي قد استطلق بطنُه قَالَ: «**اسْقِهِ عَسَلاً**». فَذَهَبَ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: قَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقاً، قَالَ: «**اسْقِهِ عَسَلاً**». فَذَهَبَ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: قَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقاً، قَالَ: «**اسْقِهِ عَسَلاً**». فَذَهَبَ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: قَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقاً، فَقَالَ لَهُ فِي الرَّابِعَةِ: «**اسْقِهِ عَسَلاً**». فَسَقَاهُ فَبَرَأَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الرَّابِعَةِ: «**صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ**»[٣].

وداوى جرح سعد بن معاذ، قال جابر رضي الله عنه: رُمي يوم الأحزاب سعدُ ابن معاذ، فقطعوا أكحله، فحسمه[٤] رسول الله ﷺ بالنار، فانتفخت يده، فتركه، فنزفه الدم، فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فلما رأى سعد ذلك، قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات[٥]، فقد مات سعد من جرحه ذلك، ولم يبرأ بعلاج النبي ﷺ له؛ لأن علاجه فعل بشري وليس وحياً إلهياً.

(١) أي تصف له الوصفات الدوائية.

(٢) «مسند أحمد» (٢٤٣٨٠).

(٣) «مسند أحمد» (١١١٤٦)، و«صحيح البخاري» (٥٦٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٢١٧).

(٤) أَيْ قَطع الدَّمَ عَنْهُ بالكَيِّ. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٨٦).

(٥) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٣٥٧٩).

رابعاً: وجَّه النبي ﷺ إلى العلاج والتحصن بالأذكار والأوراد والأدعية والتعوذات، وهي الرقية الشرعية، والتي جماعها دعاء الله والتوجه إليه، وسؤاله وحده لا شريك له، لأن حال المريض حال ضرورة يتجرد فيها التوجه لله وحده، فيصادف الدعاء فيها حال اضطرار وإخلاص، وقد قال الله ﷻ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، ولذا كان ﷺ يرقي نفسه في مرضه، فعن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ، إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ، مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»، فَلَمَّا مَرِضَ رَسُولُ الله ﷺ وَثَقُلَ، أَخَذْتُ بِيَدِهِ لِأَصْنَعَ بِهِ نَحْوَ مَا كَانَ يَصْنَعُ، فَانْتَزَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِي، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**»، قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى(١).

وكان جبريل يرقيه فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ؛ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ! اشْتَكَيْتَ؟**» فَقَالَ: «**نَعَمْ**». قَالَ: «**بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ**»(٢)، وكانت عائشة ترقيه، فعنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِهِ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ يَدِي(٣)، وكان يُعوِّذ الحسن والحسين؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعوِّذُ

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢١٩١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢١٨٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٠١٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٩٢).

الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ وَيَقُولُ: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ**»(١).

وأقر تداوي أصحابه بالرقية، فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ، فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلاَ نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً. فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعاً مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ القُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ، وَيَتْفِلُ، فَبَرَأَ، فَأَتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا: لَا نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: «**وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ خُذُوهَا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ**»(٢).

وقد كانت للعرب رقى يتعالجون بها، فأقرهم عليها إلا ما كان فيها شرك فقال: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكاً**»(٣).

ودخل أبو بكر الصديق عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ تَشْتَكِي وَيَهُودِيَّةٌ تَرْقِيهَا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ارْقِيهَا بِكِتَابِ الله(٤).

فالرقية دعاء، والله يجيب دعوة الداع إذا دعاه سواء كان مسلماً أو غير مسلم، وعرف ذلك مشركو العرب فكانوا إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فيُجيبهم ويُنجيهم إلى البر.

خامساً: نهى ﷺ عن أنواع من التداوي الشائعة عند العرب كالتداوي بالرقى الشركية، أو الكهانة، أو الاستعانة بالجن، أو التداوي بالمحرمات،

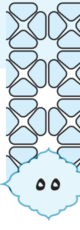
---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٧١).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٧٣٦).

(٣) «سنن أبي داود» (٣٨٨٦).

(٤) «الموطأ» (١٧٥٦).



فعن وائل الحضرمي أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر؟ فنهاه، أو كره أن يصنعها. فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال ﷺ: «**إِنَّهُ لَيسَ بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ**»(١).

وعن أُمِّ سَلَمَةَ قالت: اشْتَكَتْ ابْنَةٌ لِي، فَنَبَذْتُ لَهَا فِي كُوزٍ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَغْلِي، فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟**». فقلتُ: إِنَّ ابْنَتِي اشْتَكَتْ فَنَبَذْنَا لَهَا هَذَا، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِي حَرَامٍ**»(٢).

سادساً: وردت عن النبي ﷺ أحاديث فيها ذكر أنواع من الأدوية:

١- فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»(٣).

٢- وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ نَاساً اجْتَوَوْا(٤) فِي المَدِينَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَلْحَقُوا بِرَاعِيهِ ـ يَعْنِي الإِبِلَ ـ فَيَشْرَبُوا مِنْ البَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَلَحِقُوا بِرَاعِيهِ فَشَرِبُوا مِنْ البَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، حَتَّى صَلَحَتْ أَبْدَانُهُمْ(٥).

٣- وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ فِي الحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ**». وَالسَّامُ: المَوْتُ(٦).

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩٨٤).

(٢) «صحيح ابن حبان» (١٣٩١).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٦٨٠). والكي: إلصاق الحَار من الحَدِيد أَو النَّار بالعضو حَتَّى يَحْتَرِق الجلد. ينظر: «عمدة القاري» (٨/ ٢٤٩).

(٤) اجتووا: أي: أصابهم الجَوى، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).

(٥) «صحيح البخاري» (٥٦٨٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٧١).

(٦) «صحيح البخاري» (٥٦٨٨)، و«صحيح مسلم» (٢٢١٥).

٤- وعَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**عَلَيْكُمْ بِهَذَا العُودِ الهِنْدِيِّ؛ فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ، يُسْتَعَطُ بِهِ مِنَ العُذْرَةِ**[١]**، وَيُلَدُّ بِهِ مِنْ ذَاتِ الجَنْبِ**»[٢].

٥- وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال النبي ﷺ: «**مَنِ اصْطَبَحَ كُلَّ يَوْمٍ بِسبْع تَمَرَاتٍ عَجْوَةً، لَمْ يَضُرُّهُ سَمٌّ وَلاَ سِحْرٌ ذَلِكَ اليَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ**»[٣].

وهنا يجدر التنبيه على الأمور التالية:

١- ذهب بعض العلماء إلى أن الأحاديث الواردة في الطب من الوحي المعصوم، وممن ذهب إلى ذلك النووي في «شرح مسلم»[٤]، وابن القيم في «زاد المعاد» وقال: نسبةُ طبِّ الأطبَّاء إليه ـ أي الطب النبوي ـ كنسبة طبِّ الطُّرُقيَّة والعجائز إلى طبِّهم[٥]، وقال الذهبي: كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالطِّبِّ النَّبوِيّ، الَّذِي ثَبَتَ أَنَّهُ قَالَهُ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي قَصَدَهُ، فَإِنَّهُ قَاله بِوَحْيٍ: «**فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً، إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ دوَاءً**». فَعَلَّمَ رَسُولَهُ مَا أَخْبَرَ الأُمَّة بِهِ[٦].

وقال الحافظ في «الفتح»: قال بعضهم: طب النبي ﷺ متيقن البرء لصدوره عن الوحي، وطب غيره أكثره حدس أو تجربة[٧].

---

(١) العذرة: وجَعٌ فِي الحَلْق يَهيجُ مِنَ الدَّم. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢١٤). وذات الجنب: الدمل الكبيرة التي تظهر في الجنب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٠٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٧٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٧).

(٤) «شرح النووي على مسلم» (١٤/ ٣).

(٥) «زاد المعاد» لابن القيم (٤/ ٨).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٩).

(٧) «فتح الباري» (١٠/ ١٧).

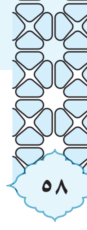
ولذا جمع بعضهم أحاديث الطب وأفردوها في مؤلفات كأبي نعيم، والضياء المقدسي، وابن القيم وغيرهم.

٢- وذهب فريق من العلماء المتقدمين واللاحقين إلى أن أحاديث الطب خبرة بشرية، وأنه طب البيئة القائم على التجربة، فقال ابن العربي: هذا الذي ذَكَرَ النبي من التَّدَاوِي والأدويةِ، ذكَرَ العلّماءُ أنّه خرَجَ على أحدِ قِسْمَي الطّبِّ، وهو الطبُّ التّجاربيُّ، وهو طبُّ الهند والعرَبِ، فخرِّجت أقوالُ النبي عليه السلام على مذاهب أهل التجربةِ، ليأتِيَ العربُ بما كانت تعتادُهُ، دُنُواً منها وتقريباً للمَرَامِ عليها، ففهمت ذلك منه، وبنحوه قال الخطابي، والقاضي عياض، وولي الله الدهلوي وغيرهم[1].

وقال ابن خلدون: كان عند العرب من هذا الطّبّ كثير، وكان فيهم أطبّاء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره. والطّبُّ المنقول في الشّرعيّات من هذا القبيل، وليس من الوحي في شيء، وإنّما هو أمر كان عاديّا للعرب. ووقع في ذكر أحوال النّبيّ ﷺ من نوع ذكر أحواله الّتي هي عادة وجبلّة لا من جهة أنّ ذلك مشروع على ذلك النّحو من العمل، فإنّه ﷺ إنما بعث ليعلّمنا الشّرائع ولم يبعث لتعريف الطّبّ ولا غيره من العاديّات، وقد وقع له في شأن تلقيح النّخل ما وقع فقال: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[2]. فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطّبّ الّذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنّه مشروع فليس هناك ما يدلّ عليه، اللّهمّ إلّا إذا استعمل على جهة التّبرّك وصدق العقد الإيمانيّ

(١) ينظر: «المسالك» لابن العربي (٧/ ٤٥٣)، و«أعلام الحديث» للخطابي (٣/ ٢١٠٧)، و«إكمال المعلم» للقاضي عياض (٦/ ٥٣١)، و«حجة الله البالغة» للدهلوي (١/ ٢٢٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٦٣).



فيكون له أثر عظيم في النّفع. وليس ذلك في الطّبّ المزاجيّ وإنّما هو من آثار الكلمة الإيمانيّة كما وقع في مداواة المبطون بالعسل ونحوه(١).

٣- وهناك من العلماء من لم يصرح بأنها ليست وحياً، ولكنه قال قولاً قريباً من ذلك، حيث ضيق دلالتها، وقيد عمومها جداً، حتى يوائم ذلك مع ما ظهر في الواقع والتجربة من أثرها، مثل علاج الحمى بالماء، والتصبح بتمرات العجوة للوقاية من السم والسحر.

فقال ابن التين عن حديث: «**مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ**»: يحتمل أن يكون المراد نخلاً خاصاً بزمانه ﷺ، وخصّه ابن القيم بأهل المدينة خاصة وأنه يناسبهم ولا يناسب غيرهم، وقال المازري: هذا مما لا يعقل معناه في طريق علم الطب، ولو صح أن يخرج لمنفعة التمر في السم وجه من جهة الطب لم يقدر على إظهار وجه الاقتصار على هذا العدد الذي هو السبع، ولا على هذا الجنس الذي هو العجوة، ولعل ذلك كان لأهل زمانه خاصة، أو لأكثرهم إذ لم يثبت استمرار وقوع الشفاء في زماننا غالباً.

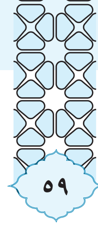
وقال القرطبي: ظاهر الأحاديث خصوصية عجوة المدينة بدفع السم وإبطال السحر، ثم هل هو خاص بزمان نطقه أو في كل زمان؟ هذا محتمل ويرفع هذا الاحتمال التجربة المتكررة(٢).

فيلاحظ أن هؤلاء العلماء ضيّقوا دلالة الحديث بتخصيصه بمكان أو زمان.

وثمة استشكال آخر لم يتطرقوا له وهو إصابة النبي ﷺ في المدينة

(١) «مقدمة ابن خلدون» (١/ ٦٥١).

(٢) ذكر هذه الأقوال الحافظ في «فتح الباري» (١٠/ ١٧٧)، وابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ١٣٤).



بالسحر والسم، مع أن التمر غالب طعامهم في المدينة كما في حديث عائشة قالت عن طعامهم: الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ[(١)].

وكذلك قوله ﷺ: «**إِنَّ الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالمَاءِ**»[(٢)]، فقيل فيه: يحتمل أن يكون لبعض الحميات دون بعض، في بعض الأماكن دون بعض، لبعض الأشخاص دون بعض، فيحتمل أن يكون مخصوصاً بأهل الحجاز ومن والاهم[(٣)].

ولعل الأقرب ـ والله أعلم ـ وصف أحاديث الطب بأنها من أمور الدنيا التي قال فيها ﷺ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[(٤)]، وأن ما ورد عنه ﷺ فهو مما لاحظه بالتجربة وظن فائدته، وليس مما تلقَّاه بالوحي، ولذا فهو مظنة موافقة الواقع أو مخالفته، فإن الطب من مسائل العاديات، فما ورد فيه من أحاديث لا يدخل في نطاق الوحي سواء صح أو لم يصح، فإن وظيفة النبوة طب النفوس لا طب الأبدان، وأن النبي ﷺ مع كونه نبياً لا ينفصل عن بشريته فيأكل ويشرب ويتزوج، ويتعاطى ما يتعاطاه قومه من معارف وأسباب في الأمور الحياتية، قال ابن حزم عند حديث تأبير النخل: فهذا بيان جلي في الفرق بين الرأي في أمر الدنيا والدين، وأنه ﷺ لا يقول الدين إلا من عند الله تعالى، وأن سائر ما يقول فيه برأيه ممكن أن يشار عليه بغيره فيأخذه، وأننا أبصر منه بأمور الدنيا التي لا خير معها إلا في الأقل، وهو أعلم منا بأمر الله تعالى وبأمر الدين المؤدي إلى الخير الحقيقي[(٥)].

---

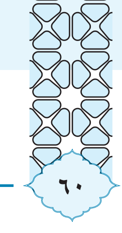
(١) «صحيح البخاري» (٦٤٩٥).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٠٧٤).

(٣) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ١٣٤)، و«فتح الباري» (١٠/ ١٧٧).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٣٦٣).

(٥) «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٥/ ١٣٨).



ومما يؤيد ذلك ويدل عليه:

١- أنا لا نجد أن الصحابة كانوا يتتبعون أدويته ﷺ، ويتقصدون العلاج بها، كما أن النبي ﷺ استعمل الأدوية التي وصفها له أطباء العرب، واستدعى الأطباء لأصحابه، وعرض الصحابةُ أنفسَهم على الأطباء واستشاروهم(١).

فعن سعد بن أبي وقاص قال: مرضت فأتانا النبي ﷺ فقال: «**إِنَّكَ رَجُلٌ مَفْؤُودٌ، ائْتِ الْحَارِثَ بْنَ كَلَدَةَ أَخَا ثَقِيفٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَتَطَبَّبُ**»(٢).

وكان يتخير أمهر الأطباء، فعن زيد بن أسلم، أن رجلاً في زمن النبي ﷺ أصابه جرح فاحتقن الجرح الدم، وَأَنَّ الرَّجُلَ دَعَا رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي أَنْمَارٍ فَنظَرَا إِلَيْهِ، فَزَعَمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَهُمَا: «**أَيُّكُمَا أَطَبُّ؟**». فَقَالَا: أَوَ فِي الطِّبِّ خَيْرٌ يَا رَسُولَ الله؟ فَزَعَمَ زَيْدٌ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَنْزَلَ الدَّوَاءَ الَّذِي أَنْزَلَ الأَدْوَاءَ**»(٣).

٢- أن أهل بيته ﷺ لَدّوه(٤) في مرضه، قَالَتْ عَائِشَةُ: لَدَدْنَاهُ فِي مَرَضِهِ، فَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْنَا، أَنْ لَا تَلُدُّونِي، فَقُلْنَا كَرَاهِيَةُ المَرِيضِ لِلدَّوَاءِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: «**أَلَمْ أَنْهَكُمْ أَنْ تَلُدُّونِي؟**». قُلْنَا: كَرَاهِيَةَ المَرِيضِ لِلدَّوَاءِ، فَقَالَ: «**لَا يَبْقَى فِي البَيْتِ أَحَدٌ إِلَّا لُدَّ - وَأَنَا أَنْظُرُ - إِلَّا العَبَّاسَ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ**»(٥).

فهم قد عالجوه باللدود، ورأوا رفضه لذلك فظنوا أنه فعل فطري وهو

---

(١) «الطب النبوي» لأبي نعيم (١/ ١٩) (٢/ ٦٤٦)، و«فقه الطب النبوي» (٦١).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٨٧٥). ومفؤود: أي مصاب في فؤادك.

(٣) «موطأ مالك» (١٢).

(٤) اللد: هو إدخال الدواء في فم المريض بغير اختياره. ينظر: «إرشاد الساري» للقسطلاني (٨/ ٣٧٦).

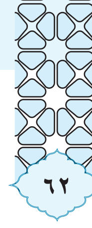
(٥) «صحيح البخاري» (٤٤٥٨).

كراهية المريض للدواء، وعالجوه بما يرونه علاجاً، وهذا يدل على أنهم لا يرون رأيه في العلاج وحياً، وأمراً شرعياً.

٣- عندما توجه عمر إلى الشام بلغه خبر الطاعون قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِي المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ، فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لأَمْرٍ وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ المُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ، وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ: أَفِرَاراً مِنْ قَدَرِ الله؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَى قَدَرِ الله، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِياً لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله؟ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّباً فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْماً، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ**». فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ[1].

والذي نلاحظه في هذا الخبر أن مسلمة الفتح لم يختلفوا، وإنما اتفقوا

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٢٩).



جميعاً على الرجوع وعدم القدوم على الوباء، وسبب اتفاقهم هذا اعتمادهم الخبرة الطبية المنتشرة في وقتهم عن العدوى، فجاء الحديث النبوي موافقاً لهذه الخبرة الحياتية الملاحظة بالتجربة، بينما اختلف من قبلهم لأن بعضهم رأى أن في الرجوع قدحاً في التوكل.

ولذا فإن عدم القدوم على الوباء وعدم الخروج منه هو خبرة بشرية عرفتها الشعوب بالتجربة ومنهم العرب، ولا يصح أن نصفها بأنها طب نبوي فضلاً عن القول بالسبق النبوي إلى الحجر الصحي، وأنه موجود في السنة قبل أن تعرفه البشرية، ولسنا بحاجة إلى التزيد لإثبات صدق الصادق المصدوق ﷺ بهذه الدعاوى.

٤- قال ﷺ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الغِيلَةِ**[١] **حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلاَ يَضُرُّ أَوْلاَدَهُمْ**»[٢]، وهذا دليل جلي على أن هذا النهي كان الاعتماد فيه على الملاحظة البشرية وليس الوحي الإلهي، وعليه فإن بقية ما يتعلق بتدبير الصحة هو من هذا الباب.

٥- الأدوية التي ذكرها النبي ﷺ كانت مجملة، فلم يذكر مقاديرها، ولا طريقة تحضيرها، ولا طريقة التداوي بها، مثل قوله عن الكمأة: «**وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**»[٣]، ولم يذكر ما هو ماؤها، هل يعصر منها أو يغلى معها؟ ولذا اختلف العلماء في طريقة تطبيق هذا الوصف، وذكروا أن هناك من

---

(١) الغيلة: أَنْ يُجَامِعَ الرجُل زوْجَته وَهِيَ مُرْضِع، وَكَذَلِكَ إِذَا حَملت وَهِيَ مُرْضِع. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٠٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٤٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٩).

استعمله على ظاهره فأضره وعمي بذلك، أو رمد[١]، فعن صالح وعبد الله ابني الإمام أحمد أنهما اشتكت أعينهما فأخذا كمأة وعصراها واكتحلا بمائها فهاجت أعينُهما ورمدا، وذكر ابن الجوزي أن بعض الناس عصر ماء كمأة فاكتحل به فذهبت عينه[٢].

أما الصحابة فلم يستفصلوا ولم يسألوا مما يدل على أن ما ذكره النبي ﷺ كان نوعاً من التداوي معروفاً تفصيله لديهم، ويكفي من النبي الإشارة إليه فيعرفون الوصفة ومقدارها وطريقتها.

فكان ذكر التداوي بها مع من كانوا يعرفون طريقتها، ولا يمكن لنا اليوم ادّعاء معرفة طريقتها عندهم.

قال المازري: علم الطب من أكثر العلوم احتياجاً إلى التفصيل، حتى إن المريض يكون الشيء دواءه في ساعة ثم يصير داءً له في الساعة التي تليها لعارض يعرض له، وإذا فرض وجود الشفاء لشخص بشيء في حالة ما لم يلزم وجود الشفاء له أو لغيره في سائر الأحوال[٣].

فأين هذا التفصيل الطبي في هذه الوصفات الواردة عنه ﷺ؟ وأي تكلف في تقديرها أو تفصيلها وطريقة التداوي بها فهو تكلف وادّعاء خارج عن النص الوارد.

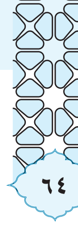
ونحن بغنى عن ذلك كله إذا قلنا: إن النبي ﷺ كان يحكي خبرة بشرية وليس وحياً سماوياً.

---

(١) الرمد: هيجان العين، وانتفاخها. ينظر: «تاج العروس» (٨/ ١١٦).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ١٦٤).

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٧٧).



٦- يلزم من وصف الطب بالنبوي، أن نصف لباسه باللباس النبوي، وأكله بالأكل النبوي، وسفره بالسفر النبوي، وهكذا يتحول الهدي النبوي المتحرك إلى جمود لحركة الحياة وتطورها.

٧- هناك مجالات في الحياة أهم من الطب ولم يتخذ النبي ﷺ لها نظاماً خاصاً يعينه لها، كالشأن العسكري، ففي معركة أُحد جمع الصحابة واستشارهم، وعندما جاء الأحزاب لم ينتظر الوحي وإنما جمع الصحابة واستشارهم أيضاً، واتخذ استراتيجية في الخندق غير استراتيجيته في أُحد، فلكل معركة ظروفها وتطورها، وهكذا شأن أمور الحياة الدنيوية بعامة، الأصل فيها التطور والتغير، كطرائق الزراعة، والصناعة، والعمران، والطب ونحوها.

٨- لم يرد في شرائع الأنبياء تشريع في المعالجة الطبية وأدواتها، وما جاء عن عيسى عليه السلام هي معجزات دالة على نبوته وليست شريعة لأمته؛ وذلك لأن الأنبياء هداة إلى طريق العبودية لله وليسوا أطباء ولا صيادلة.

٩- الطب النبوي ينبغي أن يكون قاصراً على ما له تعلق بالتعبد كالرقى والدعوات والتعوذات ونحوها؛ لأنها تشريع مصدره الوحي، وهو تعامل مع الله وتعبد له وفق ما شرعه، أما ما كان من العلاج بالأغذية والأدوية، والأعشاب، فمرجعه للخبرة والتجربة.

١٠- من التكلف القول بأن ما ورد من الأدوية المذكورة في الأحاديث إنما تنفع إذا استعملت باعتقاد النفع، فإن ذلك يُخرج الطب عن كونه طباً، إذ الطب محاولة لتلمس الأسباب الكونية الموصلة لدفع المرض واسترداد الصحة، فإن الله أجرى الكون على مقتضى هذه الأسباب غالباً بغض النظر عن اعتقاد فاعلها[١].

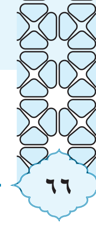
---

(١) «فقه الطب النبوي» (٦٤).

١١- وهذه الوصفات الدوائية وصفات بسيطة غير معقدة ولا مركبة، وهي من جنس أغذية البيئة العربية والتي تكون غالباً بسيطة قليلة الأخلاط، والتداوي بها ثقافة عربية شائعة في ذلك العصر، وموجودة في البيئة العربية في بادية الحجاز، والبيئات المشابهة لها، كبلاد نجد وبادية العراق والشام، فهم يعرفونها ويتوارثونها، ويتداوون بها باعتبارها طباً تجريبياً وليس طباً نبوياً، بل لا يعلمون غالباً أحاديث الطب هذه ولا يروونها لغلبة الأمية فيهم، ومن أمثلة ذلك التداوي بأبوال الإبل وألبانها، فهي ثقافة طبية بدوية معروفة في بلاد العرب إلى اليوم يستخدمونها لعلاج الأمراض الباطنية من غير احتجاج بالحديث، وإنما بالخبرة والتجربة، فيخلطون حليب الإبل بقليل من بول ناقة بكر ويسمونه الوَزْر، وهي وصفة مناسبة للبيئة البدوية، ولذا أرشد النبي ﷺ إليها الأعراب، وأما أهل المدينة فلم يذكرها لهم، وعندما اشتكى إليه رجل أن أخاه قد استطلق بطنه أرشده إلى العسل، فهو طب المدن، ولذا فلا يعلم أن النبي ﷺ تداوى بألبان الإبل وأبوالها، ولا أرشد إليها أحداً من أصحابه، ولم يرو إلا في حديث العُرنِيّين لأنهم أعراب لم يناسبهم ريف المدينة فأعادهم إلى بيئتهم الصحراوية ليصحوا فيها.

ولذا فليس من الصواب تسمية جميع أحاديث الطب بالطب النبوي، لأن الإضافة إلى النبوة تجعل مصدرها الوحي، بينما مصدر أغلبها الخبرة البشرية، وثقافة البيئة، وهو ما يسمى اليوم بالطب الشعبي.

١٢- إذا كان قد حصل التوسع والتكلف والتأويل المستكره فيما يسمى بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فحولت دلالات النصوص من كونها خطاباً للفطرة البشرية لدلالة الخلق على عظمة الخالق فيما خلق، ولإقامة



الحجة عليهم حسب إدراكهم الفطري المشترك، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، فحولت هذه النصوص إلى آيات في علم الفلك، وعلم الأجنة، والجيولوجيا، بحيث لا يُفْهم معناها إلا في المختبرات والمراصد وأجهزة الكمبيوتر.

فإن هذا التوسع حصل أشد منه فيما يسمى بالإعجاز العلمي في الطب النبوي، إلا أنه قد خالطه في أحاديث الطب النبوي معرة أخرى خطيرة، وهي شهوة الطمع والتجارة، واستغلال الدين للدنيا، بتحضير وصفات ومستحضرات وأخلاط على أنها من الطب النبوي، وربما يتوسع باب الدجل والاحتيال إلى ادّعاء اكتشاف أدوية نبوية للأمراض المستعصية كالسرطان والإيدز، وادّعاء أن شركات الأدوية تحارب الطب النبوي، ليبقى هذا الكشف سراً لا يعرفه إلا هؤلاء المسوقون للغباء باسم الطب النبوي.

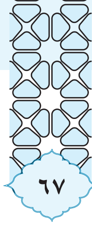
خلاصات:

١- أمر ﷺ بالتداوي فقال: «**تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**».

٢- وكما أمر بالتداوي فقد تداوى هو ﷺ، وداوى غيره بما هو معروف في زمانه من أسباب التداوي.

٣- وجَّه ﷺ إلى التداوي والتحصّن بالرقية الشرعية والتي جماعها دعاء الله، وسؤاله وحده لا شريك له.

٤- نهى ﷺ عن أنواع شائعة من التداوي المحرم كالرقى الشركية، والاستعانة بالكهان أو التداوي بالمحرمات كالخمر.



٥- استعمل ﷺ الأدوية التي كان يصفها له أطباء العرب، واستدعى الأطباء لأصحابه، وعرض الصحابةُ أنفسَهم على الأطباء واستشاروهم.

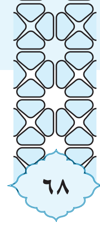
٦- ذكر ﷺ أنواعاً من الأدوية التي كانت شائعة في وقته كالحجامة، والحبة السوداء، والعود الهندي ونحوها.

٧- ذهب بعض العلماء إلى أن الأحاديث الواردة في الطب من الوحي المعصوم، وذهب فريق من العلماء إلى تخصيصها وتضييق دلالتها فخصوها بالمدينة وما حولها، وهناك من خصصها بنوع من الأمراض وإن وردت عامة.

٨- وذهب فريق آخر إلى أن أحاديث الطب خبرة بشرية وليست وحياً يوحى، وأنها من طب البيئة القائم على التجربة.

٩- ومع هذا الخلاف فإن العلماء قرروا دلالة هذه الأحاديث على إباحة التداوي بما ورد، ولا يتعدى ذلك ليكون واجباً أو مندوباً.





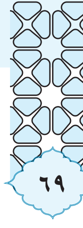
الرَّسُولُ ﷺ والقِيَادَة[١]



القيادة هي القدرة على تحقيق الإنجازات من خلال كسب الناس وإقناعهم بتبني رؤية خاصة، وتحفيزهم لبذل كل ما في وسعهم من جهدٍ لإنجازها بإيمان وحماس، وهذا الوصف للقيادة تجده متحققاً تماماً في القيادة النبوية، فقد كسب ﷺ قلوب أصحابه فهو أحب الخلق إليهم، وأقنعهم بدينه ورسالته فكانوا في غاية اليقين الإيماني بالرسالة والرسول، وحفزهم لبذل جهدهم في سبيل الرسالة بتفان وحماس، فتحقق بذلك أعظم إنجاز وهو بلاغ الرسالة ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

وكانت القيادة بمكوناتها وصفاتها ومهماتها مؤتلفةً في شخصية النبي ﷺ، فالقيادة إحدى وظائفه ومعالم شخصيته، والتي تحتويها وظيفته العظمى وهي بلاغ الرسالة من الله إلى عباده، وكانت قيادة البشرية إحدى وسائل أداء الرسالة، وتحقيق البلاغ، واستنقاذ البشرية وإسعادها، وليست قيادة الزعامة والعلو في الأرض، ولذا بقي هذا النبي الكريم على سمته

(١) ينظر: «القيادة وأثرها في كسب الولاء»، د. فيصل بن جاسم آل ثاني، و«قيادة الرسول السياسية والعسكرية»، أحمد راتب عرموش.



الأخلاقي العظيم حينما دانت له الجزيرة العربية كلها وانقادت له ملوكها وزعماؤها كما هو حينما كان في مكة وأصحابه هم القلة المستضعفة فيها، ولم تزده القوة والفتح إلا تواضعا وقرباً، ورحمة وبراً.

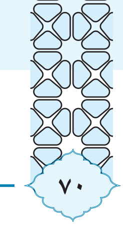
ولذا فلا يصح مقارنة زعامته وقيادته بقيادات الزعماء والكبراء والملوك والأباطرة الذين كانت الزعامة طموحهم الأكبر وشهوتهم العظمى، ومؤهلاتهم لها مواهبهم الشخصية، أما زعامة النبي ﷺ فإنه مع مواهبه وقدراته الفائقة إلا أن مؤهله كان الوحي المنزل عليه، والرسالة المبعوث بها؛ والتأييد الإلهي الذي يصاحبه، ولذا فقيادته هي القيادة للسعادة، واحتواء الناس بالحب، واستنقاذهم من الهلكة، من غير أن يختار لنفسه حظاً، أو يسألهم على ذلك أجراً.

وعندما ننظر إلى النبي ﷺ قائداً، فإنما ننظر إلى أحد جوانب العظمة في شخصيته التي هي مجموعة من الصفات والمهارات التي تتميز بها شخصيته ﷺ، والتي جعلت أصحابه يأتلفون حوله على تنوعهم في قبائلهم وبلدانهم وأعمارهم، يجمعهم الإيمان به، والحب له، والاقتناع اليقيني باتباعه وطاعته، فإذا هم بمجموعهم جسد واحد متناغم الحركة، وكأنما القيادة النبوية هي الروح الجامعة لهم، المؤلفة بينهم.

وعندما نستعرض صفات النبي ﷺ القيادية تتضح لنا معالم مضيئة، منها:

أولاً: وضوح الفكرة والهدف:

فقد كانت دعوته ﷺ واضحة لا لبس فيها، يفهمها الأعرابي والأمي كما يفهمها ذو العلم والمعرفة، ولذلك يشرحها جعفر بن أبى طالب وهو



المؤمن بها للنجاشي كما يشرحها أبو سفيان الكافر بها لهرقل لشدة وضوحها، وعندما أمر ﷺ معاذاً أن يدعو أهل الكتاب في اليمن حدَّد له معالم واضحة لا التباس فيها ولا غموض: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ**»[(١)].

ومضامين هذه الدعوة مضامين نبيلة تستجيب لها الفِطر، وتأتلف عليها العقول، ليس فيها ما يجعل العقل في أزمة، ولا الإنسان في حرج.

وكما كانت الدعوة واضحة جلية فقد كان الهدف واضحاً عظيما تصغر أمامه الأهداف الدنيوية الصغيرة، والعاجلة الزائلة، إنه الجزاء الأخروي في دار الخلود الأبدي، وجعل هذا الموعود نصب أعينهم، ويظهر ذلك في بيعة العقبة الثانية، حيث قال ﷺ للأنصار: «**فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمُ الجَنَّةُ**»[(٢)]. ولم يعدهم بشيءٍ آخر من أعراض الدنيا ومناصبها وجاهها، وقوله ﷺ لآل ياسر وهم يعذبون في مكة: «**صَبْراً آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ**»[(٣)]، وقد بقي هذا الهدف نصب أعينهم يسترخصون كل ما يبذلونه فيه، أرواحَهم وأموالهم.

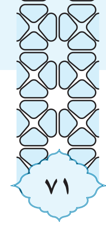
إن كل موعود يتضاءل أمام هذا الموعود المرتقب في دار الخلود، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٤٥٨)، و«صحيح مسلم» (١٩).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٧٥٤).

(٣) «المستدرك» (٥٦٦٦).



ثانياً: التحفيز للمهمات:

وكانت للنبي ﷺ طرائقه في التحفيز بحسب الموقف والحال، فمن ذلك قوله ﷺ قبيل معركة بدر: «**لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ**». فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأصحابه: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**». قَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ الله، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**». قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**». فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[١].

وفي يوم أحد أخذ رَسُولُ الله ﷺ سَيْفاً فقَالَ: «**مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ؟**». فَأَخَذَهُ قَوْمٌ فَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**مَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟**». فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بن خرشة: أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ. فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ هَامَ الْمُشْرِكِينَ[٢].

لقد كان هذا التحفيز قبل المعركة طاقة دافعة للجيش كله، ولذا ظهر أثر ذلك في تفاعل أبي دجانة وعمير بن الحمام وغيرهما.

وكان ﷺ يحفز بالعطاء وبالثناء وبالمسؤولية ينيطها برجال يقدرون عليها فيشعرون بالثقة والمسؤولية، وبذلك احتوى الجميع، كلٌ بما يناسبه ويليق له.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩٠١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٧٠).

فعن عمرو بن تغلب، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِمَالٍ فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى رِجَالاً وَتَرَكَ رِجَالاً، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ فَوَالله إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَاماً لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَاماً إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ، فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ**». قال عمرو: فَوَالله مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ الله ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ[(١)].

فكان ﷺ في عطائهم يراعي نفسيات الناس ومشاعرهم وقدراتهم، فيعطي من لديه التشوف للعطاء، ويثني على أهل الصبر بما هو أحب إليهم من كثير من العطاء.

وكذلك يحفز أصحاب المواهب ويستثير مواهبهم فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَالله لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ**»[(٢)].

وعن عَمْرو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، قال: فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**». فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «**أَبُوهَا**». قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ**». فَعَدَّ رِجَالاً[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٩٢٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٨١٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٦٦٢)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٤).

لقد كانت تولية عمرو بن العاص على الجيش مع حداثة إسلامه تحفيزاً له وإشعاراً له بالثقة، ولذا شعر بالحظوة من رسول الله ﷺ فسأله: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ وكأنه كان يطمع أن يكون أولهم.

لقد جعلت طرائق التحفيز النبوية الصحابة في حال استنفار، بل في سباق ومسارعة وتنافس في الخير.

ثالثاً: الحكمة في اتخاذ القرار:

إن الحكمة والبراعة في اتخاذ القرارات، وحسن إدارة المواقف من ضرورات القيادة وأهم صفات القائد، وقد تجلّى ذلك في كثير من المواقف النبوية:

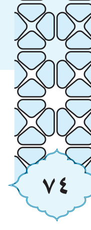
١- كما حدث في صلح الحديبية حيث تنازل لقريش عن كثير مما طلبوه حتى تم الصلح، ولم يتوقف عند مراغمات مفاوض قريش وتعنته في رفضه كتابة: «**بِسْمِ الله الرحْمَنِ الرَحِيمِ**» فقال: «**اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللهُمَّ**». وعندما كتب: «**مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**»، قال: اكتب اسمك واسم أبيك، فأعطاه ذلك لأنه يرضيهم ولا يضره، وبذلك تم الصلح الذي كان فتحاً مبيناً[١].

٢- وكمنعه من قتلِ رأس المنافقين عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلول على شدة أذاه وكيده، حتى لا يوحش نفوس الأنصار، وحتى لا يقال: بأنَّ محمداً يقتل أصحابه[٢].

٣- وكإشغاله الجيش بالسُّرى حتى لا تفشو مقالة عبد الله بن أُبيّ حين قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، وكانت كلمة شنيعة

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٨٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).



منه يمكن أن تحدث لغطاً وفتنة، فأشغلهم ﷺ بالمسير المجهد عن الحديث الذي يثير الفتنة ويفشي المقالة[١]، وبذا أطفأ الفتنة وقصر تداعي أثر هذه الكلمة.

وعندما ننظر في أفعاله ﷺ اليوم فإنا لا نجد فعلاً فَعلَه وكان غيره أولى منه، ولا كلمة قالها وكان غيرها أحسن منها، فكل تصرفاته وأقواله وإدارته للمواقف كانت هي الحكمة والقرار الأنسب لموقفه ذلك.

رابعاً: حسن التخطيط:

ويظهر ذلك في تخطيط المعارك وإدارة الجموع واستيعاب الوفود، ومن ذلك ما عمله في معركة أحد حيث كان المشركون عند أحد مستقبلين المدينة ينتظرون وصول رسول الله ﷺ إليهم فلما أصبح قال لأصحابه: «**مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ طَرِيقٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمِ؟**»[٢]، فتخلل نخيل بني حارثة حتى خرج عليهم من خلف جبل الرماة ففاجأهم من خلفهم، ووجدوه من حيث لم يتوقعوه وترتب على ذلك إرباك تخطيطهم الذي بنوه على توقعهم.

وقبل بدء المعركة وضع فريق الرماة على جبل الرماة فعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الرُّمَاةِ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلاً عَبْدَ الله بْنَ جُبَيْرٍ رضي الله عنه فَوَضَعَهُمْ مَكَاناً فَقَالَ: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَتَخَطَّفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَوَطِئْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا**

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/٢٩١).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٥).

حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»[١]، وبذلك حمى ظهر الجيش وحصر المعركة في وادٍ ضيق قلَّلَ فاعلية الكثرة العددية للمشركين فتحقق النصر في الجولة الأولى من المعركة حتى انهزم المشركون وسقط لواؤهم، ولكن مخالفة الرماة للأمر ونزولهم من الجبل فتحت هذه الثغرة فنفذ منها فرسان المشركين وتغير مسار المعركة ونتيجتها.

وكذلك في غزوة الأحزاب حينما فاجأ قريش بخطوة لم تكن متوقعة، وهي حفر الخندق، فكانت مفاجأة أفشلت خطتهم، وجعلت جمعهم الهائل عبئاً عليهم، ووقف أبو سفيان أمام الخندق بحسرةٍ وهو يقول: هذه مكيدة ما كيدت بمثلها العرب[٢].

وكذلك الضربات الاستباقية التي يفاجئ بها من كانوا يستعدون لقتاله فإذا به يسبقهم بالمبادرة كما في غزوة بني المصطلق، وهكذا كان تخطيطه محكماً، وقراراته مدروسة، وخططه معدة بعناية.

خامساً: إدارة الأزمات:

وذلك بالثبات والصبر، وحسن التصرف في إدارة الأزمات والعبور منها بسلام، ومن ذلك إدارة الموقف بعد معركة أحد، حيث حفَّزَ المسلمين للحاق بجيش المشركين في حمراء الأسد، وكان في ذلك إرهابٌ للمشركين الذين شعروا أن المسلمين لا زالوا في حال تحفزٍ وعزم على القتال، وتقويةٌ لنفوس المسلمين بإعادة لحمتهم، وتجديد قوتهم، والربط على قلوبهم.

وكذا إدارة الموقف في الخندق وهي ساعة شدةٍ ورعب زاغت فيها

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٦٦٢).

(٢) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (٢/ ٦٣٥).

الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وقد كان في عمله مع أصحابه في الخندق مدداً لعزائمهم، وهم يرونه يحمل التراب حتى غطى التراب بطنه، وفي هذه الشدة يرون استبشاره بالنصر القادم، والفتوح الموعودة، فكان في ذلك أعظم مدد للثبات والمصابرة.

وإدارة الموقف يوم فتح مكة فقد أعطى الأمان لكل من دخل داره، ثم أرسل الأنصار وخالد بن الوليد وأمرهم بالقضاء على كل فرقةٍ يجمعها الأوباش لمواجهة جيش الفتح، فجمع بين العفو والحزم.

سادساً: اليقظة، وأخذ الاستعداد:

فقد كان ﷺ في غاية الاحتراس واليقظة، وكان له عيون توافيه بالأخبار، وسرايا تستطلع له تحركات الأعداء وتعلَمُ له أخبارهم، ففي السنة الأولى من الهجرة أرسل سرية بقيادة عبد الله بن جحش وأعطاه كتاباً وأمره أن يفتحه بعد يومين من مسيره، فَلَمَّا سَارَ عَبْدُ الله بْنُ جَحْشٍ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الكِتَابَ، فنَظَرَ فِيهِ فَإِذَا فِيهِ: «**إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشاً وَتَعَلَّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ**»[١]. إنه الاستطلاع اليقظ، ومعرفة حال العدو عن قرب.

وعندما عادت عير أبي سفيان من الشام أرسل عيناً له يأتي بأخبارهم، قال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْناً يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي البَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي، وَغَيْرُ رَسُولِ الله ﷺ، فَحَدَّثَهُ الحَدِيثَ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: «**إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِراً فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا**». فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٠٢).

المَدِينَةِ، فَقَالَ: «**لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِراً**». فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا المُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ[١].

وهنا يظهر الاستطلاع لمسار العدو واستخبار أحواله قبل وصوله، ثم المبادرة بالخروج بحيث طلب ألا يخرج إلا من كان ظهره حاضراً لأن الانتظار يفوت الفرصة.

وعندما تهيأت قريش للمسير إليه في معركة أحد وصله كتاب العباس قبل مسير المشركين يخبره بمسيرهم وعددهم واستعدادهم، وكذا وصله خبر مسير قريش والأحزاب بحيث تمكن من اتخاذ الاحتياطات وحفر الخندق قبل وصولهم[٢].

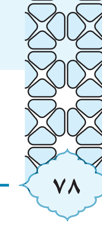
سابعاً: اختيار الكفاءات:

ويظهر ذلك في اختياره الكفاءات المناسبة للمهمات، فيضع كلا أمام المسؤولية التي تناسبه، ويكون لديه اقتدارٌ ومهارة على أدائها، **ولذلك أمثلة كثيرة، منها:**

عن حذيفة رضي الله عنه قال: لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ؟ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ؟ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ؟ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ القَوْمِ**». فَلَمْ أَجِدْ

(١) «صحيح مسلم» (١٩٠١).

(٢) ينظر فصل «الرسول ﷺ والشجاعة».



بُدّاً إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ**[١] **عَلَيَّ**». فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْماً فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**». وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ[٢]، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِماً حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**»[٣].

لقد كان حذيفة شابّاً يجمع الجرأة والحذر، ولذا دخل في غمار القوم بثبات، ولم يتجاوز وصاة النبي ﷺ فسرب فيهم من غير أن يذعرهم.

ومن ذلك إرساله عليّاً والمقداد إلى المرأة التي كانت تحمل رسالة حاطب بن أبي بَلْتَعة ينذرهم بجيش النبي ﷺ القادم عليهم لفتح مكة، فعن علي رضي الله عنه قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ، وَالمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ، قَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً، وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا**». فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فأنخنا بها، فابتغينا في رحلها فلم نر كتابا، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ[٤].

---

(١) الذعر: الفزع، أي لا تفزعهم ولا تثيرهم علي. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ١٤٥).

(٢) قُرِرْتُ: أي: بردْتُ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٧٨).

(٣) «صحيح مسلم» (١٧٨٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٠٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٤).

لقد كان علي والزبير والمقداد شباباً جريئين ولذا عندما فتشوا متاع المرأة فلم يجدوا الرسالة لم يكتفوا بذلك فهددوها بتجريدها من ثيابها، ليقينهم بخبر رسول الله ﷺ، فلما رأت جرأتهم وعلمت عزمهم على تنفيذه أخرجته من داخل شعر رأسها، إن هذا الموقف يقدم عليه شباب جريئون، ولكن لو أرسل النبي ﷺ غيرهم من أشياخ المسلمين لربما احتشموا من هذا الموقف، فكان رجال المهمة هم علي والزبير والمقداد.

لقد كان ﷺ يحسن اختيار الكفاءات وتوزيع المسؤوليات؛ فيختار ذوي القدرات من أصحابه ويفوضهم بالصلاحيات، فقد أرسل معاذا والياً ومعلماً إلى اليمن وهو شاب، وأرسل أسامة قائدا لجيش فيهم أبو بكر وعمر وهو شاب، وولَّى القيادة لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد على حداثة إسلامهما، ولم ينقل أنه ولَّى أبا ذر الغفاري ولا بلالا ولا ابن مسعود على فضلهم وسابقتهم لأن لكلٍ ما يناسب مواهبه.

ومن خلال هذه المهمات التي يسندها، والأعمال التي يكلف بها، وإحاطة المستشارين حوله، أعد ﷺ القيادات الواعدة التي سوف تتحمل المسؤولية بعده، وتتولى القيادة بعد وفاته، ولذا لم تقع الأمة في فراغ قيادي بوفاته، ولا فوضى واضطراب بعده وإنما تولى الأمر تباعاً أولئك القادة الذين أهّلهم ﷺ، فكانوا يمارسون مهامهم بين يديه في حياته، وأتموا المهمة باقتدار بعد وفاته.

ثامناً: الشورى:

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بمشاورة أصحابه، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وقال أبو هريرة:

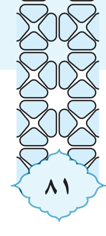
مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ[١]، وفي المشورة إشراك لهم في القرار وتحمُّل المسؤولية.

وقد استشار النبي ﷺ أصحابه في مواقف كثيرة منها: عند خروجه لغزوة بدر حين بلغه خروج قريش للقتال فاستشار أصحابه، وقال: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ**». فقال أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال وأحسن، فقال لهم رسول الله ﷺ خيراً ودعا لهم بخير، ثم قال: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ**». وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بغير بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال سعد بن معاذ: والله لكأنك يا رسول الله تريدنا؟ قال: «**أَجَلْ**». قال سعد بن معاذ: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فُسرّ بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال ﷺ: «**سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ عز وجل قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ**»[٢].

إنك بذلك تشعر أنك أمام قائد عظيم يخاطب قادة أكفاء على قدر عال من العزة وقوة الإيمان وصدق اليقين بموعود الله على الرغم من ضعف

(١) «مسند أحمد» (١٨٩٢٨).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٣-٣٤)، وأصله في «صحيح مسلم» (١٧٧٩).



الإمكانات المادية المتاحة لهم وقتها، ولذا ائتلف موقفهم، واتحدت كلمتهم، وشعروا أنهم شركاء في الرأي والمشورة.

ولو كان لشخص ألا يستشير لكان هو رسول الله ﷺ الذي يتنزّل عليه الوحي من السماء، ومع ذلك يُجري ﷺ هذا الحوار الراقي الرائع الذي يستطلع من خلاله آراء القيادات التي معه، ويطمئن إلى استعداد الجيش لخوض المعركة، ويجري هذه المشاورة التي يتجلى فيها أدب الحوار، وحسن التعامل مع الجنود، والحرص على معرفة جميع الآراء من كافة المجموعات.

ولما سار ﷺ ووصل أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرٍ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الحُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ: يَا رَسُولَ الله، مَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَعَدَّاهُ وَلَا نُقَصِّرُ عَنْهُ؟ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ**». فَقَالَ الحُبَابُ: يَا رَسُولَ الله، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، وَلَكِنِ انْهَضْ حَتَّى تَجْعَلَ القُلُبَ[1] كُلَّهَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ، ثُمَّ غَوِّرْ كُلَّ قَلِيبٍ بِهَا، إِلَّا قَلِيباً وَاحِداً، ثُمَّ احْفِرْ عَلَيْهِ حَوْضاً، فَنُقَاتِلُ القَوْمَ، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «**قَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ**». فَفَعَلَ ذَلِكَ[2].

ومثل ذلك: استشارته الصحابة قبل معركة أحد، فعن عُرْوَةَ بن الزبير أنه ذَكَرَ قِصَّةَ أُحُدٍ وَإِشَارَةَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى المُسْلِمِينَ بِالمُكْثِ فِي المَدِينَةِ، وَأَنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أَبَوْا إِلَّا الخُرُوجَ إِلَى العَدُوِّ قَالَ: وَلَوْ تَنَاهَوْا إِلَى قَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ وَأَمْرِهِ كَانَ خَيْراً لَهُمْ وَلَكِنْ غَلَبَ القَضَاءُ وَالقَدَرُ، قَالَ:

---

(١) القُلُب: جمع قليب، وهي آبار المياه. ينظر: «النهاية» (٤/ ٩٨).

(٢) «المستدرك» (٥٨٠١).

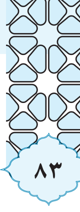
وَعَامَّةُ مَنْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِالخُرُوجِ رِجَالٌ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْراً وَقَدْ عَلِمُوا الذِي سَبَقَ لِأَهْلِ بَدْرٍ مِنَ الفَضِيلَةِ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ صَلَاةَ الجُمُعَةِ وَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِالجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ خُطْبَتِهِ وَصَلَاتِهِ، فَدَعَا بِلَأْمَتِهِ[(١)] فَلَبِسَهَا، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالخُرُوجِ، فَلَمَّا أَبْصَرَ ذَلِكَ رِجَالٌ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ، قَالُوا: أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَمْكُثَ بِالمَدِينَةِ، فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْنَا العَدُوُّ قَاتَلْنَاهُمْ فِي الأَزِقَّةِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالله وَبِمَا يُرِيدُ وَيَأْتِيهِ الوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ أَشْخَصْنَاهُ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ الله أَنَمْكُثُ كَمَا أَمَرْتَنَا؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا أَخَذَ لَأْمَةَ الحَرْبِ وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالخُرُوجِ إِلَى العَدُوِّ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يُقَاتِلَ، وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى هَذَا الحَدِيثِ فَأَبَيْتُمْ إِلَّا الخُرُوجَ، فَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى الله وَالصَّبْرِ إِذَا لَقِيتُمُ العَدُوَّ وَانْظُرُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوهُ**»، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ[(٢)].

وهنا نلاحظ أن النبي ﷺ كان له رأي عرضه عليهم وهو عدم الخروج، فلما رأى أكثرُهم الخروج نزل عن رأيه إلى رأيهم، ولبس لأمته وأخذ سلاحه وخرج، فلما تراجعوا عن رأيهم لم يرجع هو؛ لأن القائد لا يكون مترددا كثير الآراء، بل ذا عزم وثبات وقد أخذت المشورة نصيبها وجاء دور العزيمة، كما قال ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

كما نلاحظ أنه ﷺ بعد المصيبة في أُحد لم يذكّرهم برأيه ومشورته، ولم يَلُم الذين أشاروا بالخروج، ولم يرجع عليهم بالعتاب؛ لأن الرأي صار جماعياً يتحمل الجميع مسؤوليته.

(١) اللَّأْمَة: الدِّرْع. وَقِيلَ: السِّلاح. ولَأْمَةُ الحَرب: أداتُه. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٢٠).

(٢) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٣٢٨١).



وفي معركة الخندق حين بلغه مسير قريش والأحزاب فاستشار الصحابة، فقرروا حفر الخندق، وكان الذي أشار بذلك سلمان الفارسي، فقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق، وعمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين[(١)].

وكان سلمان حينها حديث عهد بِحُرية، ومع ذلك كان له مكانته ولمشورته قيمتها، وهذه براعة نبوية في استنفار الكفاءات واستثارة الطاقات.

تاسعاً: الشجاعة:

فقد كان النبي ﷺ شجاعاً مقداماً يسير أمام الجيش، ويشارك في المعارك، وقاتل مع أصحابه، وكانوا يلوذون به عند اشتداد القتال، فقد آتاه الله تعالى قوةً وقدرةً وبأساً شديداً، قال علي رضي الله عنه: كُنَّا وَالله إذَا احْمَرَّ البَأْسُ نَتَّقِي به، وإنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي به، يَعْنِي النبيَّ ﷺ[(٢)].

والأتباع إنما يثقون وينقادون لقائد يفوقهم شجاعة وإقداما وقوة ورباطة جأش وهكذا كان ﷺ[(٣)].

عاشراً: الصدق والأمانة:

وهذه الصفة التي شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء، وهي التي تورث الثقة بالقائد، وتجعل لكل ما يقوله مصداقية عالية في نفوس أتباعه، وكان لرسول ﷺ من ذلك الكمال كلِّه، فقد كان الرسول ﷺ يلقب قبل بعثته بالصادق الأمين، وهذه صفة الرسل، كما جاء على لسان هرقل عظيم الروم

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٥٦٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣١٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٣) ينظر فصل: «**الرسول ﷺ والشجاعة**»، ففيه مزيد تفصيل.

عندما سأل أبا سفيان عن النبي ﷺ فقال: وسَأَلْتُكَ: هلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ، فَزَعَمْتَ أنْ لَا، فَعَرَفْتُ أنَّه لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ علَى النَّاسِ، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ علَى اللهِ[1].

الحادي عشر: العفو والاحتواء:

فكان ﷺ يُغلِّب الحِلم واللين، والعفو والتسامح ما أمكنه ذلك، وبذلك احتوى الأعداء، وأطفأ العداوات، وألف القلوب وجمعها، وكان إلى العفو والحلم أقرب منه إلى العقوبة، والشواهد على ذلك كثيرة منها: رفضهُ ﷺ إهلاك قومه عندما جاءه ملَك الجبال ليأتمر بأمره إن أراد أن يُطبقَ عليهم الجبلين، فاستدفع العقوبة أملاً في أن يهديهم الله أو ذراريهم للإسلام[2].

ومنها ما فعله عند فتح مكة من عفوٍ ورحمة، برغم ما فعله به أهلها وما ارتكبوه من جرائم في حق المسلمين، لكنَّه عفا عنهم ولم يعاقبهم.

وقال ﷺ للمشركين يوم فتح مكة: «**مَا تُرَوْنَ أَنّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟**». قَالُوا: خَيْراً، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطّلَقَاءُ**»[3]، فدخلوا الإسلام وصاروا جند الإسلام وحملته من بعده.

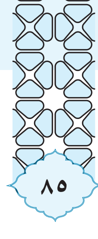
وتألَّف من كانوا أشد أعدائه ومحاربيه كأبي سفيان، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وعوف بن مالك النصري، وعيينة بن حصن الفزاري وغيرهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١٢)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧-٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧-٥٦٨).



الثاني عشر: حفظ مكانة الزعماء والكبراء:

ومن ذلك احتواؤهم وتأليفهم وإبقاء زعامتهم، فأبقى كل زعيم على زعامته وتألَّفهم بالأعطيات، ولم يفقد أحد مكانته بإسلامه، وطوى ما سبق من عداواتهم كعيينة بن حصن، وأبي سفيان، وعوف بن مالك النصري وغيرهم، وعندما قدم عليه عليّ بذهيبة من اليمن قسمها بين أربعة من الزعماء يتألَّفهم وهم: الأقرع بن حابس الحنظلي، وعلقمة بن علاثة العامري، وعيينة ابن بدر الفزاري، وَزيد الخير الطائي[١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**»[٢]، وذلك ليعطي لأبي سفيان تميزاً وفخراً، لسيادته ومكانته في مكة، وبذلك شعروا أنهم صاروا معه على مكانتهم وسيادتهم، وبكسبه للزعماء كسب أتباعهم ونظراءهم، وشعر الجميع أن في اتِّباعهم له ﷺ غنيمة في دينهم ودنياهم.

الثالث عشر: كسب قلوب الناس وقضاء حوائجهم:

كان تعامل النبي ﷺ مع الناس مما يستنبت الحب في قلوبهم ويفتح أغاليقها، حتى كان أحبَّ إليهم من أنفسهم، وقد كان يجمع إلى حسن الخلق معهم والتحبب إليهم السعيَ في قضاء حوائجهم والتصدي لمسألتهم بكرم ورحابة صدر، فعن أبي سعيد الخدري أنَّ نَاساً مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٤).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٨٠).

عِنْدَهُ، فقَالَ: «**مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»(١)، وهنا نجد أن النبي ﷺ أعطى ثم أعطى ثم أخبر أنه لن يدخر عنهم شيئا، ثم أوصى بجميل الصبر، وفي تصديه لحاجات الناس وإغاثة لهفتهم قيامٌ بأهم واجبات القيادة ومسؤولياتها، فهو مقصدهم فيما ينوبهم، وهم مقصده فيما ينوبه، بل كان يُحرض أصحابه على رفع مسألة السائل والشفاعة له حتى يكون للجميع صلةٌ حسنةٌ بالمعروف، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كانَ رَسولُ الله ﷺ إذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أوْ طُلِبَتْ إلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، ويَقْضِي اللهُ علَى لِسَانِ نَبيِّهِ ﷺ ما شَاءَ**»(٢).

وكان يقول: «**مَنْ تَركَ مَالاً أوْ ضيَاعاً فَلوَرثِته، وَمنْ تَركَ دَيناً فَإليَّ وعليَّ، أَنا أَوْلَى بِكُلِ مُسلمٍ مِنْ نَفْسِه**»(٣)، وكان مقصد المحتاجين وملاذهم، فعَنْ قَبيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الهِلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا**»(٤).

وبذلك احتوى ﷺ القلوب والعقول، وقاد الناس بعواطفهم وقناعاتهم، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

والاستعدادُ لمساعدة الآخرين ورعاية شؤونهم والاهتمام بهمومهم من أكثر مبادئ القيادة تأثيراً، فكيف إذا قدم للناس على أنه دين وعبادة لله عز وجل.

(١) «صحيح البخاري» (١٤٦٩).
(٢) «صحيح البخاري» (١٤٣٢)، و«صحيح مسلم» (٢٦٢٧).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٣٩٩)، و«صحيح مسلم» (٨٦٧).
(٤) «صحيح مسلم» (١٠٤٤).

الرابع عشر: إقامة العدل:

كان ﷺ قائماً بالعدل، والمحاسبة العادلة للجميع بلا تفريق ولا تمييز، ومن ذلك موقفه ﷺ من شفاعة أسامة بن زيد للمرأة المخزومية التي سرقت، حيث رفض ذلك الأمر وغضب غضباً شديداً وقال: «**إنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الحَدَّ على الوَضِيع ويَتْرُكُون الشَّرِيفَ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لو أنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذلك لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[(١)]، وبنو مخزوم من سادات مكة ووجهائها، وأهل الحلقة والسلاح فيها، وهم أخوال عبد الله والد النبي ﷺ، وهم أصهاره ﷺ فمنهم أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، ومع ذلك لم تُؤثِّر هذه القرابة والقربى في إحقاق الحق وإقامة العدل وتطبيق الحكم.

وفي خطبته في حجة الوداع أعلن وَضْعَ دماء الجاهلية وربَاها تحت قدمه ثم قال: «**وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ**»[(٢)]، فبدأ بأسرته وأهل بيته فأبطل ما كان لهم في الجاهلية من دماء وربا.

وعندما افتتح خيبر صالح أهلها أن يبقيها في أيديهم وجعلها بينهم وبينه بنصف ثمرتها، فبعث عبد الله بن رواحة يخرصها[(٣)] فخرصها عليهم ثم قال لهم: يا معشر يهود أنتم أبغض الناس إليَّ، قتلتم أنبياء الله، وكذبتم على الله عز وجل،

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٧٥)، و«صحيح مسلم» (١٦٨٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٣) الخرص: تقدير ثمرة النخل وهو لا زال في رؤوس النخل، قبل أن يجفف ويكال. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٢).

وليس يحملني بغضي إياكم أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألفَ وسقٍ من تمر، فإن شئتم فلكم وإن أبيتم فلي، فقالوا: هذا الحق، وبِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، قَدْ رضينا[١].

وبإقامة العدل وإحقاق الحق صار الناس في مأمن أن تنتقص حقوقهم، أو يستأثر عليهم، وشعر الجميع من مسلمين ومعاهدين بالطمأنينة والرضا، حتى قال اليهود: هذا الحق وبه قامت السماوات والأرض، قد رضينا.

الخامس عشر: القدوة الحسنة:

لقد كانت القيم والمبادئ التي يدعو إليها ﷺ متمثلة في حاله وأفعاله، فأداؤه لها هو الأداء الأكمل ولذا قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ[٢]. فكانت كل هدايات القرآن تتجلى في أخلاقه، ولذا جعله الله القدوة لعباده لكمال تحقق تعاليم الدين في شخصه وسلوكه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾.

فكان التطبيق النبوي هو الأفق الأعلى الذي يحاول أتباعه الارتقاء إليه وإن لم يدركوه.

وهذا هو مبدأ الأنبياء بعامة في بلاغ رسالتهم، وهو تمثلها في حياتهم والالتزام بها مع الدعوة إليها كما قال شعيب لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾.

وهذا الخلق النبوي الذي يؤديه ﷺ تعبداً لله وانقياداً لأمره هو في الوقت ذاته من مبادئ القيادة الأساسية؛ فإن الأتباع ينظرون إلى أفعال القادة

---

(١) «مسند أحمد» (١٤٩٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٤٦).

ويصدقونها أكثر مما يصدقون أقوالهم، والمقياس الوحيد الذي يقيسون به هو الفعل وليس القول، ولما جيء بغنائم فارس الثمينة إلى عمر بعد القادسية فرأى الخزائن الغالية قد وصلت إليه بتمامها قال: إن قوما أدوا هذا لأمناء، فقال علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين، إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتْ رَعِيَّتُكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعَتْ(١).

إن هذه الصفات القيادية وغيرها من الكمالات في شخصية النبي ﷺ جعلته قائداً استثنائياً لم يعرف التاريخ له نظيراً ولن يعرف، فقد قاد الأمة بالحب، وغرس في قلوبهم يقين الإيمان، ورفع نظرهم إلى أسمى الأهداف وأنبل الغايات، وحقق بهم أعظم إنجاز تحقق للبشرية في تاريخها الطويل كله.

خلاصات:

١- القيادة إحدى الوظائف التي تحتويها وظيفة النبي ﷺ العظمى، وهي بلاغ الرسالة من الله لعباده؛ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾.

٢- وضوح الفكرة التي يدعو الناس إليها، ووضوح الهدف الذي يقصده.

٣- التحفيز لاستثارة المواهب، وتفجير الطاقات، وتفعيل التنافس في الخير.

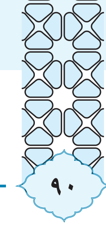
٤- الحكمة في اتخاذ القرارات وتدبير الأمور.

٥- حسن التخطيط للمهمات، والاستعداد لما يعرض بالتخطيط المحكم، والتدبير الحسن.

٦- الاقتدار على إدارة الأزمات، واحتواء المفاجآت بما يحفظ ثبات الجماعة، وصلابة الموقف.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٠/ ١٧).



٧- اليقظة والحذر وأخذ الأهبة، والاستعداد، ولذا كان له عيون واستخبارات توافيه بالأخبار، وما يُكاد له ويرصد، فيسبقها بالاستعداد لها، واتخاذ التدابير لمواجهتها.

٨- حسن اختيار ذوي الكفاءات للمهمات المتنوعة، فيختار الكفاءة المناسبة للوظيفة المناسبة، بحسب اللياقة والقدرة.

٩- من معالم القيادة في الحياة النبوية، الشورى، فلم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

١٠- الشجاعة والجرأة والثبات، فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الشجاع عند الإقدام، والجريء عند الفزع، والثابت عند الاضطراب والخوف.

١١- الصدق والأمانة التي عرف بها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، مما يجعل لكل ما يقوله مصداقية عالية، وثقة تامة في نفوس أتباعه.

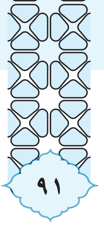
١٢- احتواء الزعماء، والكبراء، وتأليفهم وإشعارهم بمكانتهم؛ لأن في ذلك كسباً لأتباعهم، وتوجيهاً لقدراتهم في الخير.

١٣- قضاء حوائج الناس، واستقبال مسألتهم، فصار مقصداً وملاذا لهم، ولم يكن يدخر عنهم ما يمكن بذله، وبذلك كسب القلوب وتألَّفها.

١٤- إقامة العدل بين الناس، وعدم التفريق بينهم في إقامة الحق، واستيفاء الحقوق.

١٥- العفو والتسامح، وتغليب الحلم واللين، مما قصر أعمار العداوات، واحتوى الخلافات، وسهَّل الطريق للعائدين وأمَّنهم.

١٦- تمثل أقوالِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في أفعالِه، وسَبْقُه إلى التخلق بما يأمر به ويهدي إليه، ولذا فهو أسوة الناس، به يقتدون وله يتبعون.



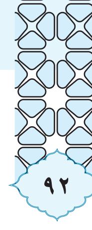
الرَّسُولُ ﷺ وَمَعْرِفَةُ الوَاقِعِ

كانت معرفة النبي ﷺ بالواقع في زمنه معرفة واسعة ومدركة، على تباعد البلاد، وضعف التواصل، وصعوبة انتقال المعلومة، ومع ذلك نجد معرفة النبي ﷺ بالواقع معرفة مفصَّلة مستوعبة وواعية.

فمن ذلك معرفته بالواقع السياسي للدول حوله، ومعرفته بالقبائل والأشخاص والأديان والعادات والبيئة.

١- **أما معرفته بالواقع السياسي**، فتظهر بجلاء في إرساله الصحابة إلى الحبشة، ووصفه لملكها بأنه ملك عادل لا يُظلم الناس عنده، فلما هاجروا إليه وجدوا عنده العدل والأمان، ثم ظهر أثر هذا الوعي في مراسلات النبي ﷺ إلى الملوك وحكام النواحي، ككسرى وقيصر والمقوقس وملك عُمان وغيرهم.

٢- **وأما معرفته بالأشخاص، فيظهر في شواهد، منها**: حديث كعب بن مالك رضي الله عنه حينما قدم مع الأنصار في قدمتهم الأولى على النبي ﷺ في مكة قبل بيعة العقبة، وكان عمه العباس يعرِّفه بهم فلما قال: وهذا



كعب بن مالك. قال النبيُّ ﷺ: «**الشَّاعِرُ؟**». قال كعب: فلا أنسى قوله: «**الشَّاعِرُ؟**»[(١)]. لقد كان كعب حينها شاباً، وما كان شعره بالشهير الذائع، ومع ذلك وصل خبره وحاله إلى النبي ﷺ.

ومن معرفته بالأشخاص: حديث مُنْقِذ بن حَيَّان، وكان من أهل جُواثَى في البحرين، وكان متجره إلى يثرب في الجاهلية، فشخص إليها بملاحف وتمر من هَجَرْ بعد هجرة النبي ﷺ، فبينا مُنْقِذٌ قاعد إذ مر به النبيُّ ﷺ، فنهض مُنْقِذٌ إليه، فقال النبيُّ ﷺ: «**أَمُنْقِذُ بْنُ حَيَّانَ، كَيْفَ جَمِيعُ هَيْئَتِكَ وَقَوْمِكَ؟**». ثم سأله عن أشرافهم رجلاً رجلاً، يسمِّيهم بأسمائهم[(٢)].

ولك أن تتساءل عن شعورِ غريب يجد في غربته مَن يسأله عن بلده وقومه ويعرف أسماء قرابته ورجال قريته، فأسلم منقذ ثم رحل إلى قومه برسالة النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، فأسلموا.

ولما جاءه خالد بن الوليد مسلماً قال له: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**»[(٣)].

لقد كان للنبي ﷺ معرفة بعقل خالد، وتوقع لما سينتهي إليه تفكيره وتبصره في أمره.

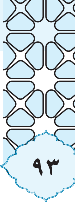
٣- وأما معرفته بالأديان، فيتجلَّى من حواره مع عدي بن حاتم، فإنه لما أتاه وكان نصرانيّاً قد تقلَّد الصليب، فعرض النبيُّ ﷺ عليه الإسلام فقال عديٌّ: إِنِّي مِنْ أَهْلِ دِينٍ. فقالَ له: «**أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ**». فقال: أَنْتَ

---

(١) «مسند أحمد» (١٥٧٩٨).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (١/ ١٨١).

(٣) «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥١).



أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟ قال: «**نَعَمْ، أَلَسْتَ رَكُوسِيّاً؟**». قال: بَلَى. قال: «**أَلَسْتَ تَرْأَسُ قومَكَ؟**». قال: بَلَى. قال: «**أَلَسْتَ تأْخُذُ مِرْباعَ قومكَ؟**». قال: بَلَى. قال: «**فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكِ**». قَالَ: فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ذَلِكَ تَوَاضَعَتْ مِنِّي نَفْسِي[(١)].

فلفت نظره إلى أنه يتشبَّث بدين هو يخالفه، ولذا فُوجِئ عديٌّ بمعرفة النبي ﷺ حكماً تفصيليّاً في دينه، ومعرفته بمخالفة عديٍّ لهذا الحكم.

٤- وأما معرفته بالعادات فيظهر في مواقف منها: حديث الحديبية حينما أرسلت قريش رجلاً من بني كِنانة ليفاوض النبيَّ ﷺ، فلما رآه النبيُّ ﷺ قال: «**هَذَا فُلَانٌ مِنْ قَوْمٍ يعظِّمونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ**». فبُعثتْ، واستقبله القومُ يلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء، أن يُصدُّوا عن البيت، ورجعَ إلى قريش، يقول لهم: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدتْ وأُشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت[(٢)].

إن معرفة النبي ﷺ بحال هذا الرجل وقومه وتعظيمهم للبيت وما يُهدى إليه وطريقة عرض الهدي أمامه جعلته ـ وهو الذي جاء مفاوضاً عن قريش ـ يعود إليهم مُنْكِراً صدهم عن البيت من جاءه معتمراً معظماً له.

ومن معرفته بعادات الشعوب قوله: «**لَقَد هَمَمْتُ أنْ أَنْهَى عَنِ الغِيلَة**[(٣)]**، فَنَظرتُ فِي الرُّومِ وَفَارسَ، فِإذَا هُمْ يُغِيلونَ أَولَادَهُم، فَلا يَضَرُّ أَوْلادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئاً**»[(٤)].

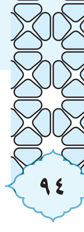
---

(١) «مسند أحمد» (١٨٢٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٣) الغيلة: أَنْ يُجَامِعَ الرجُل زوْجَته وَهِيَ مُرْضِع، وَكَذَلِكَ إِذَا حَملت وَهِيَ مُرْضِع. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٠٢).

(٤) «صحيح مسلم» (١٤٤٢).



فقد علم أن مجامعة المرضع عادة عالمية فاشية في فارس والروم ولم تضرهم، ولذا عدل عن النهي عن ذلك.

ولما قدم عليه وفد عبد القيس ـ وهم من سكان هَجَر شرق جزيرة العرب ـ سألوه عن الأسقية التي ينتبذون فيها فقال: «**أنهاكُم عَنْ أَربَعٍ: عَنْ الدُّبَّاء، والنَّقِير، والحَنْتَم، والمُزَفَّت**». قالوا: وما علمُك بالنَّقِير؟ قال: «**بَلَى، جِذْعٌ يُنْقَرُ، ثُمَّ يُلْقُونَ فِيهِ مِنَ القُطَيْعَاءِ أَوِ التَّمْرِ وَالمَاءِ، حَتَى إِذَا سَكَنَ غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ، حَتَى إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّهِ بِالْسَيْفِ**». وفي القوم رجلٌ أصابته جِراحة من ذلك، قال: فجعلت أُخَبِّئُها حياءً من رسول الله ﷺ[(١)].

انظر إلى معرفته بعادات سكان شرق الجزيرة مع أنه يعيش في أقصى غربها.

٥- وأما معرفته بالبيئة فمن شواهد ذلك وصفه آخر أهل النار خروجاً منها، وهم الجهنَّميون، وأنهم يخرجون من النار وقد امتُحشوا[(٢)]، فيُلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحِبَّةُ في حَمِيل السَّيل[(٣)]، ثم قال: «**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟ أَلَا ترون مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟**». فقالوا: يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالبَادِيَةِ؟![(٤)]

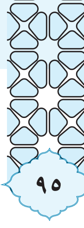
لقد كان هذا الوصف عن معرفة بالبيئة حوله مع أنه ﷺ لم يستوطن البادية وإنما عبرها مسافراً، وليس للعابر ملاحظة المستوطن المستقر، ومع ذلك عجب الصحابة من معرفته من حال البادية ما لا يعرفه إلا من عاش بها.

(١) «صحيح البخاري» (٨٧)، و«صحيح مسلم» (١٧)، و«صحيح ابن حبان» (٤٥٤١).

(٢) قد امتحشوا: أي: احترقوا، والمحش: احتراق الجلد وظهور العظم. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠٢).

(٣) حميل السيل: هو ما يجيء به السيل من طين أو غثاء وغيره. ينظر: «النهاية» (١/ ٤٤٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٣، ١٨٤).



ومن ذلك وصفه الكَلاليب التي على جهنم تخطف أهل النار فيلقون فيها: «**فِي حَافَّتَي الصِرَاطِ خَطَاطِيفُ وَكَلالِيبُ وحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَها شَوْكَةٌ عُقَيفاءُ مِثل شَوكٍ تَكوُنُ بِنَجْد يُقَالُ لَها: السَّعدانُ**». قال رسولُ الله ﷺ: «**هلْ رِأيتُمْ شَوكَ السَّعْدانِ؟**». قالوا: نعم، قال: «**فَإِنَّها مِثلُ شَوكِ السَّعْدانِ، غَيرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدرَ عَظمِها إِلَّا اللهُ**»[(١)]، وشوك السعدان من نبات البوادي.

ولما وصف ﷺ ورق سِدرة المنتهى قال: «**وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيلَةِ**»[(٢)]، والفيل حيوان أفريقي لم يره النبي ﷺ في حياته ولكنه علم صفته فشبه به عظم ورق سدرة المنتهى.

وعندما وصف المنافق قال: «**ومَثَلُ المُنَافِقِ كَالأَرْزَة**[(٣)]**، لَا تَزَالُ حَتى يَكُونَ انْجعَافُهَا مرَةً وَاحِدةً**»[(٤)]. وشجرة الأرز ليست من شجر الجزيرة ولم يصل النبي ﷺ إلى منابتها في غرب الشام لكن عرف صفتها وشَبَّهه بها.

وما لم يكن النبي ﷺ يعلمه من المعارف ولكنه يحتاج إليه فإنه يستعين بمن يعلمونه، فقد كان ﷺ أميّاً ولكنه أحاط نفسه بمجموعة من الكتبة يكتبون له ويقرؤون بلغوا نحواً من (٤٨)[(٥)]، وكتبوا القرآن بين يديه آية آية فور نزولها.

وكلف زيد بن ثابت بتعلم اللغة العبرانية ليتولى الكتابة ليهود وقراءة ما يكتبونه[(٦)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٨٠٦)، و«صحيح مسلم» (١٨٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٨٨٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٢).
(٣) شجرة طويلة معروفة تنبت في الشام، وهي شعار علم لبنان.
(٤) «صحيح البخاري» (٥٦٤٣)، و«صحيح مسلم» (٢٨٠٩).
(٥) ينظر: «كتَّاب النبي» لمحمد مصطفى الأعظمي.
(٦) «جامع الترمذي» (٢٧١٥).

٦- وهنا يرد التساؤل: هل مصدر هذه المعرفة الخبرة والوعي أم التلقي من الوحي؟

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن مصدر هذه المعرفة بالواقع هي دقة الملاحظة، وقوة الحفظ، وحسن استخدام المعلومة والاستفادة منها.

وقد كان النبي ﷺ بمكة وهي ملتقى القبائل ومحج الناس ومقصدهم، فالإقامة بها ولقاء من يقصدها وملاحظة أحوالهم، والوعي لأقوالهم يجمع متفرق المعلومات، ويقرب بعيد المعارف، كما كان سفره مرتين للشام مصدر إثراء معرفي لمن هو في مثل يقظته ودقة ملاحظته.

والذي يؤكد ذلك أن هناك معلومات من هذا الجنس لم يكن النبي ﷺ يعلمها وإنما استعان بمن يعلمها مثل معرفته بتأثير تأبير النخل[١]، فقد ظن أن النخل لا يحتاج إلى التأبير ثم عرف ذلك من الأنصار وهم أصحاب نخل.

وكذلك لم يكن يعلم أن الملوك لا يقبلون كتاباً إلا مختوماً فأخبره أصحابه بذلك فاتخذ الخاتم[٢].

وكان يستعين بأصحاب الخبرة من أصحابه في معرفة ما لم يكن يعرفه، ومن ذلك أنه عندما كان يعرض نفسه على القبائل كان أبو بكر معه يُعرِّفه بالقبائل ورجالاتها[٣]، وعندما التقى بوفد الأنصار كان عمه العباس هو الذي يُعرِّفه برجالاتهم لمعرفته بهم لأنه كان يقدم عليهم في المدينة[٤].

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٦١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٩٢).

(٣) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٧/ ٢٩٧)، و«الروض الأنف» (٤/ ٣٦)، و«فتح الباري» (٧/ ٢٢٠).

(٤) «مسند أحمد» (١٤٨٠٨).

إن هذه الحالات القليلة الاستثنائية تبين أن سعة معارف النبي ﷺ ومعرفته بواقعه كانت نتيجة وعي وملاحظة، وحسن تَحصُّلٍ على المعلومة وإحسان استخدامها.

وأن هذا هو الأصل في علمه بالشأن الدنيوي ولذا قال الله له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

أما علمه فيما يبلغه عن الله من شرعه فمصدره الوحي المنزل عليه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾.

٧- إن سعة معارف النبي ﷺ ووعيه بواقعه الذي يعيشه ويعايشه تبين أهمية معرفة الداعي بحال المدعوين وظروفهم وما يحتاجون إليه.

ولتنوع مهمات النبي ﷺ رسولاً وإماماً وحاكماً وقائداً ومعلماً وقاضياً، تنوعت معارفه واتسعت، وقد لا يحتاج إلى هذا الاتساع والتنوع من اختص بمجال معين وأقبل على حال خاصة، فإنه يحتاج إلى العلم والمعرفة بما هو متوجه إليه، وهكذا كان جلُّ الصحابة رضي الله عنهم، فكان لكُلِّ واحد منهم معارفه الواسعة في مجاله وما توجه إليه.

خلاصات:

١- كانت معارف النبي ﷺ واسعة ومتنوعة، في البلاد والأشخاص والأديان والعادات والبيئة.

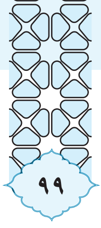
٢- كان مصدر هذه المعرفة: الوعي والتواصل، وكان لبيئته في مكة وكثرة من يرد عليها وتنوعهم مصدر إثراء معرفي.

٣- نظراً لتنوع مهمات النبي ﷺ، رسولاً وإماماً وقائداً وقاضياً، وعموم رسالته للعالم فقد اتسعت معارفه وتنوعت.

٤- ما لم يكن من معارفه ﷺ فإنه كان يستعين فيه بمن يعلمه، كما أحاط نفسه بالكتاب، ومترجمي اللغات.

٥- هذا التنوع في المعارف يحتاجه كل داعية في بيئته التي يدعو فيها ومع الفئة التي يخاطبها.





الرَّسُولُ ﷺ والسَّفَرُ



كان للنبي ﷺ أسفاره قبل البعثة وبعدها، وقبل الهجرة وبعدها، وتنوّعت أغراض السفر وأسبابه في حياته.

فسافر طفلاً مع أمه إلى المدينة لزيارة قبر أبيه وأخوال جده[١]، وسافر وهو في الثانية عشرة إلى الشام رفقة عمه أبي طالب[٢]، ثم سافر وهو في الرابعة والعشرين مرة أخرى إلى الشام في تجارة خديجة[٣].

وسافر بعد البعثة إلى الطائف للدعوة[٤]، ثم إلى المدينة للهجرة، ثم كانت أسفاره للجهاد والفتح، وللعمرة والحج، وللنزهة حيث يبدو[٥] إلى التلاع التي حول المدينة إذا أعشبت[٦]، وكان السفر ذلك الوقت قطعة من العذاب فلا يتقحّمه أحد إلا لحاجة، ويمكن تعداد أغراض النبي ﷺ

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٠٤).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٦٢٠).

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ١٠٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٥) يبدو: أي: يخرج إلى البادية لحصول الخلوة وغيرها. ينظر: «عون المعبود» (٢/ ٣١٢).

(٦) «سنن أبي داود» (٤٨٠٨).

في أسفاره قبل البعثة بالزيارة والتجارة، وبعد البعثة بالدعوة، والهجرة، والجهاد، والنزهة، والعمرة، والحج.

وعند النظر في حال النبي ﷺ مسافرا تتجلى لنا سمات منها:

أولاً: الذكر في السفر، فكانت أسفاره عامرة بالذكر لله وتعظيمه وتوحيده وتحميده ودعائه جل وعز.

وكأن في هذا الإسفار بالسفر رؤية مشاهد متجددة من عظمة الله في خلقه وكونه، فكان ذلك مما يستوجب ذكره والثناء عليه جل وعز، وتبدأ أذكار السفر في بداية بدايته، فذُكِرَ عنه أنه كان يقول حين ينهض للسفر: «**اللهُمَّ بِكَ انْتَشَرْتُ، وَإِلَيْكَ تَوَجَّهْتُ، وَبِكَ اعْتَصَمْتُ، اللهُمَّ أَنْت ثِقَتِي، وَأَنْتَ رَجَائِي، اللهُمَّ اكْفِنِي مَا أَهَمَّنِي وَمَا لَا أَهْتَمُّ بِهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، وَزَوِّدْنِي التَّقْوَى وَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَوَجِّهْنِي لِلْخَيْرِ حَيْثُ مَا تَوَجَّهْتُ**»[(١)].

وإذا قدمت إليه دابته ليركبها يقول: «**بِسْمِ الله**». حين يضع رجله في الركاب، وإذا استوى على ظهرها، قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[(٢)]، ثم يقول: «**الحَمدُ لله، الحَمدُ لله، الحَمدُ لله**»، ثم يقول: «**اللهُ أَكبَرُ، اللهُ أَكبَرُ، اللهُ أَكبَرُ**». ثم يقول: «**سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»[(٣)]، وكان يقول: «**اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى، اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ،**

(١) «مسند أبي يعلى» (٢٧٧٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٣٤٢).

(٣) «سنن أبي داود» (٢٦٠١).

وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ». وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»(١)، وكان هو وأصحابه إذا علوا الثنايا كبروا، وإذا هبطوا الأودية سبحوا(٢).

وكان إذا أشرف على قرية يريد دخولها يقول: «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينَ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ القَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا**»(٣).

وإذا دخل عليه وقت السحر في السفر قال: «**سَمِعَ سَامِعٌ بِحَمْدِ اللهِ وَحُسْنِ بَلَائِهِ عَلَيْنَا، رَبَّنَا صَاحِبْنَا وَأَفْضِلْ عَلَيْنَا، عَائِذاً بِاللهِ مِنَ النَّارِ**». يقول ذلك ثلاث مرات ويرفع بها صوته(٤). فكان للسفر أذكاره الخاصة في منازله وأقواته مع أذكاره اليومية المعتادة، إنه رسول الله الذي يذكر الله على كل أحواله وفي كل أحواله.

ثانياً: مما يلاحظ في سفره تواضعه ومساواة حاله بحال أصحابه، فليس له شارة المتعاظمين، وإنما يسير مع أصحابه في غمارهم، لا يميزه في مظهره وحاله شيء عنهم، ولذا لما لقي ركبا وهو عائد من حجة الوداع قال: «**مَن القومُ؟**». قالوا: المسلمون، قالوا: مَن أنت؟ قال: «**رَسُولُ اللهِ**».

---

(١) «صحيح مسلم» (١٣٤٢).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٥٩٩).

(٣) «صحيح ابن خزيمة» (٢٥٦٥).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٧١٨)، و«الدعوات الكبير» للبيهقي (٤٦٨).

فَفَزِعت امرأةٌ منهم فأخذت بعَضُدِ صبيٍّ لها فأخرجته من محفَّتها[١] فقالت: يا رسولَ الله، ألهذا حجٌّ؟ قال: «**نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ**»[٢].

وأعجب من سؤالهم رسولَ الله ﷺ: مَن أنت؟ فلم يكن لرسول الله ﷺ شارة تميِّزه، ولا هيئة ورسوم تخصُّه، ولكنه مع الناس بينهم، منغمر فيهم، قريب منهم، شأنَ إخوانه من أنبياء الله ورسله عليهم السلام: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ**﴾.

وقال أنس: حج رسول الله ﷺ على رحل رث وقطيفة لا تساوى أربعة دراهم، وهو يقول: «**لَبَّيْكَ حَجَّةً لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ**»[٣].

ثم سار ﷺ في غمار الناس حتى قال أنس: كنت ردف أبي طلحة على راحلته وإن ركبته لتكاد تصيب ركبة النبي ﷺ[٤]، وذلك لازدحام الناس حوله وانغماسه بينهم.

ثالثاً: ونظرا لطبيعة السفر في ذلك الوقت وأنه دخول في صحاري مقفرة، وفيافي خالية، والسالك فيها عرضة للمفاجآت فقد أرشد ﷺ إلى آداب وأحكام توجد كلما وجدت ظروفها ومنها:

١- أنه ﷺ نهى أن يسافر الرجل وحده، وقال: «**الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ**»[٥].

---

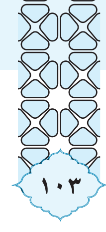
(١) المحفَّة: شبه الهودج، إلاَّ أنها لا قبة عليها. ينظر: «مطالع الأنوار على صحاح الآثار» (٢/ ٣٣٧)، و«عون المعبود» (٥/ ١١٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٣٣٦).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢٨٩٠).

(٤) «مسند أحمد» (١٢٧٤٥).

(٥) «سنن أبي داود» (٢٦٠٧).



٢- وأمرهم إذا كانوا ثلاثة فأكثر أن يُؤمِّروا أحدهم(١).

٣- ونهى أن تسافر المرأة مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم(٢).

٤- ونهى عن التفرق في السفر، فعن أبي ثعلبة الخشني قال: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ، إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ**». فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلاً إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، حَتَّى يُقَالَ: لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ(٣).

وذلك أن تفرقهم عرضة للضياع، وتشتت الرفقة، وانفراد بعضهم عن بعض يُسَهِّل استهدافهم من عدو أو قاطع طريق ونحوه.

رابعاً: وكان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها سافر بها معه، ولما حج سافر بهن جميعاً معه.

خامساً: كان في سفره كما في كل أحواله داعياً ومعلِّماً، ولذا وجدت اللفتات التعليمية والآداب المرعية في أسفاره، ومن ذلك ما جاء في حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ**». قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ، مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ(٤).

وبذلك يقدم ﷺ درساً بالغاً في الأدب اللفظي، وصيانة المنطق من

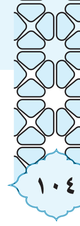
---

(١) «سنن أبي داود» (٢٦٠٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٠٨٦)، و«صحيح مسلم» (٨٢٧).

(٣) «سنن أبي داود» (٢٦٢٨).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٥٩٥).



اللعن، فإذا كان هذا في لعن الدابة التي لا تعي ما يقال لها فكيف بلعن الأهل أو الأبناء أو الأصحاب؟

كما أن فيه إرشاداً إلى الرفق بالبهائم فإذا كان هذا النهي والعقوبة على لعنها، فكيف بضربها أو إجاعتها أو الحمل عليها بما لا تطيقه؟

ومن ذلك أنه لما مرَّ بجبل جُمْدانَ في طريقه في حجة الوداع قال: «**أيْنَ السَابِقُونَ؟**». قالوا: يا رسولَ الله، قد مضى ناسٌ وتخلَّفَ ناسٌ. فقال: «**سِيرُوا، هَذَا جُمْدانُ، سَبقَ المُفَرِّدُونَ، سَبقَ المُفَرِّدُونَ**». قالوا: ومَا المُفَرِّدُونَ يا رسولَ الله؟ قال: «**الذَاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً وَالذَاكِرَاتُ، الَذِينَ يُهْتَرُونَ**[1] **فِي ذِكْرِ الله، يَضَعُ الذِكرُ عَنهُم أَثْقَالَهُمْ، فَيأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خِفَافاً**»[2].

وجُمْدان جبل على الطريق من المدينة إلى مكة، وهو أقرب إلى مكة، فهو المبشِّر بقرب الوصول إليها، والسابق إليه قد سبق في سفره، والمُفَرِّدُ هو الذي ليس معه إلا بعيره، وهذا يكون خفيفاً سريعاً سابقاً، فلفت ﷺ البصائر إلى معنى أعظم، وهو السَّبْق في الآخرة، وأن الذين يأتون خفافاً من الأوزار فيسبقون فيها هم الذاكرون الله كثيراً والذاكرات؛ لأن إكثارهم للذكر يضع عنهم أثقال خطاياهم.

فانظر إلى لطف الإشارة، وقصر الدرس مع بلاغته، وكثرة الشواهد والمشاهد والأمثلة فيه، وحسن الربط بين معالم الطبيعة ومعالم الدِّين، بهذا الأسلوب الرَّشيق الوجيز.

سادساً: مع أن السفر شديد الرهق يستنزف الطاقة النفسية، ويسبب

---

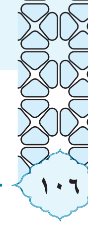
(١) يهترون: أي يُولَعُون. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٤٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٧٦).

التوتر ويذهب بالحلم، ولكنك تجد النبي ﷺ في أسفاره على غاية الهدوء والحلم والبعد عن الانفعال، حتى كأنه في سعة الإقامة وليس في عجلة السفر، ومن ذلك أن رسول الله ﷺ عاد ذات مرة من سفر، فلما دنا من المدينة نزل في البيداء، وهي أَكَمة مشرفة على وادي العقيق قرب المدينة، فلما أراد النفير فقدت عائشة رضي الله عنها عقدها الذي استعارته من أختها، فأخذتها الفجيعة لفقده، وشكت لرسول الله ﷺ حزنها، فإذا رسول الله ﷺ يلاقي همها باهتمامه، ويتفَّهم مكانة العقد عندها، وإن كان لا يساوي اثني عشر درهماً، فبعث فريقاً من أصحابه يلتمسون العقد، على رأسهم أُسيد بن حُضير رضي الله عنه، وأقام رسول الله ينتظرهم، وأقام الناس معه، حتى أمسوا وأظلم الليل، فبات رسول الله ﷺ والناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأهمَّ الصحابة أمر الصلاة إذا حضرت، وكيف سيتوضؤون لها، وكربوا لذلك، فجاؤوا إلى أبي بكر يشكون إليه ابنته، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء!

فكرب أبو بكر رضي الله عنه لذلك، ودخل عليها مغضباً ورسول الله ﷺ قد نام متوسداً فخذها، فقال لها بصوت مكظوم، حتى لا يوقظ رسول الله ﷺ: أفي كل مرة تكونين عناء، حبست الناس في قلادة! وجعل يتلوَّم عليها، ويشتد في عتابها، ويقول ما شاء الله أن يقول، وكان في أبي بكر سَورة من حدَّة تأخذه عند الغضب، فجعل يطعنها في خاصرتها، فكان بها كالموت من الألم، فلا يمنعها من التحرك والتأوُّه إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذها؛ مخافة أن يستيقظ ﷺ، ونام رسول الله ﷺ حتى تنفَّس الصبحُ، وبرق الفجر، فأنزل الله آية التيمم ولما بعثوا جملها وجدوا العقد تحته(١).

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (٣٦٧).



إن السفر ـ وبخاصة في نهايته ـ مظنة التعب الجسدي، والإنهاك النفسي، بما يذهب بطاقة الإنسان النفسية، ويضعف قدرته على المداراة والصبر والتحمل، ولكنك ترى نبيك ﷺ في حاله تلك كما هو في سائر أحواله، رفيق يحب الرفق، بعيد عن التوتر والانفعال، هو خير الناس للناس، وخيرهم لأهله، ولم تستنزف مشقة الطريق ووعثاء السفر سكينته النفسية وعظمته الأخلاقية.

وفي أحد منازله ﷺ في الطريق إلى مكة حاجاً جلس ﷺ وبجانبه زوجته عائشة، وجلس صاحبه أبو بكر وبجانبه ابنته أسماء رضي الله عنهم، وكان أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه غلامه براحلته التي كانت تحمل متاعه ومتاع النبي ﷺ، فطلع الغلامُ وليس معه بعيره، فقال أبو بكر: أين بعيرُك؟ قال: أضللتُه البارحة. فطفق أبو بكر يضربه، ويقول: بعيرٌ واحدٌ وتضلُّه! وجعل النبيُّ ﷺ ينظر إليه ويتبسَّم، ويقول: «**انظُرُوا إلى هذا المُحْرِمِ ما يَصنَعُ!**». ثم قال له ﷺ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ يا أَبَا بَكْرٍ؛ فَإِنَّ الأمرَ لَيْسَ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيْنَا مَعَكَ، وَقَدْ كَانَ الغُلامُ حَرِيصاً عَلى أَلَّا يَضِلَ بَعِيرُه**»(١).

فكان ﷺ في غاية الحلم والأناة وتفهم الموقف والاعتذار عن الغلام، مع أن مثل هذا الموقف قد يستثير كثيرين ويفقدهم السيطرة على انفعالاتهم.

سابعاً: وكان يجعل في السفر فسحة للهو والأنس ورفاهية النفس، ومن ذلك: حديث سلمة بن الأكوع في رجوعهم من غزوة ذي قرد، وكان سلمة رديف النبي ﷺ على ناقته العضباء، قال سلمة: فبينا نحن نسير وكان

(١) «سنن أبي داود» (١٨١٨). وينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (٨/ ٤٠٠).

رجل من الأنصار لا يُسبق شداً، فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك، فلما سمعت كلامه قلت: أما تكرم كريماً، ولا تهاب شريفاً؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله ـ بأبي أنت وأمي ـ ذرني فلأسابق الرجل، قال: «**إِنْ شِئْتَ**». قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ، فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ، فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ أَسْتَبْقِي نَفَسِي[١]، ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ، فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ، ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى الحَقَهُ، فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قُلْتُ: قَدْ سُبِقْتَ وَاللهِ، قَالَ: أَنَا أَظُنُّ، فَسَبَقْتُهُ إِلَى المَدِينَةِ[٢]، فكان هذا السباق من لهو الرياضة وتنافس الفتيان في السفر، والذي يجم النفوس ويشارك فيه بقية المسافرين بالأنس والمشاهدة والمتابعة.

ومن أُنس السفر أنه كان للنَّبي ﷺ حادٍ[٣] حسن الصوت، مطرب الحداء هو أنجشة الحبشي، فكان يحدو في السفر فإذا غنى للإبل يحدوها طربت وأسرعت في سيرها فكان في حجة الوداع وأنجشة يحدو فطربت الإبل وأسرعت في السير فقال النَّبيُّ ﷺ: «**ارْفُقْ يَا أَنْجَشَةُ، وَيْحَكَ بِالقَوَارِيرِ**»[٤]، أي بالنساء فإن سرعة الإبل بالحداء تتعب النساء، وهن في هوادجهن، فكان الحداء من أُنس السفر ولهوه.

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر، وهي جارية، قالت: لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال لأصحابه: «**تَقَدَّمُوا**»، فتقدموا، ثم

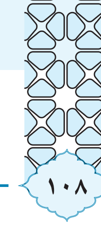
---

(١) أَيْ تمهلت قليلًا حتى أروح نفسي وأستجمع قوتي، حتى تجاوز شرفا أو شرفين، والشرف ما ارتفع من الأرض. ينظر: «إكمال المعلم» (٦/ ١٩٩).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٠٧).

(٣) الحادي هو الذي يسوق الإبل ويغني لها. ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ١٦٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٢٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٣).



قال: «**تَعَالِي أُسَابِقُكِ**». فسابقته، فسبقته على رجلي، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في سفر، فقال لأصحابه: «**تَقَدَّمُوا**»، فتقدموا ثم قال: «**تَعَالِي أُسَابِقُكِ**». ونسيت الذي كان وقد حملت اللحم، فقلت: كيف أسابقك يا رسول وأنا على هذا الحال؟ فقال: «**لَتَفْعَلِنَّ**»، فسابقته فسبقني فجعل يضحك ويقول: «**هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَة**»[١].

ثامناً: الحث على التعاون وخدمة الرفقة فعن أنس قال: كنا مع النبي ﷺ في سفرٍ فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا في يوم حار واتخذنا ظلالا فأما الذين صاموا فسقطوا ولم يعملوا شيئاً، وأما الذين أفطروا فبعثوا الركاب، وامتهنوا وعالجوا، فقال النبي ﷺ: «**ذَهَبَ الْمُفْطِرونَ الْيَوْمَ بِالأَجْرِ**»[٢].

تاسعاً: كان إذا رجع من سفر نزل في مكان قريب من المدينة مثل صرار[٣] والبيداء[٤] ونحوها حتى يبلغ الخبر لأهل المدينة فتستعد النساء للقيا أزواجهن، وكان ينهى أن يأتي الرجل أهله فجاءةً ليلاً كأنه يتخونهم، ولأن المرأة قد تكون في هيئة مبتذلة لا تناسب لقاء الزوج فيفاجئها مجيء زوجها على هذه الحال فربما رأى منها ما يكره.

وكان هذا مناسباً في ظروف ذلك الزمان حين كان خبر المسافر ينقطع منذ أن يغيب شخصه وإلى أن يرجع إلى أهله، وقد تغير هذا الواقع بوسائل

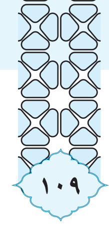
---

(١) «مسند أحمد» (٢٦٢٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٩٠).

(٣) صرار: هي بئر قديمة على ثلاَثةِ أميال من المدينةِ على طريقِ العراق. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» لعاتق البلادي (ص١٧٥).

(٤) البيداء: موضع قرب المدينة جنوباً يبعد عنها (٩ كم). ينظر: «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص٦٧).



الاتصال والتواصل وما عاد ثمَّ فجاءة في الوصول ليلاً أو نهاراً.

وكان ﷺ إذا أقبل إلى المدينة فظهرت له جدرانها ورأى مبانيها أسرع براحلته، وإن كان على دابةٍ حركها شوقاً إليها وحباً لها، ثم ينفرط عقد الجمع الذين كانوا مع النبي ﷺ، ويسرع كلٌّ منهم راحلته تلقاء داره، وكان مشهد الرواحل وهي تعدو مسرعة وقد تفرَّقت وجهاتها وأسرع بها رُكَّابها مشهداً يضج بالفرح ويعلن البهجة، ولا يزال أهل المدينة إلى اليوم يسمون هذا المطلع: المفرِّحات؛ لما يَطْفِر على المسافرين من الفرح إذا وصلوها فأشرفوا على المدينة واستشرفت لهم.

وكان ﷺ يُتَلَقَّى بصبيان أهل بيته، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ، فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ، فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ، فَأُدْخِلْنَا المَدِينَةَ، ثَلَاثَةً عَلَى دَابَّةٍ[(١)].

وكان يقصد المسجد أول ما يصل فعن أبي ثعلبة الخشني قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا فِي الضُّحَى، فَيَبْدَأُ بِالمَسْجِدِ فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَيَقْعُدُ فِيهِ[(٢)].

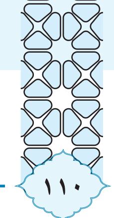
ويجلس للناس، فيسلِّم عليه مَن كانوا ينتظرونه فيه، ثم يدخل على أهله، فيبدأ ببيت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فيسلِّم عليها، ثم يأتي بيوت نسائه فيطوف عليهن[(٣)]، وأما أهل المدينة فقد كانوا يتتابعون بعد إلى رسول الله ﷺ يسلمون عليه بقية اليوم وما بعده.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٢٨).

(٢) «مسند أحمد» (٢٧١٧٠).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٢١٣).



خلاصات:

١- تعددت أغراض النبي ﷺ من السفر بعد البعثة للدعوة، والهجرة، والجهاد، والنزهة، والعمرة، والحج.

٢- كان للسفر أذكاره عند المسير، وفي الطريق، وعند الرجوع.

٣- كان ﷺ في سفره متواضعاً في مسيره، ليس له شارة خاصة ولا تميز في حال.

٤- كان السفر في الصحراء قديماً رحلة مخوفة، ولذا جاءت لها أحكام توجد كلما وجدت ظروفها.

٥- كان ﷺ في سفره داعياً ومعلماً، وجعل من أحوال السفر أدواتاً للتعليم.

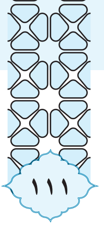
٦- كان السفر شديد الرهق يستنزف القوة والطاقة النفسية، ومع ذلك كان ﷺ في غاية الرفق والحلم، فلا توتر ولا انفعال.

٧- كان ﷺ يجعل في السفر فسحة للأنس واللهو الجميل الذي يخفف وعثاء السفر، كالحداء والمسابقة.

٨- كان له ﷺ في الرجوع من السفر آداب، فلا يطرق أهله فجاءة، وإنما يصل خبره قبل وصوله، وكان يتلقى بالصبيان من أهل بيته.

٩- كان يقصد المسجد أول ما يرجع، ويجلس للناس يسلم عليهم، ثم يسلم على ابنته ويطوف على نسائه.





الرَّسُولُ ﷺ والحرب



لم يعبر النبي ﷺ بدعوته إلا بعد أن سلك بها طريقاً شائكاً تعترضه العداوات والمكائد، ولا يمكن لصاحب دعوة مهما كان مسالماً أن يبقى سالماً من عداوة من يخالفون دعوته، وليس أرفق وأوفق في الدعوة من أنبياء الله ورسله ومع ذلك اعترضهم الأعداء بالمكائد وواجهوهم بالعدوان، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ولذا فإن المواجهة مع العداوات الظالمة الباغية متكررة في أغلب الدعوات وبخاصة عندما تبادئ من يخالفونها في الدعوة، ولمواجهة هذه العداوات طرق ووسائل تتنوع بحسب حال الداعي ومن يعاديه، ومن ذلك ما يلجئ إلى مواجهة قتالية تزهق فيها النفوس وتسفك الدماء حينما يكون هذا هو الحل الأمثل لصد العدوان أو دمغه.

وقد كان للنبي ﷺ في مواجهاته القتالية هديه وهداه، ونقف معها في مسائل:

أولاً: أن القتال ليس مشروعاً مفتوحاً، ولا مطلباً مرغوباً لذاته، ولكنه

وسيلة لغاية، تسلك عند الحاجة إليها، وتتقى عند العافية منها؛ ولذا قال ﷺ: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**»[١].

وعند النظر في أسباب القتال نجدها محصورة في أمرين:

١- دفع العدوان الواقع أو المتوقع، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾. وهذه آية محكمة حصرت القتال بالذين يُقاتِلون، وجعلت ما سواه عدواناً، ولا يصح القول بأنها منسوخة؛ لأنه حكم علق بأمر اعتقادي وهو صفة من صفات الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، وهذا معنى لا يدخله النسخ، فمن قاتلنا، أو هدد بقتالنا، أو استعد لذلك وتهيَّأ له قاتلناه بأمر الله لنا: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾.

٢- قتال كل من يحول بين الناس واتباع الدين ويعرضهم للفتنة إن اتبعوا الحق، وهو بهذا معتدٍ يكف عدوانه ولو بالقتال، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

وأما من كفَّ فلم يعتد ولم يَفْتِن مؤمناً في دينه ولم يحل بين أحد والحق الذي يختاره فليس محلاً للقتال، والتعدِّي عليه عدوان وتجاوز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٦٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٢).

والدليل على ذلك أن النبي ﷺ في المدينة كان على الطريق إلى الشام، وكانت عِيرُ القبائل تعبر ذاهبة وآيبة فلم يعترض لشيء منها إلا لعير قريش لما سبق من عدوانهم واستمرارهم في عداوتهم.

ولما ذهب ﷺ إلى غزوة العشيرة عاهد قبائل على ألا يقاتلوه ويكف عنهم ومنهم بنو ضمرة(١).

وبذلك وحَّد النبي ﷺ هدف القتال وأعلى غايته، فليس القتال للمطامع والغنائم، ولا للاستعلاء في الأرض، ولكن له هدف سام وغاية شريفة؛ «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﷻ»(٢).

ويا لله كم من الحروب والمعارك أزهقت فيها ملايين الأرواح ودمرت بلاد وهدمت مدن لشهوات عدوانية لفرد متجبر، فكم أزهقت من الأرواح في حروب الإسكندر المقدوني! وما غايتها؟ وفي حروب جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك! وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية! وما غاياتها؟

قالوا غَزَوتَ وَرُسلُ اللهِ ما بُعِثوا	**لِقَتلِ نَفسٍ وَلا جاؤوا لِسَفكِ دَمِ**
جَهلٌ وَتَضليلُ أَحلامٍ وَسَفسَطَةٌ	**فَتَحتَ بِالسَيفِ بَعدَ الفَتحِ بِالقَلَمِ**
لَمّا أَتى لَكَ عَفواً كُلُّ ذي حَسَبٍ	**تَكَفَّلَ السَيفُ بِالجُهّالِ وَالعَمَمِ**
وَالشَرُّ إِن تَلقَهُ بِالخَيرِ ضِقتَ بِهِ	**ذَرعاً وَإِن تَلقَهُ بِالشَرِّ يَنحَسِمِ**
عَلَّمتَهُمْ كُلَّ شَيءٍ يَجهَلونَ بِهِ	**حَتّى القِتالَ وَما فيهِ مِنَ الذِّمَمِ**(٣)

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٢٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٣١٢٦)، و«صحيح مسلم» (١٩٠٤).

(٣) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

ثانياً: مراعاته ﷺ لتوازن القوة مع العدو، وعدم تعريض الصحابة إلى مواجهات غير متوازنة، ومن ذلك كف الأيدي في مكة برغم أذى المشركين واستفزازهم، وكان الحكم في حقهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، لأنه لم يكن من المصلحة الدخول في مواجهة عنيفة والدعوة ما زالت في طور النمو الأول والمسلمون في حال ضعف وقلة.

ومن ذلك تحصُّنه بالمسلمين يوم الخندق وعدم بروزه بالمسلمين للقتال لما كان عدد المشركين يفوق عدد المسلمين بثلاثة أضعاف وكانت المواجهة خطرة.

ولما طلب منه ملاعب الأسنة أن يرسل معه جمعاً من القرَّاء قال: «**إِنّي أَخَافُ عَلَيْهِم**». قال: إني جار لهم، فأرسلهم بجواره[(١)].

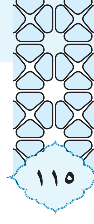
ولما قتل هؤلاء القراء السبعون في بئر معونة[(٢)] على يد عامر بن الطفيل وقبيلته لم يرسل جيشاً لتأديبهم مع أنهم لا يبعدون عن المدينة إلا نحواً من (١٩٠ كم)، وذلك لأن حال المسلمين بعد أُحُد لا تؤهلهم للمواجهة، فهم في حال ضعف وقرح.

وعندما تكاثر الروم على المسلمين في معركة مؤتة، ورأى خالد بن الوليد صعوبة الاستمرار في القتال، وأن استمرارهم فيه يعني إبادة جيش المسلمين، انسحب بالجيش وعاد بهم إلى المدينة فسمى النبي ﷺ انسحابه فتحاً[(٣)]؛ لأنه تخليص للجيش من هلكة.

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٥٤٦).

(٢) موضع بين جبال يقال لها أبلى في طريق المصعد من المدينة إلى مكة. ينظر: «معجم البلدان» (١/ ٣٠٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٧٥٧).



وقد أكد الله هذا المعنى وقرره في آيات في كتابه منها قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، فلم يجعل المواجهة مفتوحة بأي قوة، وإنما أجاز الانسحاب إذا كان العدو أكثر من الضعف، مع أن الكثرة والقلة ليست هي ميزان القوة دائماً فقد تتغلب القلة المنظمة المتحفزة على الكثرة غير المنظمة[1].

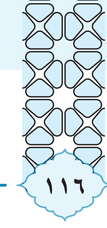
وهذا النبي الكريم هو الموعود بالنصر المؤيَّد بمدد الملائكة، ومع ذلك لا تجد للمغامرة المتهورة حضوراً في حروبه امتثالاً لأمر ربه: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

ولذا كفَّ الله يده وأيدي المؤمنين معه يوم الحديبية؛ حفاظاً على سلامة المؤمنين المستضعفين المستخفين بمكة حتى لا يكونوا ضحية هذه المواجهة، وقد يقتلهم إخوانهم المسلمون من حيث لا يشعرون، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ثالثاً: كانت الحروب ولا زالت تقوم على التشفِّي والانتقام والإبادة، وقتل من يمكن قتله، والتوحش في القتل، والتمثيل بالقتلى، والتنكيل بالأسرى، ولم يكن ثمَّ ضوابط للاقتتال، ولا أخلاق للحروب.

---

(١) ذكرت تطبيقات نبوية كثيرة لهذا المعنى في كتاب: «**سنام الإسلام**».



فلما جاء النبي الكريم جعل لحروبه قيماً وضوابط وأخلاقاً التزمها وألزم المسلمين بها ومن ذلك:

١- رأى النبي ﷺ وهو متوجه لفتح مكة امرأة مقتولة فأنكر ذلك وقال: «**مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلُ**». ثم أرسل إلى مقدمة الجيش فنهى عن قتل النساء والصبيان وقال: «**لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفاً**»[١]. أي أجيراً. ولم يقل أحد: يا رسول الله، إنَّ قريشاً فعلوا بالمهاجرين كذا، وفعلوا في أُحدٍ كذا، وجعل يعدد جرائمهم السابقة.

٢- وكان إذا أمَّر رجلاً على جيش أوصاه فقال: «**اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تُمَثِّلوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً**»[٢]، وجمعها أبو بكر فيما رُوي عنه من طرق متعددة: لَا تَقْتُلُوا صَبِياً وَلَا امْرَأَةً وَلَا شَيْخاً كَبِيراً، وَلَا مَرِيضاً، وَلَا رَاهِباً، وَلَا تَقْطَعُوا مُثْمِراً، وَلَا تُخْرِبُوا عَامِراً، وَلَا تَذْبَحُوا بَعِيراً وَلَا بَقَرَةً إِلَا لِمَأْكَلٍ، وَلَا تُغْرِقُوا نَخْلاً وَلَا تُحْرِقُوه[٣].

٣- ورُوي عنه ﷺ من حديث أنس أنه قال: «**انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ وَبِاللهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَانِياً، وَلَا طِفْلاً وَلَا صَغِيراً، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغُلُّوا، وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**»[٤]، وعَملُ المسلمين في فتوحاتهم جار على ذلك.

لقد أتى النبي ﷺ بهذه التعاليم والعالم كله لا يعترف بها ولا يطبقها، ومع ذلك ألزم النبي ﷺ المسلمين بها وإن تنكر العالم كله لها.

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٨٤٢).

(٢) «مسند أحمد» (١٨٠٩٧).

(٣) «الموطأ» (٩١٨).

(٤) «سنن أبي داود» (٢٦١٤).

والتزم ﷺ الوفاء بالعهود مع أعدائه وحثَّ على الوفاء بها، فلما خرج إلى بدر وخرجت قريش لقتاله وقع في أيديهم حذيفة بن اليمان وأبوه يسيران قاصدين المدينة قال حذيفة: فَأَخَذَتنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّداً، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ إِنَّمَا نُرِيدُ المَدِينَةَ، فَأَخَذُوا عَلَيْنَا عَهْدَ الله وَمِيثَاقَهُ، لَتصيرون إِلَى المَدِينَةِ، وَلا تُقَاتِلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَّا جَاوَزْنَاهُمْ أَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ، فَذَكَرْنَا لَهُ مَا قَالُوا وَمَا قُلْنَا لَهُمْ، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ: «**نَسْتَعِينُ الله عليهم ونَفْي بِعَهْدِهِمْ**»(١).

وعَن أَبِي رَافِعٍ قَالَ: بَعَثَنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُـولَ الله ﷺ أُلقِيَ فِي قَلْبِيَ الإِسْلاَمُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي وَالله لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبداً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالعَهْدِ، وَلاَ أَحْبِسُ البُرُدَ**(٢)**، وَلَكِنِ ارْجِعْ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الآنَ فَارْجِعْ**»(٣).

وعندما شرع النبي ﷺ هذه الشرائع في القتال لم يكن يراعي رأياً عاماً عالمياً، أو هيئات أممية، أو مواثيق دولية، ولكنه كان يعلن ويطبق شرعاً إلهياً هادياً يعيد البشرية إلى رشدها.

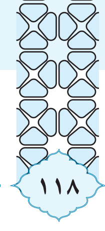
رابعاً: كان في قيادته العسكرية جامعاً لصفات القائد وأخلاقه ومواهبه، فكانت علاقة الجيش به هي المحبة الصادقة، والإيمان الموقن، وكان يشرك الجيش في قراراته ويأخذ الشورى من أهلها، ثم يتبعها بالعزيمة في القرار المحكم، مع أخذ الحيطة والحذر، وبث العيون واستباق خطة العدو، ومفاجأته

---

(١) «المستدرك» (٤٩٠٨).

(٢) البُرُد: جمع بريد وهو الرسول. ينظر: «النهاية» (١/ ١١٥).

(٣) «سنن أبي داود» (٢٧٥٨).



بما لم يستعد له، وغير ذلك من مهارات الرسول القائد ﷺ[١].

خامساً: وكان ﷺ في معاركه مثال الشجاعة والثبات ورباطة الجأش وذلك حين يحمى الوطيس ويشتد الكرب.

وفي معركة حنين لما انهزم أصحابه حوله اقتحم على بغلته وهو يقول: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ، اللهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ**». وأبو سفيان بن الحارث والعباس بن عبد المطلب يمسكان بالبغلة حتى لا تقتحم بعيداً عنهم حتى تراجع أصحابه إليه[٢].

ولذا لما قيل للبراء: أَكُنْتُمْ فَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: أَمَّا رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَفِرَّ[٣].

وكان أشجع الصحابة في القتال هو الذي يكون قريباً من النبي ﷺ[٤].

سادساً: كان الصحابة حوله جيشاً على أهبة الاستعداد، وكان يحفزهم للياقة العسكرية جميعاً بحيث كانوا فيما يشبه نظام التجنيد، فكانوا جميعاً مجندين مستعدين ويظهر ذلك من التحفيز على مهارات القتال والإعداد للمعارك والتي كان المجتمع عرضةً لها في أي وقت.

ومن الترغيب في مهارة الرمي قوله ﷺ: «**أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ**»[٥]. ورغب في المنافسة في هذه المهارة وقال: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً، ارْمُوا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**». قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ،

---

(١) ينظر: فصل «الرسول ﷺ والقيادة».

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٤) ينظر: فصل «الرسول ﷺ والشجاعة».

(٥) «صحيح مسلم» (١٩١٧).

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟**». قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**»[(١)].

ورغَّب في الإعداد بحيث يكون كل فردٍ جزءاً من آلة الدفاع، ورغَّب في اتخاذ السلاح واحتباسه للجهاد فقال: «**وَأَمَّا خَالِدٌ فَقَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ الله**»[(٢)]. ورغَّب في اقتناء الخيل وإعدادها فقال: «**الخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ الله، فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا**[(٣)] **ذَلِكَ مِنَ المَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا، فَاسْتَنَّتْ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ**[(٤)] **كَانَتْ آثَارُهَا، وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّياً وَتَعَفُّفاً ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ الله فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْراً وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الإِسْلَامِ، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ**»[(٥)]. وسَابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ المُضَمَّرَةِ مِنْهَا مِنَ الحَفْيَاءِ إِلَى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ، وَالَّتِي لَمْ تُضَمَّرْ مِنْ ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ[(٦)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٩٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٤٦٨).

(٣) أطال: أي شدّها في الحبل، والطِّيل: الحبل الطويل. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٤٥).

(٤) استنت شرفاً أو شرفين: أي عدا لمرحه ونشاطه شوطاً أو شوطين ولا راكب عليه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤١٠).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٣٧١).

(٦) «صحيح البخاري» (٨٢٠).

وكل ذلك من الإعداد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾.

سابعاً: ومع شدة العداوات وكثرة الغزوات فإن النبي ﷺ لم يدخل في معركة قتالية من معاركه إلا في ثمان هي: بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين.

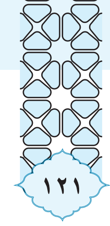
وعدد القتلى في كل معاركه من المسلمين وأعدائهم لم يتجاوز **(ألف قتيل تقريباً)**.

وهذا يبين لنا أن النبي ﷺ لم يكن بالمتعطش للدماء ولا المتلذذ بالقتل، ولكن يقاتل وكأنه يعالج بمبضع جراح، فلا يتوجه إلى قتال إلا حيث يكون هو الخيار الوحيد، ولا يقتل إلا حيث يُستحقُّ القتل وتسد طرق الإصلاح.

ولذا فإن أكثر الذين انتصر عليهم عفا عنهم، وأكثر الذين قاتلوه قاتلوا بعد ذلك معه وعنه.

ثامناً: وفاؤه للشهداء وبشرى أهليهم بحسن منقلبهم، فعَنْ جَابِرٍ قَالَ: جِيءَ بِأَبِي قَتِيلاً يَوْمَ أُحُدٍ، فَجَعَلَتْ فَاطِمَةُ أُخْتُهُ تَبْكِيهِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتِ المَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ**»[1]، وعن أنس قال: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَارَسُولَ الله، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا لَيْسَتْ**

(١) «صحيح البخاري» (٢٨١٦).



بِجَنَّةٍ وَاحِدَةٍ وَلَكِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى»(١).

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ: «**زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ**». فَقَالَ: نِعِمَّ وَكَرَامَةٌ يَا رَسُولَ الله، وَنُعْمَ عَيْنِي، فَقَالَ: «**إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي**». قَالَ: فَلِمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**لِجُلَيْبِيبٍ**». فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أُشَاوِرُ أُمَّهَا، فَأَتَى أُمَّهَا فَقَالَ: رَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكِ، فَقَالَتْ: نِعِمَّ وَنُعْمَةُ عَيْنِي زَوِّجْ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ يُرِيدُهَا لِنَفْسِهِ، قَالَتْ: فَلِمَنْ؟ قَالَ: لِجُلَيْبِيبٍ، فَقَالَتْ: حَلْقَى(٢)، أَجُلَيْبِيبٌ ابْنَهْ؟ أَجُلَيْبِيبٌ ابْنَهْ؟ لَا، لَعَمْرُ الله لَا أُزَوِّجُ جُلَيْبِيباً، فَلَمَّا أَرَادَ أَبُوهَا أَنْ يَقُومَ لِيَأْتِيَ رَسُولَ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ بِمَا قَالَتْ أُمُّهَا، قَالَتْ الجَارِيَةُ: مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمْ؟ فَأَخْبَرَتْهَا أُمُّهَا، فَقَالَتْ: أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَمْرَهُ؟ ادْفَعُونِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ لَا يُضَيِّعْنِي، فَانْطَلَقَ أَبُوهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: شَأْنَكَ بِهَا، فَزَوَّجَهَا جُلَيْبِيباً، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ لَهُ، فَلَمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، فُلَاناً، وَفُلَاناً، وَفُلَاناً، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، فُلَاناً، وَفُلَاناً، وَفُلَاناً، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟**». قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيباً، فَاطْلُبُوهُ**». فَطُلِبَ فِي القَتْلَى، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَا هُوَ ذَا إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ، قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَى رَسُولُ الله ﷺ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «**أَقَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ؟ هَذَا مِنِّي وَأَنَا**

(١) «مسند أحمد» (١٣٨٧١)، و«صحيح البخاري» (٣٩٨٢).

(٢) حلقى: أي: حلقها الله، يعني أصابها وجع في حلقها خاصة. ينظر: «النهاية» (١/ ٤٢٨).

مِنْهُ، **هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ**». فَوَضَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى سَاعِدَيْهِ فَحُفِرَ لَهُ، مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدَا رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ وَضَعَهُ فِي لَحْدِهِ[(١)].

ومن وفائه لهم خلافتهم في أهلهم فقال في أم سُليم، كما عن أَنَسٍ، أَنَّه ﷺ لَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ بَيْتاً بِالمَدِينَةِ غَيْرَ بَيْتِ أُمِّ سُلَيْمٍ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي أَرْحَمُهَا قُتِلَ أَخُوهَا مَعِي**»[(٢)]، ومن وفائه لهم زيارتهم في قبورهم في أُحُد قبل وفاته كالمودع للأحياء والأموات.

تاسعاً: لم يكن قتاله للطمع الدنيوي وكسب الغنائم والتكثر منها، ولما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل للمغنم أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله**»[(٣)].

وعندما أرسل علياً بالراية إلى حصن خيبر، وكانت حصونها خزائن الذهب والفضة أمره بدعوتهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وقال: «**وَالله لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[(٤)]. هذا مع سابق عداوتهم وكيدهم الدافع للانتقام، وكثرة ثرواتهم ونخيلهم المغرية بالطمع، ولكن كانت الهداية أحب إليه من ذلك كله.

ومثل ذلك قسمته غنائم حنين على من كانوا أعداءً له من قريب يتألَّفهم بذلك ويستطيب قلوبهم.

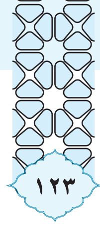
---

(١) «مسند أحمد» (١٩٧٧٨، ١٩٧٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨١٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢).



خلاصات:

١- القتال ليس مطلباً مرغوباً لذاته، ولكنه وسيلة لغاية تسلك عند الحاجة إليها.

٢- مراعاة توازن القوة في القتال وعدم التقحُّم في مواجهة هي مظنة الهلكة.

٣- وضع النبي ﷺ أحكاماً للقتال وقيماً تراعى في الحروب، وضوابط التزمها وألزم المسلمين بها، وما كان شيئاً من هذه الضوابط يراعى في الحروب حينها.

٤- كان ﷺ في معاركه مضرب المثل في الشجاعة ورباطة الجأش، حين يشتد البأس.

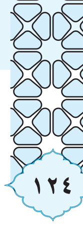
٥- كانت قيادته ﷺ في الحروب مثال القيادة الراشدة الحازمة تحقيقاً للشورى، والعزيمة، والاحتراس، وحسن التخطيط.

٦- كان يحث الصحابة على الاستعداد للقتال بحيث كانوا جميعاً جيشاً احتياطياً مدرباً مستعداً.

٧- وفاؤه للشهداء وخلافتهم في أهلهم والبشرى بحسن منقلبهم، وزيارتهم في قبورهم.

٨- لم تكن المطامع والغنائم الدافع لحروبه، وكانت الهداية أغلى منها، وإعلاء كلمة الله غايتها، ولذا بذل الأموال الطائلة لمن كانوا أعداءه من قريب.

٩- مع شدة العداوات وكثرة الغزوات إلا أن مجموع القتلى في كل حروبه لم يتجاوز ألف قتيل تقريباً، وهذا يبين أن النبي ﷺ لم يكن بالمتعطش للدماء ولا المتلذذ بالقتل.



الرَّسُولُ ﷺ والنَّصر

للنصر نشوة تطيش بالعقول، وسكر هو أشد من سكر الخمر، يصعب معه التحكم في الانفعالات، أو ضبط التصرفات، ونحن نرى نماذج لذلك في لحظات الانتصار المصغرة، كالانتصار في مباراة رياضية، فكيف إذا كان النصر هو النصر في معركة تعلم أن عدوك فيها كان شديد الحرص على أن يقضي عليك ويبيدك ثم تنتصر عليه وتتمكن منه، فكيف كانت حال النبي ﷺ مع النصر؟!

ليتضح الجواب فلنأخذ حالة النصر في فتح مكة نموذجاً، فهو الفتح المبين، والنصر العظيم، فنلاحظ من خلاله أموراً عجيبة منها:

١ - أن النبي ﷺ في لحظة النصر وهي لحظة الزهو التي يدخل فيها المنتصرون بكامل زهوهم، والمتكبرون بكامل كبريائهم، أما هو ـ بأبي هو وأمي ـ فقد دخل في غاية التواضع والخشوع لله، دخل مكة وحوله عشرة آلاف سيف، وقد طأطأ رأسه على راحلته حتى إن جبينه المقدس ليمس مقدم رحله وهو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، يقرأ ويُرجع بالقراءة يمد

بها صوته[١]، وترتعش الأحرف ويتموج الصوت وهو يقرأ بالمد والترجيع خشية وتواضعا لله، كأنما يعلن لله ﷻ البراءة من رؤية النفس ومشاعر الزهو، ولسان حاله ينادي: يا ربي ما أنا فتحت لكن أنت فتحت، وما أنا انتصرت، لكن أنت نصرت، إنه التواضع لله، والامتنان له، ورؤية فضل الله ومنته وليس رؤية النفس وحظوظها.

وعندما تم الفتح وخضعت له مكة كلها لم يقم استعراضاً عسكرياً وإنما دخل بيت أم هانئ ابنة عمه فاغتسل ثم صلى صلاة الفتح ثمان ركعات شكراً لله ﷻ[٢]، وإعلاناً لله بالخضوع والامتنان، لقد كان أول مظهر من مظاهر النصر عند النبي ﷺ هو التواضع لله ﷻ والامتنان له.

٢- ومن معالم النصر في حياة النبي ﷺ والتي نراها بجلاء في فتح مكة المسارعة إلى قوله: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[٣]، «**مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفيان فَهُوَ آمِنٌ**»[٤]. فانتشر الأمن، وعمت السكينة، وأشربت القلوب الطمأنينة.

كما نرى عدم التشفِّي والانتقام، فلم يُعمَل السيف، ولا استبيحت البلد، ولا نهبت الثروات، وإنما أبقى مكة قارّة آمنة وادعة مطمئنة، وجاء النصر النبوي ومعه الأمان والسكينة والاطمئنان.

٣- ومما نلاحظه في النصر النبوي عند فتح مكة احتواء العداوات وليس

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٥٤٠)، و«صحيح مسلم» (٧٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (٣٣٦).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١٢)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧-٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٤) «سنن أبي داود» (٣٠٢١).

تعميقها، فسيد مكة أبو سفيان ينال وسام: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفيان فَهُوَ آمِنٌ**». وعكرمة بن أبي جهل الذي فر من مكة إلى البحر يُتْبِعه النبي ﷺ الأمان، فلما رجع نقى النبي ﷺ الأجواء قبل قدومه فقال: «**يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ ابْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِناً مُهَاجِراً، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الحَيَّ، وَلَا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ**»(١). فلما أقبل عكرمة تلقّاه النبي ﷺ متهللاً يضحك وهو يقول: «**مَرْحَباً بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ**»(٢). فانظر لطف العبارة النبوية حينما يصف الهارب بـ«**الرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ**».

وعندما أراد الخروج إلى حنين استعار أدراع صفوان بن أمية وهو مشرك قال: أغصباً يا محمد؟ قَالَ: «**بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ**». قَالَ: فَضَاعَ بَعْضُهَا، فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَضْمَنَهَا لَهُ، قَالَ: أَنَا الْيَوْمَ يَا رَسُولَ الله فِي الإِسْلَامِ أَرْغَبُ(٣).

٤- حاول ﷺ بعد النصر ترميم الجراحات واستطابة النفوس وإعادة لحمة المجتمع، ولذا أعطى من غنائم حنين لمسلمة الفتح عطايا سخية، فلما وجد الأنصار في نفوسهم أنه لم ينفلهم منها، قال: «**إِنَّ قُرَيْشاً حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ**»(٤).

وخرج معه صفوان بن أمية بن خلف إلى حنين وهو مشرك فلما تم النصر وجمعت الغنائم مَرُّوا على واد به غنم بين جبلين فجعل صفوان ينظر في هذا الوادي معجباً بهذا المال الذي فيه، فلما رأى النبي إعجابه به قال:

---

(١) «المستدرك» (٥٠٥٥).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٧٣٥).

(٣) «مسند أحمد» (١٥٣٠٢). وأصله في «سنن أبي داود» (٣٥٦٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٥/ ١٥٩).

«أبَا وَهَب؛ أَيَسُرُكَ أَنَّهُ لَكَ؟». قال: نعم. قال: «هُوَ لَكَ وَمَا فِيهِ». قال: أشهد أنك رسول الله، والله ما طابت بذلك إلا نفس نبي[١].

وهكذا احتوى العداوات وردمها ولم يعمقها.

٥- كما نلاحظ أن النبي ﷺ يوم فتح مكة لم يؤثر أحداً من قرابته بمنصب أو هبة أو عطاء مع أن فيها العباس عمه، وفيها عقيل بن أبي طالب، وأبو سفيان بن الحارث ابني عمه، وغيرهم من قرابته وآل بيته، ولم ينقل لنا أن أحداً من أقاربه نال تكريماً خاصاً، أو عطاءً خاصاً.

كما نلاحظ أن النبي ﷺ عندما غادر مكة لم يول عليها أحداً من بني هاشم وإنما ولى عليها شاباً من أقارب أبي سفيان هو عتاب بن أسيد وكان في العشرين من عمره.

بقي هناك تساؤل نتساءله ونقول: لقد دخل النبي ﷺ مكة فاتحاً ومعه عشرة آلاف فكان تعامله منتصراً هذا التعامل الرحيم الكريم، وقبلها بثلاث سنوات كان أبو سفيان ومعه عشرة آلاف من المشركين يحاصر المدينة وفيها رسول الله ﷺ، فماذا لو انتصر ودخلها كيف كان سيتعامل مع المدينة وأهلها؟ هل كان سيتعامل بذات الأخلاق وسيعامل أهل المدينة بتلك المعاملة؟ الجواب قاله أبو سفيان قبلها في أحد: إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني[٢].

إذن كيف عامل النبي ﷺ في لحظات الانتصار والظفر أهل مكة هذه المعاملة؟

---

(١) «مغازي الواقدي» (٢/ ٨٥٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٣٩)، و«صحيح مسلم» (٣٣٦).

الجواب ما قاله العباس عمه: إنها النبوة[1]، وإنها أخلاق الأنبياء.

خلاصات:

١- كان ﷺ في حالة النصر في غاية التواضع لله والخضوع له، بعيداً عن مظاهر الزهو والاستعلاء.

٢- في ساعة النصر يبادر إلى العفو في موضعه، ويتباعد عن التشفي والانتقام ما وسعه ذلك.

٣- في حالة النصر يحتوي العداوات ويردم الأحقاد ولا يعمقها.

٤- بعد النصر يتألَّف القلوب، ويجبر النفوس ويداوي الجراحات ليعيد للمجتمع سلمه ولحمته.

٥- لم يكن يستأثر بعد النصر بمغنم ولا يؤثر قرابته بغنيمة.



(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٥٤).

الرَّسُولُ ﷺ والسِّلْمُ الاجتماعي[١]

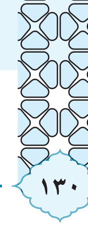


السِّلم الاجتماعي اصطلاح حديث يدور معناه حول غياب مظاهر الشقاق والتفرق والعنف داخل المجتمع.

وللسِّلم الاجتماعي أهميته في استقرار المجتمع وأمنه، وأهميته في تطور المجتمع وازدهاره، وأهميته في نشر الدعوة وبلاغ الدين، ويعبر عن السِّلم الاجتماعي بالأمن العام، قال الماوردي متحدثاً عن قواعد صلاح الدنيا وانتظام أمورها وأحوالها: القاعدة الرابعة: أمنٌ عامٌ تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذرٍ طمأنينة، وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفاتهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم[٢].

(١) ينظر: «السلم الاجتماعي في السيرة النبوية» للولوة بنت محمد الليلي.

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (١٤٢).



وفي أجواء السِّلم تتحقق الطمأنينة التي تنفي الخوف والفزع عن الأفراد والجماعات، فيتحقق التواصل والتعاون بينهم في ميادين العمران الدنيوي والمعاد الأخروي، والدليل على ذلك تسمية الله صلح الحديبية ـ والذي كان هدنة وسلماً ـ فتحاً مبيناً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وذلك لما ترتب عليه من فتح القلوب، وانتشار الدين، وبلاغ الرسالة، فهو أعظم الفتح، فعَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحاً، وَنَحْنُ نَعُدُّ الفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ[(١)].

قال الزهري: فَمَا فُتِحَ فِي الإِسْلامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْه، إِنَّمَا كَانَ القِتَالُ حَيْثُ التَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الهُدْنَةُ، ووضعت الحرب أوزارها، وَأَمِنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فَالتَقَوْا، وَتَفَاوَضُوا فِي الحَدِيثِ وَالمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بِالإِسْلامِ يَعْقِلُ شَيْئاً إِلا دَخَلَ فِيهِ، فَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السَّنَتَيْنِ فِي الإِسْلامِ مِثْلُ مَا كَانَ فِي الإِسْلامِ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَكْثَرُ[(٢)].

وقَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا قَالَهُ الزُّهْرِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ إِلَى الحُدَيْبِيَةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِئَةِ رَجُلٍ فِي قَوْلِ جَابِرٍ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْنِ فِي عَشَرَةِ آلافٍ[(٣)].

وذلك أن الدعوة انتشرت بهذه الاتفاقية السلمية، وانطلق الدعاة، وعرفت القبائل الإسلام فدخل فيه كثير، وراسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الملوك داخل الجزيرة وخارجها، وانتشرت دعوة الإسلام إلى أفق عالمي، وكل ذلك قبل فتح مكة.

(١) «صحيح البخاري» (٤١٥٠).
(٢) «تاريخ الطبري» (٢/ ٦٣٨).
(٣) «البداية والنهاية» (٦/ ٢٢١).

ولقد كانت للنبي ﷺ عناية بالغة بتعميق السلم الاجتماعي وحياطته، وإفشاء المحبة والسلام في المجتمع، وإزالة كل ما يثير سكينة المجتمع ويكدر سِلمه، ومن ذلك:

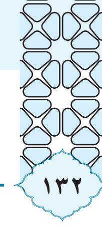
أولاً: المحافظة على السلم الاجتماعي:

وذلك بحرصه على استقرار المجتمع وسكينته، واستمرار ألفته، وبقاء التعايش بين أفراده، ولذلك كانت أول خطوة في تكوين المجتمع المدني هي ضمان السِّلم الاجتماعي بين مكوناته المتنوعة في أديانها وقبائلها، فقد كان في المجتمع حين الهجرة المسلمون واليهود والمشركون، وفيه القرشيون والأوس والخزرج والإسرائيليون، فكانت أول لحمة عقدها النبي ﷺ بين وشائج المجتمع هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والتي تصل إلى التوارث بينهم، حتى نسخ بعد وبقيت الأخوة، وبهذه الأخوة الدينية بين المهاجرين والأنصار توثقت الآصرة وإن كانوا مختلفين نسباً وداراً.

ثم كتب في صحيفة المدينة المواثيق التي تحفظ العلاقة السلمية بين جميع مكونات المجتمع، وتؤسس للتعايش بينها، ولذا نجد فيها من المواثيق ما يؤكد السلم ويحفظ استمراره ومنها:

١- أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه.

٢- وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.



٣- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا مِن ظُلمٍ وإثم.

وبهذا اعتبر أهل الكتاب الذين يعيشون في المدينة مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، وأن اختلاف الدين ليس سبباً للحرمان من المواطنة وحقوقها، وقد طَبَّع النبي ﷺ التعايش بين مكونات المجتمع والخُلطَة فيما بينهم وأنشأ التعايش واستمرار العلاقات الإنسانية، ومن ذلك حديث أنس، أن النبي ﷺ ركب على حمار ليعود سعد بن عُبادة سيِّد الخزرج في داره قبل وقعة بدر، فمرَّ في طريقه بمجلس قد اجتمع فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبَدَة الأوثان واليهود، وفيهم عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ قبل أن يظهر إسلامه، وعبدُ الله بنُ رواحة رضي الله عنه، فعدَّل مسيره إليهم، فلما دنا منهم ثار غبار الحمار، وهو أمر معتاد في أرض المدينة، التي كانت سِبَاخاً[١]، يثور غبارها لوَقْع الأقدام وحوافر الدواب، فبادر عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ وغطَّى أنفه بردائه، وقال: لا تغبِّروا علينا. ثم قال: والله لقد آذاني نَتَنُ حمارك. وكان تصرفاً جافياً؛ إذ بدل أن يقوم إليه ويتلقَّاه ويرحِّب به، كما هي عادة العرب مسلمهم ومشركهم في تَلَقِّي القادم وإكرامه، قابل ذلك بالتكرُّه والإعراض، ولكن النبي ﷺ تجاوز هذا الموقف، ولم يجعله مجال مراجعة، وإنما بادر بالسلام وإلقاء التحية، ثم نزل وجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فما كان من عبد الله بن أُبَيٍّ الذي سمع آيات القرآن ودعوة رسول الله ﷺ، فلم يمكنه أن يشكِّك في وضوح برهانها، ولا أن يجادل في صحة حقائقها،

(١) سباخاً: أي الأرض التي لا تنبت. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٩٨).

ولكنه سلك طريقة أخرى في المشاغبة، فقال: يا أيها المرءُ، إنه لا أحسنَ مما تقولُ إن كان حقّاً، فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى منزلك، فمَن جاءك فاقصصْ عليه(١).

وكان أسلوباً فيه دسٌّ خبيث، وتشكيك في صدق الصادق المصدوق ﷺ، ولذا غضب عبدُ الله بن رواحة رضي الله عنه لهذه المخاطبة السيِّئة لرسول الله ﷺ، وأقبل على رسول الله قائلاً: بلى يا رسولَ الله فاغشنا به في مجالسنا؛ فإنا نحب ذلك. وقال رجلٌ من الأنصار: والله لحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحاً منك. وتراجعوا في الكلام حتى استبَّ المسلمون والمشركون واليهود وتثاوروا، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فجعل رسولُ الله ﷺ يُخفِّضهم، ويسكِّنهم؛ ونلاحظ هنا أن النبي ﷺ لم ينضم إلى من غضبوا له من المسلمين فينحاز إليهم ضد المشركين، وإنما سكن الجميع لأنه يهدف إلى استقرار المجتمع وسكينته.

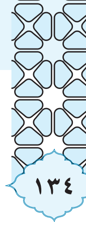
ثم إنه ﷺ بعد أن سكنهم مضى حتى ينزع فتيل النزاع، لأنه لو بقي لاستمر النزاع والخلاف، وكان هذا الموقف الراقي مما أضعف موقف المشركين وأحرجهم.

كما نلاحظ أنه ﷺ لم ينكر على المسلمين جلوسهم في هذا المجلس المختلط، ولم يطلب منهم مغادرته بعد أن غادره، وذلك لأن الخلطة واللقاء من أسباب التعايش والائتلاف وبقاء السلم المجتمعي.

وأحسب أن عبد الله بن أُبَيٍّ واليهود معه شعروا أن فرصة أفلتت منهم فقد كان مرادهم تصعيد الموقف حتى يحصل الاصطفاف بين الفريقين

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٥٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٨).



والتمايز بينهم، وهذا ما لم يمكنهم منه النبي ﷺ، بل سلك طريق الاحتواء والمداراة وحسن الصحبة بما يُبقِي على المجتمع أمنه وسلمه، فتنتشر الدعوة متجاوزة حواجز الخصومة والشحناء.

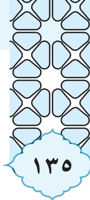
وحينما مات عبد الله بن أُبيٍّ وكان ذلك في السنة التاسعة بعد فتح مكة ودينونة الجزيرة العربية كلها لرسول الله، تصرف ﷺ بسمو أخلاقي عجيب، قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما: أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ حُفْرَتَهُ فَأَمَرَ بِهِ، فَأُخْرِجَ، فَوَضَعَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَنَفَثَ عَلَيْهِ مِنْ رِيقِهِ، وَالبَسَهُ قَمِيصَهُ. وَكَانَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَمِيصَانِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ: يَا رَسُولَ اللهِ، البِسْ أَبِي قَمِيصَكَ الَّذِي يَلِي جِلْدَكَ[١].

وفي هذا الموقف مواساةٌ لآل عبد الله بن أبي واحتواء لهم ولبقية قبيلته من الخزرج، وطي لصفحة عداوته مع شدتها ومرارتها.

ثانياً: تجنب ما يكدر السِّلم الاجتماعي:

١- كان ﷺ حريصاً على إطفاء أسباب الإثارة التي قد تكدر السِّلم الاجتماعي، وتحدث الوحشة في النفوس، وتهيؤ للانقسام داخل المجتمع ومن ذلك: ما ورد عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سُحِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَنَّهُ لَيُخَيَّلُ لَهُ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عِنْدَهَا دَعَا اللهَ عز وجل، وَدَعَاهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟**». قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: «**جَاءَنِي رَجُلَانِ فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ،**

(١) «صحيح البخاري» (١٣٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٧٣).

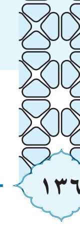


قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ اليَهُودِيُّ، قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ». فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى البِئْرِ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا نَخْلٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَائِشَةَ، فَقَالَ: «**وَاللهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُؤوسُ الشَّيَاطِينِ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَحْرِقْهُ، قَالَ: «**لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ ﷻ، وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرّاً**»[(١)]، قالت عائشة: فما ذكر ذلك لذلك اليهودي، ولا رآه في وجهه قط[(٢)]. فانظر إلى قوله: «**وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرّاً**». فإن هذا اليهودي من قبيلة من قبائل الأنصار وهم بنو زُرَيق وهو حليف ليهود وكان منافقا تظاهر بالإسلام، فأخذُه قد يسبب فتنة وإثارة يستغلها اليهود والمنافقون، بل إنه ﷺ لم يذكر ذلك لليهودي ولم تتغير معاملته له، إطفاء للفتنة، وحتى لا يتداعى الأمر ويتطور فيثير شراً.

٢- وعندما قسم النبي ﷺ غنائم حنين أعطى زعماء قريش وهم حديثو عهد بعداوة النبي ﷺ وحربه عطايا كريمة جزلة، ولم يعط المهاجرين ولا الأنصار منها، فوجد بعض الأنصار في نفوسهم من ذلك وقالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً وسيوفنا تقطر من دمائهم، فجَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الأَنْصَارَ، فَقَالَ: «**أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ؟**». فَقَالُوا: لَا، إِلَّا ابْنُ أُخْتٍ لَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ ابْنَ أُخْتِ القَوْمِ مِنْهُمْ**». ثم خطبهم فقال: «**إِنَّ قُرَيْشاً حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ لَوْ سَلَكَ**

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢١٨٩).

(٢) «مسند أحمد» (١٩٢٦٧).



النَّاسُ وَادِياً، وَسَلَكَ الأَنْصَارُ شِعْباً، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ»[(١)]، وهنا نلاحظ أنه عالج الجراح النفسية عند قريش بالعطاء الجزل الدال على الإكرام، واسترضى الأنصار ولم يدع هذا الشعور بالإيثار عليهم يكبر في نفوسهم، وقد تأثروا بكلامه وبكوا بين يديه، ورجعوا أغبط ما يكونون بمكانتهم عنده ﷺ، وكل ذلك محافظة على وئام المجتمع وسلمه.

٣ - وعن عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ، لَهَدَمْتُ الكَعْبَةَ، فَالزَقْتُهَا بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَاباً شَرْقِيّاً، وَبَاباً غَرْبِيّاً، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الحِجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشاً اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الكَعْبَةَ**»[(٢)].

إن النبي ﷺ قال ذلك بعد أن فتح مكة واستمكن له الأمر فصار هو القائد المطاع في الجزيرة، ولو فعل ذلك ما استطاع أحد أن يرد عليه أمره، ولكنه آثر سكينة النفوس حتى لا يحدث فيها نفرةً واستنكاراً لهذا الفعل، فقدم سلم المجتمع على رغبته بإعادة بناء الكعبة على قواعد أبيه إبراهيم؛ لأن بناء الدين وسلم المجتمع أهم من بناء الكعبة.

ثالثاً: معالجة المواقف المثيرة للنزاع:

تحدث أحيانا مواقف قد تكون سبب إثارة أو فتنة وقد تتطور إلى شقاق ونزاع واحتراب، ولذا كان ﷺ يبادر إلى احتوائها، ومعالجة تلك المواقف بما يحتوي تداعياتها، ويهدئ من ثائراتها وتأثيرها، ومن ذلك:

١- في غزوة بني المصطلق قال عبد الله بن أبي: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ

---

(١) «صحيح مسلم» (١٠٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٥٨٥)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٣).

لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، ويعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول ﷺ، وبلغ ذلك النبي ﷺ، وخشي ﷺ أن تفشو مقالته في الجيش فأمر بالسير في ساعة ما كان يسير فيها، ثم أشغلهم بالسرى ليلا، حتى لم يكن شيء أحب إليهم من أن يلقوا بأنفسهم إلى الأرض، وعندما أتاه عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنقه. قال ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَاسُ أَنَّ مُحَمَداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1]، وعندما خشي ابنه عبد الله أن يأمر النبي ﷺ بقتل أبيه جاء إلى النبي ﷺ فقال له: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله ابْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلاً فَمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْك رَأسه، فوالله لَقَدْ عَلِمَتْ الخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ، فَأَقْتُلَهُ فَأَقْتُلَ رَجُلاً مُؤْمِناً بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**»[2].

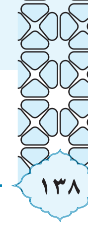
فانظر كيف أشغل ﷺ الناس بالسرى عن الخوض في هذا الحديث والانشغال به، ثم كيف راعى تداعيات الحدث لو قُتِل وماذا سيقول الناس نتيجة ذلك، ثم انظر ترفقه بابنه عبد الله وكيف لم يقل: بل ندعه، بل قال: «**نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ**».

٢- ومن ذلك أن رسول الله ﷺ جعل راية الأنصار يوم فتح مكة مع سعد بن عبادة فمرَّ سعد بأبي سفيان فقال له: يَا أَبَا سُفْيَانَ، اليَوْمَ يَوْمُ المَلْحَمَةِ، اليَوْمَ تُسْتَحَلُّ الكَعْبَةُ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٥١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٩٢).



ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ، وَهِيَ أَقَلُّ الكَتَائِبِ، فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَرَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟ قَالَ: «**مَا قَالَ؟**». قَالَ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: «**كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ فِيهِ الكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الكَعْبَةُ**»[1]، ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فنزَعَ الرَّايَةَ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهَا بِيَدِ ابْنِهِ قَيْسٍ[2]، وبهذا راعى النبي ﷺ مشاعر قريش وقائدَها أبا سفيان عندما لم يقر سعداً على كلمته الجارحة لمشاعر قريش، ونزع الراية منه، ولم يثر الأنصار وزعيمهم سعداً الذي نزعت الراية منه لأنها دفعت لابنه فهي لم تخرج عنه.

رابعاً: الوقاية من أسباب الشقاق المجتمعي:

فقد كان ﷺ ينهى عن كل ما يثير الفتن ويحدث الشقاق داخل المجتمع، ومن ذلك التفاخر القبلي الذي كان إرثاً جاهليّاً، وتقليداً راسخاً في المجتمع العربي حينها.

فنهى عنه وحذَّرَ منه، لأنه سبب لتشطير المجتمع، وتفرقه إلى فئات متنافسة، ومنفذٌ للنعرات والأحقاد، ووحشة النفوس بدلاً من ائتلافها وتعاونها، ومن ذلك:

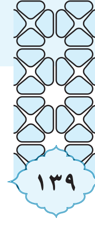
١ - قوله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**»[3]، وذلك

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٨٠).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨٥٠)، و«صحيح مسلم» (٩٣٤).



أن التفاخر في الأحساب هو نوع من ادعاء الأفضلية، والتعالي على الآخرين وهذا من أكبر أسباب الشقاق المجتمعي، والتنافر بين فئات المجتمع وتمايز قبائله، وكذا الطعن في الأنساب سبب للتنافر والإحن؛ ولذا حذر منه ﷺ هذا التحذير البليغ حيث جعله من أمر الجاهلية وشأنها.

٢- وعن جَابِر بْن عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَع[1] رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ؟!**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»[2].

فانظر كيف أنكر ﷺ التنادي بيَا لَلْأَنْصَارِ، مقابل يَا لَلْمُهَاجِرِينَ مع أنهما، اسمان شرعيان شريفان، ولكن التداعي بهما للتحيز والاصطفاف نقل الفعل إلى تداعي الجاهلية، ولذا حذر منه ﷺ بأبلغ تحذير حين قال: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**».

٣- وبيَّن ﷺ أن التحريش بينهم وإثارة النزاعات والفتن هي أمنية الشيطان ودأبه الذي لا ييأس من السعي فيه بينهم فقال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[3].

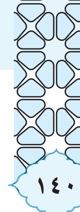
٤- ومن ذلك نهيه عن سبِّ الأموات ولو كانوا كفاراً لما يثيره في نفوس الأحياء من التنافر، فقال لأصحابه بعد فتح مكة: «**يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ**

---

(١) كسعه: أيْ ضَرَب دُبُرَه بيده. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٩٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٨١٢).



أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِناً مُهَاجِراً، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ المَيِّتِ يُؤْذِي الحَيَّ، وَلَا يَبْلُغُ المَيِّتَ»(١).

٥- وكذا النهي عن أسباب الخلاف فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً**»(٢).

خامساً: تأهيل المجتمع بأسباب التآلف والوئام المجتمعي:

فرغب ﷺ بأخلاق كريمة جميلة، تزيد الألفة، وترفع الشحناء، وتنشر التواد والمحبة في المجتمع في أحاديث كثيرة، منها:

١- عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ المَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ العَاطِسِ**»(٣)، وهذه الخصال من أسباب التآلف وإشاعة السلام المجتمعي.

٢- وعنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**كُلُّ سُلاَمَى**(٤) **عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ، يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»(٥).

٣- وعنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا،**

---

(١) «المستدرك» (٥٠٥٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٦٤)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٢١٦٢)، و«صحيح مسلم» (١٢٤٠).

(٤) السُّلَامَى: جَمْعُ سُلاَمِيَة وَهِيَ الأُنْمُلَة مِنْ أَنَامِلِ الأَصَابع. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٩٦).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٨٩١)، و«صحيح مسلم» (٧٢٠).

وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»(١).

٤- وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»(٢).

فالتبسُّم، وإفشاء السلام، والكلمة الطيبة، وعيادة المريض، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وصلاة الجماعة، والتعاون ولو بالأشياء اليسيرة كالإفراغ في دلو صاحبك، كل ذلك مما ينشر الود والتحاب في المجتمع، ويجعله مجتمع سلم ومحبة.

سادساً: التحذير من مفارقة الجماعة العامة:

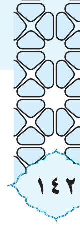
حذر ﷺ من كل ما يشتت جماعة المسلمين ويضعف لحمتهم، ويتسبب في تفرقهم واحترابهم، ولذا أمر بلزوم الجماعة ونهى عن الفرقة، فقال ﷺ: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ**(٣) **عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ**

---

(١) «صحيح مسلم» (٥٤).

(٢) «جامع الترمذي» (١٩٥٦).

(٣) يُغِلّ من الإغلال، أي الخيانة، وروي: يَغِلّ، من الغل وهو الحقد، والمعنى: أن هذه الخلال تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والشر. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٨١).



وَرَائِهِمْ»[١]، فأمر بطاعة ولي الأمر وفي روايةٍ مناصحة ولي الأمر، وبلزوم جماعة المسلمين وعدم الافتراق عنهم.

وجاءت الأحاديث بوجوب السمع والطاعة لولي الأمر، وتحريم الخروج عليه لما يترتب على ذلك من احتراب داخل المجتمع، وتفتت لحمته، وتفرق جماعته، وإثارة للفتن الداخلية فيه. فقال ﷺ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[٢].

وقال: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الجَمَاعَةَ أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ كَائِناً مَنْ كَانَ فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ يَرْكُضُ**»[٣].

وذلك أن سلم المجتمع وأمنه في وحدته، وتمكن الولاية والحكم فيه، وباختلال الوحدة تحصل الفرقة، وبضعف الولاية تحصل الفوضى والفتنة.

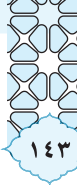
خلاصات:

١- السلم الاجتماعي هو مناخ الدعوة، وبلاغ الدين.

٢- كان ﷺ يحافظ على سلم المجتمع ووحدته، وبقاء اجتماعه وألفته.

٣- كان يعالج المواقف المثيرة للنزاع بما يهدئ ثائرتها ويحتوي تأثيرها وتداعياتها.

(١) «مسند أحمد» (١٣٣٥٠)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣١).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٩٣).
(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٤٦٩).

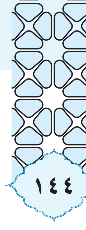


٤- كان ﷺ يتجنب أسباب الإثارة التي تشوش السلم الاجتماعي وتثير سكينته.

٥- كان يحذر أمته من أسباب الشقاق والخلاف المجتمعي، ومثيرات الفرقة والخلاف.

٦- كان يحض على الأخلاق الاجتماعية التي تحقق الوئام المجتمعي، وتعمق المحبة والتآلف.





الرَّسُولُ ﷺ والسِّيَاسَةُ الخَارِجِيَّةُ



١- كان كثيرٌ ممن يعيش في نواحي جزيرة العرب قليلي التواصل مع السياسة الدولية، لبعد الجزيرة عن عواصم الإمبراطوريات ونفوذها، ولأن الحكم فيها لم يكن حكما إمبراطوريا، ولكنه حكم عشائري قبلي.

ولكن قريشاً تميزت بتواصلهم الدولي، فقد كانت مكة بلداً اقتصاديّاً متصلاً بالعالم ومتفاعلاً مع التحركات الدولية، ولأهلها وفادات على ملوك الروم والفرس والحبشة، ورحلات تجارية إلى هذه الدول واتفاقيات معهم.

٢- سافر ﷺ إلى الشام مرتين تعرَّف خلالها على الدول العظمى، والإمبراطوريات التي كانت تختلف في نظام حكمها عن نظام الحكم القبلي العشائري السائد في مكة وأكثر الجزيرة العربية، وصار لديه تصور مُشَاهَد عن الحال السياسية في الإمبراطورية الرومانية وما يتبعها من بلاد العرب الشمالية، ومن ينافسها من الشرق وهي الإمبراطورية الفارسية.

٣- لم تكن الجماعة المسلمة في مكة تشكل كياناً سياسياً ولا زعامة قبلية، ولذا كان التواصل السياسي بالمحيط الخارجي محدوداً، فكان

الاتصال بملك الحبشة النجاشي في السنة الخامسة من البعثة لإيواء المهاجرين إليه، ثم كانت الهجرة الثانية إلى الحبشة في السنة السابعة من البعثة، ثم كانت بيعة العقبة الثانية من الأنصار لرسول الله ﷺ على الهجرة إلى المدينة وإيوائه ونصرته، وهي أهم بيعة واتفاقية في تاريخ البشرية، وبها تغير مسار التاريخ واتجاه أحداثه، ولا تزال آثارها ممتدة إلى اليوم وإلى يوم الدين، وبها تحول الدين من دعوة إلى دولة، ومن جماعة إلى مجتمع تتمثل فيه تعاليم الدين وأحكامه.

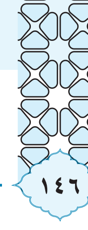
ثم بعد الهجرة تم الاتفاق بين النبي ﷺ والقبائل اليهودية المقيمة في المدينة على التعايش فيما بينهم والتناصر على عدوهم، وهي تشبه اتفاقية الدفاع المشترك.

ثم عاهد ﷺ القبائل التي كانت حول المدينة مثل جهينة وغفار وبنو ضمرة بما يشبه اتفاقية عدم اعتداء.

ثم كانت أهم معاهدة سياسية بعد الهجرة هي معاهدة الحديبية مع قريش، وهي الهدنة التي سماها الله فتحاً مبيناً، وبهذه المعاهدة قويت الجبهة الداخلية وامتدت العلاقات الخارجية.

٤- في السنة السابعة من الهجرة، وبعد أن تم تأمين الجبهة الداخلية بصلح الحديبية أرسل النبي ﷺ رسائله إلى الدول العظمى في آسيا وأوروبا وإفريقيا، فأرسل رسالة إلى كسرى فارس، وقيصر الروم، وعظيم القبط في الإسكندرية، وكاتب الملوك والأمراء التابعين لهم مباشرة، فكاتب ملوك الحبشة والبحرين وعمان واليمن ونجران واليمامة وحضرموت وأيلة وغيرهم، فمنهم من أجاب فأفلح ومنهم من أدبر فهلك[(١)].

(١) باختصار من «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشد» لمحمد حميد الله (٢٦، ٢٧).



وفي كتبه ﷺ إلى الملوك نلاحظ الجمع بين التبشير والإنذار، وأنها دعوة إلى الإسلام وليس إلى الملك ولا التبعية، فعن أبي سفيان بن حرب قال: دعا هرقل بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ وَ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾**»[(١)].

وفي كتابه إلى هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة قال: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إِلَى هَوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، وَاعْلَمْ أَنَّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الخُفِّ وَالحَافِرِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَجْعَلُ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ**»[(٢)].

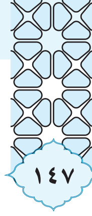
والتخاطب مع الملوك من ملكٍ أو زعيمٍ له معاييره، كما فعل نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ملكة سبأ حين كاتبها: **﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾**.

ولذا نجد في خطابات النبي ﷺ التي نقلت لنا القوة والوثوق، والبشارة والإنذار، ووضوح الرسالة وجلاءها.

٥- وكان ﷺ مراعياً للعرف العالمي والذي يشبه الاتفاقيات الدولية،

(١) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

(٢) «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء» للكلائي (٢/ ٢٠).



مثل أن الرسل لا تقتل، فعن نعيم بن مسعود الأشجعي قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لرسولي مسيلمة حِينَ قَرَآ كِتَابَه: «**مَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا؟**». قَالاَ: نَقُولُ كَمَا قَالَ. قَالَ: «**أَمَا وَاللهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا**»[1].

وراعى العرف الدولي في المكاتبة وهو أن تكون كتب المراسلات مختومة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ كِتَاباً ـ أَوْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ ـ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يَقْرَؤُونَ كِتَاباً إِلَّا مَخْتُوماً. فَاتَّخَذَ خَاتَماً مِنْ فِضَّةٍ نَقْشُهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ[2].

٦- التعاون الدولي في مساحة الحق المشترك والمتفق عليه؛ فقال ﷺ عن قريش في الحديبية: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»[3].

وقال ﷺ: «**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفاً لَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ**»[4]، ولاحظ أنه قال: «**لَوْ دُعِيتُ**»، ولم يقل: لو دعوت، فهو سيستجيب لكل دعوة مما يحقق التعاون فيها خيراً وبراً، وإن كان الداعي لها دولة أخرى مخالفة له ديناً.

٧- مع انتهاجه ﷺ الدعوة بالتي هي أحسن، واختيار اللين في القول فإنه عند المواجهة يأخذ جانب الحزم والقوة، كما صنع مع اليهود عندما غدروا، وكما صنع مع قريش حينما نقضت صلح الحديبية، ومن ذلك إرساله الجيش إلى مؤتة لما قتل رسوله إلى الشام.

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٧٦١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٠٩٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٤) «البداية والنهاية» (٢/ ٦٩٢).

ولما سمع المسلمون أن غسان تُنعِل الخيل لغزو رسول الله ﷺ عاجلهم ﷺ فسار بالجيش إلى تبوك وهي أكثر من نصف المسافة إلى الشام، ومعه أكثر جيش جمعه ﷺ لغزوة، وأبعد مسافة سافرها ﷺ بعد النبوة، فلما وصل تبوك تراجعت غسان وحلفاؤها الروم فلم تقدم عليه فأجرى اتفاقيات استكمل بها فتح شمال الجزيرة مع أكيدر دومة الجندل، ويوحنا بن رؤبة ملك أيلة، وبذلك انفسحت الدولة إلى شمال الجزيرة فصارت متاخمة لحدود دولة الروم، فإن أيلة «**العقبة**» هي حد الحجاز عن الشام[١].

وقبل وفاته ﷺ جهَّز جيش أسامة للثأر لشهداء مؤتة فتوفي ﷺ قبل أن يسير أسامة، فسيّره أبو بكر.

وكأنما كانت هذه الغزوات الثلاث إعداداً للمسلمين وتهيئة لهم لفتح الشام بعد ذلك.

٨ - وكانت السياسة الخارجية النبوية مؤسسة على المبادئ والقيم الشرعية، في حين كانت العلاقات بين الدول تقوم على الاحتراب والاستلاب، والتَّشفِّي والانتقام، ولذا جاءت الشريعة بالتعاون في المساحة المشتركة من الخير والتعاون على البر والفضل، وبحماية الحرية الدينية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، ومع حرص النبي ﷺ على هداية الناس واجتهاده في دعوتهم إلا أنه لم يُكره أحداً على دين، ولا يصح دين مع إكراه.

وعندما أتاه غورث بن الحارث فأشهر عليه السيف وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ فقال ﷺ بوثوق: «**الله**». فسقط السيف من يده فأخذه

(١) «معجم البلدان» (١/ ٢٩٢).

النبي ﷺ وقال: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**». قال: كن خير آخذ، قال: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**»؟ قال: لا، ولكن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله[١].

فهنا نرى أن النبي ﷺ لم يكرهه على الدين واكتفى منه بالكف عن العدوان.

٩- كما راعى ﷺ تعظيم العقود والاتفاقيات وأكد على الوفاء بها، عملا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾.

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَا مَنَعَنَا أَنْ نَشْهَدَ بَدْراً إِلا أَنِّي وأَبِي أقبلنا نُرِيدُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَتنا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّداً، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ إِنَّمَا نُرِيدُ الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا عَلَيْنَا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ، لَتصيرون إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلا تُقَاتِلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَّا جَاوَزْنَاهُمْ أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَكَرْنَا لَهُ مَا قَالُوا وَمَا قُلْنَا لَهُمْ، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ: «**نَسْتَعِينُ اللهَ عليهم ونَفِي بِعَهْدِهِمْ**»[٢].

وبعد صلح الحديبية رجع النبي ﷺ إلى المدينة فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ...[٣].

وعن بريدة، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال:

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٤٣).

(٢) «المستدرك» (٤٩٠٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

«اغْزُوا بِاسْمِ الله، وَفِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تَغُلُّوا، وَلا تُمَثِّلُوا»[١].

خلاصات:

١- تميزت قبيلة قريش على كثير من القبائل بتواصلها الدولي واتفاقياتها التجارية مع الدول العظمى، مما أعطى تصوراً للسياسة الدولية العالمية حينها لدى القرشيين.

٢- سافر ﷺ إلى الشام مرتين، اطلع من خلالهما على واقع الحكم الإمبراطوري المختلف عن الحكم العشائري في مكة.

٣- بدأ التواصل السياسي للجماعة الإسلامية في مكة بالهجرة إلى الحبشة، ثم بالتواصل مع الوفود القادمة في المواسم.

٤- بعد الهجرة تمت المعاهدات بين المسلمين كدولة مع القبائل اليهودية في المدينة، ومع القبائل المحيطة بالمدينة.

٥- كانت أهم اتفاقية سياسية قبل الهجرة هي بيعة العقبة الثانية، وأهم اتفاقية سياسية بعد الهجرة هي صلح الحديبية والتي سماها الله فتحاً مبيناً.

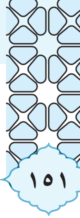
٦- بعد صلح الحديبية أرسل النبي ﷺ إلى الملوك والزعماء داخل الجزيرة وخارجها، ومنهم: كسرى وقيصر والمقوقس وغيرهم.

٧- كان ﷺ يراعي العرف العالمي والذي يشبه الاتفاقيات الدولية.

٨- كان ﷺ يحرص على التعاون الدولي في ساحة الحق المشترك، والخير المتفق عليه.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧٣١).



٩- مع انتهاجه ﷺ الرفق في الدعوة، واللِّين في القول، إلا أنه عند المواجهة يأخذ جانب الحزم والقوة، كما تعامل مع غدر يهود، ونقض قريش الصلح.

١٠- كانت السياسة النبوية مؤسسة على المبادئ والقيم الشرعية، في حين كانت العلاقات السياسية تقوم على الاحتراب والتشفِّي والانتقام.

١١- كما راعى ﷺ تعظيم العقود والاتفاقيات وأكد على الوفاء بها.



الرسول ﷺ والمستقبل

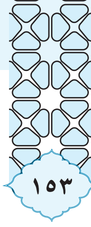


١- جاءت آيات القرآن الكريم مؤكدة عدم علم النبي ﷺ بغيوب المستقبل، وتبرئته من ادعائها: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ولذا فما أخبر به ﷺ من غيوب المستقبل فليس إلا وحياً أوحاه الله إليه، وغيباً خاصاً أطلعه الله عليه كما قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

فالغيوب المستقبلية التي أخبر بها ﷺ ما وقع منها وما لم يقع هي غيب خاص مستثنى من عموم ما استأثر الله بعلمه، أطلع الله رسوله عليه لحكمة خاصة، تثبيتاً وبشارة، أو تحذيراً ونذارة، ومنها إخباره ببشائر ظهور الدين والفتوح المستقبلية، أو إخباره بنذر الفتن وأشراط الساعة.

وليس في هذه الغيوب ما يختار النبي ﷺ الاطلاع عليه، ولكن الله يكشف له من الغيوب المستقبلية ما فيه حكمة خاصة، ولذا تأخر الوحي



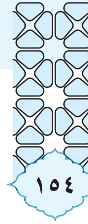
عنه في حادثة الإفك مع ألم الموقف وشدته وكربه لحكم منها: إظهار أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يتلقى الوحي إلا بأمر الله؛ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

وفي أخبار السيرة أن ناقة النبي ﷺ فُقِدت في طريق رجوعه من غزوة تبوك فقال أحد المنافقين: يزعمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَأْتِيهِ خبرُ السَّمَاءِ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَجَاءَهُ الخَبَرُ بِمَا قَالَ عدوُّ الله فِي رَحْلِهِ، ودَلَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رسولَه ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ: **«إِنَّ قَائِلاً قَالَ: يزعمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَأْتِيهِ خَبَرُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا علَّمني اللهُ، وَقَدْ دَلَّنِي اللهُ عَلَيْهَا، فَهِيَ فِي هَذَا الشِّعْب، قَدْ حَبَسَتْهَا شَجَرَةٌ بزمامِها»**. فَذَهَبَ رِجَالٌ مِنْ المُسْلِمِينَ، فَوَجَدُوهَا حَيْثُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَمَا وَصَفَ[(١)].

وكما أخبر ﷺ بالغيوب التي أوحاها الله إليه، فقد حذر من دعاوى علم الغيب، ادّعاء أو تصديقاً وكان ذلك فاشياً عند العرب على أيدي الكهان والمنجمين والعيافة الذين يزجرون الطير فقال: **«إِنَّ العِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ»**[(٢)]، وقال: **«مَنْ أَتَى كَاهِناً، أَوْ عَرَّافاً، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»**[(٣)].

٢- جاءت أخباره ﷺ عن الغيوب المستقبلية بنصر الإسلام وظهوره في أحلك الظروف وأكثرها شدة، فهو في مكة ومعه القلة المستضعفة

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٢٥).
(٢) «مسند أحمد» (٢٠٦٠٤). والعيافة: زَجْر الطَّير والتَّفاؤُل بأسْمائِها وأصْوَاتها ومَمرَّها، والطَّرق: الضَّرب بالحَصَا الَّذِي يَفْعله النِّسَاءُ. وَقِيلَ هُوَ الخطُّ فِي الرَّمْل. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٢١) (٣/ ٣٣٠).
(٣) «مسند أحمد» (٩٥٣٦).



المضطهدة تشكو إليه الشدة والجهد فيقول: «**وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمُوتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ تَعَالَى، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ**»(١).

وينزل عليه وهو في مكة وقريش في غلوائها وعنفوان زعامتها: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وإخباره ﷺ عن فتح قصور الشام وفارس وصنعاء كان في ساعة الشدة والكرب في معركة الأحزاب حتى قال المنافقون: يعدنا بقصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يذهب إلى الخلاء لقضاء الحاجة، أما المؤمنون فقالوا: موعود صادق(٢).

وفي هذه معجزة نبوية لأنه ﷺ يخبر بنتيجة لم تظهر أي من أماراتها ومقدماتها، وهي غلبة الدين وظهوره، بل النظرة العاجلة السطحية تدل على عكس ذلك، فأن يحدث به بيقين ووثوق فهذا من دلائل النبوة، ثم صَدَقَه الله وعده، ورأى هو أو رأى أصحابه ما بَشَّر به.

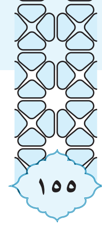
كما أن فيها تثبيتاً لقلبه ﷺ، وتثبيتاً ليقين أصحابه يجدون بها روح البشائر في ساعات الكرب والشدة.

٣- ما أخبر به وقع كثير منه في حياته، فقوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وقعت في بدر، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**». فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَدْ الحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ وَهُوَ فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٦٤٩).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ٣٩).



﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾، وقع في حياته وسمى العام التاسع من الهجرة عام الوفود لكثرة وفود القبائل التي جاءت تبايع وتعلن إسلامها ودخولها في دين الله.

وقوله لعمرو بن عبسة حين جاءه في مكة فقال: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي**»[٢]، قالها لهم وهو في مكة وقد لقي هو والمسلمون شدة وكرباً، ومع ذلك يعدهم إلى أمد وهو الظهور الذي أدركوه ولحقوا به عنده.

وقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، نزلت عليه والروم قد هزموا هزيمةً ساحقة ماحقة حتى بلغ الحصار عاصمتهم القسطنطينية، وكل المؤشرات تدل على أنها لن تقوم لهم قائمة، ومع ذلك يؤكد القرآن أنهم سيغلبون في أمدٍ محدد: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾، وأدرك ذلك المسلمون الذين سمعوا تنزيله.

٤- ووقع كثير من أخباره المستقبلية في حياة الصحابة الذين حدثهم به، مثل إخباره عن فتح قصور الشام وفارس، وفتح بيت المقدس، ومسير الظعينة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله، وقوله لأصحاب الصفة: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ، وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ، وَرُفِعَتْ أُخْرَى؟**»[٣].

(١) «صحيح البخاري» (٢٩١٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).
(٢) «صحيح مسلم» (٨٣٢).
(٣) «جامع الترمذي» (٢٤٧٦).



وقوله لأم حرام بنت ملحان وقد استيقظ من نومه يضحك، ويقول: «**نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا البَحْرِ مُلُوكاً عَلَى الأَسِرَّةِ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهِمْ، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ؟ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله**» ـ كَمَا قَالَ فِي الأَوَّلِ ـ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «**أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ**». فَرَكِبَتِ البَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنَ البَحْرِ، فَهَلَكَتْ[١]، وحين قال ذلك كان العرب لا علم لهم بالحروب البحرية، وكان تنقلهم غالباً في الصحاري، وأما ركوبهم للبحر على قلته فكان للسفر أو التجارة وما كان للقتال، ومع ذلك يخبر ﷺ بهذا التحول، وتتلقى أم حرام ذلك بيقين المؤمن، فلم تقل كيف ذلك وأنى ذلك؟ ولكن قالت مباشرة: ادع الله أن يجعلني منهم، فكانت منهم وتوفيت معهم في غزوة قبرص.

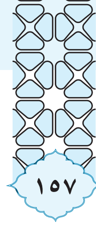
ومن غيوب المستقبل ما أخبر به وتحقق من بَعْد على فترات متباعدة، مثل قوله: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ**»[٢]، وقد حصل هذا الاتساع على مراحل حتى استوعب أقصى الشرق وأقصى الغرب.

ومثل إخباره عن انتشار الدين حتى لا يبقى بيت شجر ولا مدر إلا دخله[٣]

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٨٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٨٩).

(٣) «مسند أحمد» (٢٣٨١٤).



وهو ما نعيشه اليوم في ظل تنوع وسائل الإعلام وأدوات التواصل حتى لا تكاد توجد بقعة في العالم إلا وصلها بلاغ الإسلام.

ومثل إخباره عن تولي أبناء الإماء الملك في قوله: «**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا**»[١]، وهو ما كانت العرب تأنف منه وتستبعد حصوله، وقد وقع في آخر خلافة بني أمية، وفي خلافة بني العباس.

٥- مع أنه ﷺ تلقّى بشائر النصر والظهور من الله، وتلقّاه هو وأصحابه بغاية اليقين الإيماني حتى كأنه رأي عين، إلا أن ذلك لم يصرفه عن بذل الأسباب، وتقدير الأمور وتدبيرها، وبذل الجهد في التوقِّي وحسن الإعداد، وأخذ الحذر والحيطة، فهو في طريق الهجرة يبشر سراقة بسواري كسرى، ولكنه سلك طريق الساحل وتجنب الطريق السالك المعروف، وبالغ في التخفِّي والتوقِّي وإخفاء الأمر.

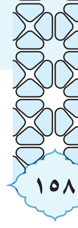
وفي معركة بدر خرج بأمر الله وقد وعده إحدى الطائفتين، وأخبر أصحابه عن مصارع المشركين في ميدان المعركة، ومع ذلك بقي تلك الليلة قائماً يصلي يستنزل نصر الله ومدده، ويلح في مسألته: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[٢].

فالثقة بموعود الله لا تحجبه عن وظيفة العبودية لله، والافتقار إليه، والإلحاح في مسألته.

وفي غزوة الأحزاب كان يبشر بفتح مدائن فارس والروم، ولكنه كان

(١) «صحيح مسلم» (٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٦٣).



يشارك أصحابه حفر الخندق حتى غطى التراب بطنه وأكمل تحصين المدينة وحراستها والدفاع عنها.

فاليقين بنصر الله وتحقق موعوده لا يعني إغفال عالم الأسباب، والسيرَ وفق سنن الله الجارية في ملكه، ولذا لا تجد في معاركه كلها تهوراً أو مغامرة غير محسوبة، ولكن غاية استفراغ الوسع، وأخذ الأسباب، والاحتياط البالغ في تدبير الأمور وتصريفها.

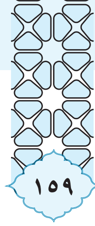
٦- وكما أخبر ﷺ عن المستقبل الذي كشف غيبه بالوحي فإن هناك استشرافاً منه للمستقبل نتوقع أنه نتيجة بُعدِ النظر وصدق التوقع، مثل قوله عن قريش بعد الأحزاب عندما عادت خائبة إلى مكة: «**اليَوْمَ نَغْزُوهُم وَلَا يَغْزُونَنا**»[(١)]؛ لأن الحشود التي جمعتها في هذه المعركة الخاسرة لا يمكن أن تجتمع معها مرة أخرى، ولأنها استنزفت قُوْتها وقُوَّتها في مجيئها من مكة ومطاولة الحصار، وخسرته كله وعادت كالَّة منهكة، ولذا كان هذا بداية تفكر ذوي الرأي منهم كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد بمراجعة مواقفهم العدائية السابقة واختيار الطريق الذي طالما حاربوه.

وتم ذلك، فقد أتى النبي ﷺ بعد عام واحدٍ إلى مكة لعمرة الحديبية ثم جاء بعد لفتح مكة.

ومثله قوله ﷺ لملك الجبال: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[(٢)]. وهذا التوقع من النبي ﷺ يظهر أنه استنتاج من الحال التي كان يعايشها وهي اتساع دعوته في جيل الشباب والفتيان مع شدة تمنع الملأ والأشياخ، فكان نظره مصوباً إلى الجيل القادم.

(١) «صحيح البخاري» (٤١١٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١).



ومثله قوله ﷺ عن قريش حين انصرفوا من أُحد: «**إِنْ كَانُوا قَدْ جَنَّبُوا الخَيْلَ وَامْتَطَوْا الإِبِلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ، وَإِنْ رَكِبُوا الخَيْلَ وَسَاقُوا الإِبِلَ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ المَدِينَةَ**»[1]، وهي نظرة تحليلية نتيجة خبرة عسكرية؛ لأن ركوب الإبل للسفر الطويل، وركوب الخيل للكر والفر، وليس للسفر.

وهذه ونظائرها من بُعد النظر وصدق التوقع حسب المعطيات الدالة عليها، ولا يلزم أن تكون وحياً، والفرق بينها وبين إخباره عن المغيبات التي أطلعه الله عليها أن تلك المغيبات كشف عن غيب لا يوجد من واقع الحال ما يدل عليه أو يوصل إليه إلا الوحي الإلهي، فهو معجزة نبوية وليس مهارة بشرية.

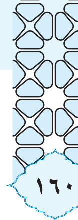
٧- ومن استشرافه للمستقبل تنويعه الخيارات وتطلب الفرص، وعدم الوقوف أمام الباب المغلق، ومن ذلك عرضه نفسه على القبائل لما اتضح له غلواء الملأ من قريش ولجاجتهم في الكفر، ثم سفره إلى الطائف بحثاً عن أرضٍ جديدة يستنبت فيها دعوته.

ومن ذلك الانفتاح على الآفاق الواسعة خارج الجزيرة فقد كاتب الملوك في آسيا وأوروبا وأفريقيا يدعوهم إلى الإسلام قبل فتح مكة.

ومن ذلك الإعداد للمراحل القادمة، وإحسان التَّهَيُّؤ لها، ففي مسيره إلى تبوك في أكبر جيش يقوده وأبعد مسافة يقطعها منذ بُعِث برغم الشدة والعسرة كان يقمع غلواء الروم وأتباعهم من الغساسنة الذين يشيعون أنهم ينعلون الخيل لغزو النبي ﷺ في المدينة، فلما شخص إليهم حتى وصل تبوك تراجعوا عن ذلك، مع أن سراياه انطلقت من تبوك إلى تخوم الشام

---

(١) «سيرة ابن اسحاق» (ص٣٣٤).



في دومة الجندل وأيلة، والتي ضمها إلى الدولة الإسلامية وأصبحت دولتا فارس والروم متاخمة لحدوده.

وفي هذه الغزوة تحفيزٌ للأمة وتهيئةٌ لها لإكمال الفتوح بعد وفاته، وقد ترك بشراه لهم بفتح قصور كسرى وقيصر، ولذا فإن غزوة تبوك أشبه بالاستنفار والإعداد للفتوح التي توالت بعدها.

ولعله لهذا السبب حصل التحفيز والاستنفار الشديد للخروج والمشاركة فيها، كما حصل العتاب البليغ للمتخلفين عنها، وذلك حتى لا تفتر همة الأمة عن الجهاد، وبلاغ الرسالة، ونشر الدعوة.

ومن ذلك عمق النظر إلى المآلات، واعتبار تداعيات الأفعال وما تؤدي إليه، ويدل على ذلك قوله لعائشة: «**لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ الله، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنَ الحِجْرِ**»(١).

وكذلك قوله عن قتل بعض المنافقين: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»(٢)، وقوله: «**أَكْرَهُ أَنْ تَحَدَّثَ العَرَبُ بَيْنَهَا: أَنَّ مُحَمَّداً قَاتَلَ بِقَوْمٍ، حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ**»(٣).

وفي هذا مراعاة لتداعيات الفعل وآثاره المترتبة عليه، وهذا بعكس تصرف الشخصية الانفعالية التي تستجيب للموقف الضاغط، وتغفل عن آثاره البعدية، على حد قول القائل:

---

(١) «صحيح مسلم» (١٣٣٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٩٠٥).

(٣) «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٢٦١)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٤/ ٣٦).

إذا هـمَّ ألقـى بيـن عينيـه همـه ونَكَّـب عن ذكر العواقب جانبا[١]

٨- ومن الغيوب التي أخبر بها ما يكون من الملاحم والفتن في آخر الزمان، وهذه ليست من استشراف المستقبل ولا مما تسعى الأمة إلى تحقيقه ووقوعه، ولكنه خبر عما سيقع، ومثله ما جاء في القرآن من أخبار إرهاصات القيامة، ومن المهم التنبه على أمور هامة:

أ- أن ما يروى من أخبار الملاحم والفتن دخل فيها الضعيف والشديد الضعف والموضوع، فأحاديث الفتن من مظان الضعاف والواهيات، ومن ذلك أحاديث الرايات السود، والسفياني.

ب - أن تطلب وقوعها ليس إلينا؛ فهي أحداث سوف تقع، ولا تنتظر أن نوقعها، وكم سفكت من الدماء وأشعلت من الحروب بدعاوى تطبيق بعض نصوص آخر الزمان، والزعم أن هذا هو تأويل الخبر ومصداقه، كما حصل في دعاوي المهدي، مثل مهدي الموحدين في المغرب، والمهدي في السودان، والاحتلال المسلح للحرم المكي عام (١٤٠٠هـ) وغيرها من الفتن، ولذا جاء عن سفيان الثوري أنه قال: إن مر على بابك المهدي، فلا تتابعه حتى يجتمع عليه الناس[٢].

وقد انتشرت كتب ومقالات تنزل أحاديث الفتن وأشراط الساعة على أشخاصٍ أو أحداث بعينها، فهذا هو المهدي، وذاك السفياني، وتلك الرايات السود.

(١) «شرح ديوان الحماسة» (ص٥٦).
(٢) «تاريخ بغداد» (١٤/ ١٥٨).

ج – ومن أسباب رواج ذلك ضغط الواقع الشديد على المسلمين، وشدة المعاناة، وتتابع النكبات، فيلجأ بعض من قلَّ علمه إلى تتبع هذه الأخبار وتنزيلها على وقائع معينة هروباً من معاناة الواقع إلى ما يظنونه خلاصاً وإنقاذاً للأمة، وفرجاً متوقعاً تقود إليه الأماني الخداعة، ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وكم سفكت دماء، ووقعت حروب، وأضرمت فتن جراء الجراءة بجهل والتقول بغير علم[١].

خلاصات:

١– تظاهرت دلائل الكتاب والسنة أن رسول الله ﷺ لا يعلم الغيب إلا ما أظهره الله عليه.

٢– كما تبرأ ﷺ من دعوى علم الغيب، فقد حذر من ادّعاء ذلك أو تصديقه بطرائق الجاهلية من الكهانة والعيافة والتنجيم.

٣– أطلع الله نبيه على بعض غيوب المستقبل لحكمة خاصة، بشارة وتثبيتاً، أو نذارة وتحذيراً.

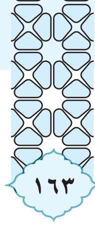
٤– أخبر ﷺ عن مستقبل الإسلام فتوحاً وظهوراً، وكان ذلك في أوقات الكرب والشدة، وكان ذلك من دلائل نبوته.

٥– وقع كثير مما أخبر به ﷺ من غيوب المستقبل في حياته، وبعضه في حياة أصحابه، ومنه ما وقع أو سيقع بعد ذلك.

٦– مع أنه ﷺ تلقى بشائر النصر والظهور وحياً من الله إلا أن ذلك لم يصرفه عن اتخاذ الأسباب، وإعداد العدة، وتقدير الأمور وتدبيرها.

---

(١) ينظر في ذلك كتاب: «معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن والملاحم» د. عبد الله العجيري.



٧- وكما علم غيوب المستقبل بالوحي، فقد كان لديه استشراف للمستقبل يدركه ببعد النظر وصدق التوقع.

٨- ومن استشرافه للمستقبل تنويع الخيارات، وتطلب الفرص، والإعداد للمراحل القادمة.

٩- ومن استشرافه للمستقبل عمق النظر إلى المآلات، وتداعيات الأفعال وعواقبها.

١٠- ومن الأخبار المستقبلية ما أخبر به من الفتن والملاحم وأشراط الساعة؛ ولذلك حِكم منها: الإيمان بها، والاستعداد لها، ومعرفة قرب الساعة إذا جاء أشراطها.

١١- تنزيل أحداث آخر الزمان على أشخاص وأحداث معينة شابه كثير من الجهل والتهور، وترتب عليه كثير من المفاسد والفتن.

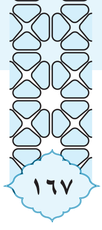




البَابُ السَّادِسُ

الرَّسُولُ ﷺ وَدَعْوَتُهُ





التعليم النبوي[١]



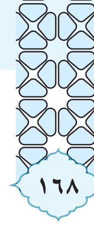
بعث الله نبيه ﷺ معلِّماً، فكان خير معلِّم للناس الخير، قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتاً وَلَا مُتَعَنِّتاً، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّماً مُيَسِّراً**»[٢]، وجاءت آيات القرآن تبين للأمة وظيفة النبي التي يقوم بها، والمهمة التي بُعث بأدائها، وتُكَلِّفُ الأمة بحسن التلقِّي عنه ﷺ فقال عز وجل: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾.

وقد كان أسلوب النبي ﷺ في تعليمه ذا فنون متنوعة بما يناسب تنوع الناس في مداركهم وبيئاتهم، ولكن جماع هذه الأنواع هو بث التعليم في كل نواحي الحياة، وإشراك المتعلِّم في العملية التعليمية وتفاعله معها.

فعندما ننظر إلى التعليم النبوي نجده مدمجاً في الحياة، فلم يكن ثمَّ مكان خاص للتعليم، ولا وقت خاص له، ولكن كان التعليم النبوي يتناغم

(١) ينظر في الموضوع: كتاب شيخنا عبد الفتاح أبو غدة: «الرسول المعلم»، ومنه استفدت في هذا المبحث.

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٧٨).

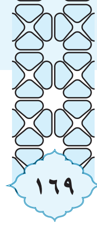


مع إيقاع الحياة، وينتشر في فعاليتها، ولذا نجد النبي ﷺ يلتقط بيقظةٍ المواقفَ العارضة في طريقه الذي يمشي فيه، وعلى طعامه الذي يأكله، وفي مجلسه الذي يتحدث فيه، وفي مشهد يراه هو أصحابه فيلفت النظر إلى معنى بعيد يدل عليه المشهد القريب، وهذا ما تجده مبثوثاً منتشراً في سيرته ﷺ ومن شواهد ذلك:

كان ﷺ وأصحابه جلوساً في الجعرانة، فرأوا امرأة تبحث بفجيعة وذهول عن ابن رضيع لها فقدته، وكان حالها مؤثراً ومثيراً، فقد زاغ بصرها، وانتفش شعرها، وتحلب ثدياها، وصار مشهدها مثيراً للرحمة لها وللرضيع الذي فقدها، وفي أثناء نظرهم رأوا الأم وقد وجدت الصبي، فانفرطت عاطفتها والتقطته بلهف واحتضنته مجهشة بالبكاء، وأخرجت ثديها تلقمه إياه غذاء وتحناناً، وفي لحظة التفاعل والتعاطف مع المشهد إذا بالنبي ﷺ يسأل أصحابه: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» فجاء الجواب التلقائي: لَا وَالله وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. هنا التقط النبي هذا المشهد القريب ليجعله وسيلة إيضاح ودلالة على معنى عظيم فقال: «**اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(١).

إن هذا التعليم لم يأت بإعداد مسبق، ولم يفتعل الموقف من أجله، ولكن استغل دلالته وحالة التأثر به فجعله مشهد تعليم، وقد كان يمكن أن يكون منظراً عابراً كغيره من مشاهد الحياة، ولكن النبي ﷺ جعله مشهد تعليم بالغ الدلالة بالغ التأثير، وما كان الصحابة ليرووا هذه الحادثة لولا ما ارتبط بها من التعليم النبوي.

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٩٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٤).



ومن أمثلة ذلك: أن رجلاً مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ الله؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا سَبِيلُ الله إِلَّا مَنْ قَتَلَ؟! إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَاراً، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً وَتَفَاخُراً، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ**»(١).

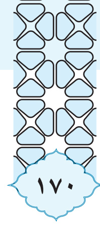
إن هذا الرجل مرَّ بهم وهو يسير في طريقه متوجهاً إلى عمله، وكان يمكن أن يمضي المشهد كما يمضي غيره من العابرين، ولكن النبي ﷺ استغل إعجاب الصحابة بقوته، وتساؤلهم عن أفضل ما تكون فيه هذه القوة، فحوَّل هذا المشهد العابر إلى درس في قيمة العمل، وتحمل المسؤولية، وتوسيع معنى الجهاد في سبيل الله ليشمل كل عمل صالح مبرور.

ولهذين المثالين نظائر كثيرة تجدها مبثوثة في نصوص السُّنة تخلص منها إلى أن تعليم النبي ﷺ كان مبثوثاً في مناشط حياته، ومتفاعلاً معها، ومدمجاً مع فعالياتها.

لم يكن من عادة النبي ﷺ إلقاء محاضرات عامة في بيان أحكام الإسلام، ولم يقم مدرسة لها ساعات ودروس، بل كان يبلغ ما يوحى إليه في البيت والمسجد والطريق، حين تدعو الحاجة إليه، يقول ذلك بلسانه وعمله، ويعبر عنه بقوله وفعله. فقد كان خُلُقه القرآن، ومعناه: أن كل فعل من أفعاله، وكل خُلق من أخلاقه، آيات تتلى، ومحاضرات تلقى، وحلقة

---

(١) «المعجم الأوسط» للطبراني (٦٨٣٥).



درس ومجلس وعظ، لأنها كلها تنطق بما يأمر به القرآن[(١)].

والمعنى الآخر الجامع للتعليم النبوي هو إشراك المتعلم في العملية التعليمية، وذلك بإشراكه بالوصول للنتيجة؛ إما بالحوار المباشر أن يسأله فيجيب، أو الحوار الافتراضي بأن يسأل سؤالاً عاماً يجيب عنه كلٌ في نفسه.

ومثال ذلك: حديث المرأة التي سألت النبي ﷺ فقالت: إِنَّ فَرِيضَةَ الله ـ أي الحج ـ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخاً كَبِيراً لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتِه؟**». قالت: نعم. قال: «**فَاقْضُوا الله، فَاللهُ أَحَقُّ بِالقَضَاءِ**»[(٢)].

وذهب ﷺ إلى سعد بن عبادة يزوره، فسأله بشير بن سعد فقال: إن الله أمرنا أن نُصَلِّيَ عَلَيْكَ وَنُسَلِّمَ، أَمَّا السَّلَامُ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فسكت النبي ﷺ برهة، فجعل الصحابة يقولون في أنفسهم: سمع ما قال فكره ما قال، وبعضهم يقول: بل لم يسمع ما قال، ومرت لحظات ذهبت فيها أذهان الصحابة إلى هذه الاحتمالات، وإذا بالنبي ﷺ يقطع هذه الحيرة ويقول: «**قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ اللهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**»[(٣)].

ولك أن تتخيَّل وقع الجواب بعد لحظات الترقُّب والانتظار هذه، وكيف سيكون استيعابه ومكانه من الذاكرة.

أما طرائق النبي ﷺ في التعليم فهي متعددة ومتنوعة بحسب ما يناسب

---

(١) باختصار من كتاب: «تعريف عام بدين الإسلام» للطنطاوي (ص ١٧١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٥١٣)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٠٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (٤٠٥).

كل حالة ويليق بها، وجماعها لفت الانتباه وتفريغ الذهن وتوضيح المعنى، ومن ذلك:

١- طرح السؤال وطلب الإجابة عليه، ثم بيان الجواب المقصود، ومن ذلك: قوله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**». وكان يسأل هذا السؤال وبين يديه جُمَّارة نخل، فَوَقَعَ الصحابة فِي شَجَرِ البَوَادِي؛ وهي أشجار الصحراء التي تنبت فيها؛ كالسَّمُر، والسَّلَم، والطَّرْفاء ونحوها. ولم يصيبوا، فردَّ النبي ﷺ ثم قال: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»[1].

٢- استخدام وسيلة الإيضاح، ومن ذلك: حديث مرور النبي ﷺ بالسوق، فعن جابر رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ العَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[2] مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**». فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**». قَالُوا: وَالله لَوْ كَانَ حَياً، كَانَ عَيْباً فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «**فَوَالله لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»[3].

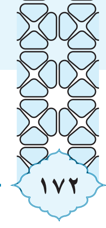
فانظر إلى حشد هذه المثيرات في هذا المشهد القصير جداً البليغ جداً حيث جمع النبي ﷺ حشداً من طرائق التعليم منها: طرح السؤال، ووسيلة الإيضاح، وضرب المثل، وكان المخاطبون شركاء في التساؤل والوصول إلى النتيجة.

---

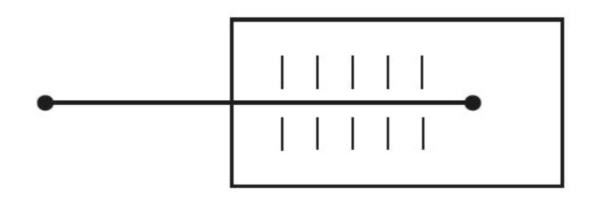
(١) «صحيح البخاري» (٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٨١١).

(٢) الأسكّ: مقطوع الأذنين. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٨٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٩٥٧).



٣- الرسم التوضيحي، ومن ذلك: أن النبي ﷺ خطَّ أمام أصحابه خطّاً مُرَبَّعاً وَخطَّ خطّاً فِي الوَسَطِ خارِجاً مِنْهُ، وَخطَّ خُططاً صِغاراً إِلَى هَذا الَّذِي فِي الوَسَطِ، مِنْ جانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَطِ، وَقالَ: «**هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الخَطُّ الخَارِجُ أَمَلُهُ، فَبَينَا هُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَمَلِهِ إِذْ أَحَاطَ بِهِ أَجَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا، نَهَشَهُ هَذَا**»(١).



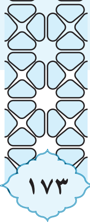
إن هذه الصورة قد جمعت المعنى في لوحة بيانية وصورة واضحة معبرة، لا تحسب أن من شهدها سينسى المعنى ولا الصورة، وقدمت الصورة بطريقة مثيرة للانتباه حيث بدأ النبي ﷺ بالرسم، وكأني بالصحابة حوله ينظرون إليه وهو يخط على الأرض وكل منهم يتساءل سيخط ماذا ولماذا؟ ثم لما انتهى طرح سؤالاً: أتدرون..؟ ثم قدَّم الجواب بعد كل هذه التهيئة، فكيف سيكون تَلَقِّي الأذهان لهذا المعنى؛ المقرون بالمثيرات والصور التوضيحية؟!

٤- ضرب المثال، وهذا باب واسع في التعليم النبوي، ولذا أُلفت كتب بعنوان: الأمثال النبوية، وهذه الأمثال التعليمية تفيد في تقريب المعنى وتوضيحه، وهي أمثلة من البيئة ومدركات المخاطبين بحيث يسهل تصورها.

ومن أمثلة ذلك: حديث: «**مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ،**

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٤١٧).



رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[(١)].

٥- التقريب بالمشهد الخيالي، وذلك بأن يصور مشهداً مؤثراً في الخيال ثم يربط به المعنى، وهو نوع من ضرب المثل ولكنه بمشهد متخيل، ومثاله حديث: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهرا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ**[(٢)] **شَيْءٌ؟**». قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا**»[(٣)].

ولك أن تتخيل بيئة المدينة الصحراوية الجافة التي تنتظر أن يجري وادي العقيق يوماً في السنة فيخرج الرجال والنساء لرؤيته، والفرح ببهجة مسيله، فإذا بالنبي ﷺ يضع الصورة لهم نهراً غزيراً، وأين هو؟ بِبَابِ أَحَدِكُمْ. فهل تخيَّلت مشهد بيت على ضفة نهر غمر؟ إنه منظر غاية في الروعة، والري والجمال يوحي به هذا التصوير.

ثم يُكمل الصورة فيقول: «**يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ**».

لقد كان النبي ﷺ يأمرهم أن يغتسلوا في الأسبوع يوماً لتتحقق نظافتهم في اجتماع يوم الجمعة، فكيف بمن يغتسل كل يوم كيف ستكون نظافته؟ وكيف بمن يغتسل كل يوم خمس مرات كيف سيكون نقاؤه وطهره؟

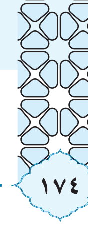
أيّ صورة من النقاء يوحي بها هذا المشهد؟!

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٤٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٩٧).

(٢) الدَّرَنُ: الوسخُ. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٢٨)، و«صحيح مسلم» (٦٦٧).



ثم يأتي التساؤل: «**هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟**» فجاء الجواب التلقائي: لا يا رسول الله، لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قال: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا**».

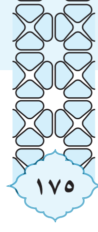
لقد كان يكفي أن يقول النبي ﷺ: الصلوات تمحو الخطايا، ولكن شتان بين تقديم المعنى مجرداً وتقديمه محفوفاً بهذه المؤثرات والطرائق التعليمية، والإغراءات الخيالية، حتى تأخذ بكل مجامع النفس وأشواقها.

وبتتبع الطرائق النبوية في التعليم سنقف على مشاهد ووسائل أخرى في التعليم النبوي ليست هذه إلا عينة منها ونموذجاً يتعرف به على بقيتها، ويجد فيها كل معلمٍ ومربٍّ وأب وسائل تربوية وتعليمية غاية في الروعة والتأثير.

٦- كان له ﷺ حفاوة خاصة بذوي النباهة العلمية فيخصهم بالتحفيز والإشادة بكلمات هي شهاداتُ تخرّج وتفوق، فعَن أبي هُريرة، قال: قلت يا رَسولَ الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ**»[١].

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ**»[٢].

(١) «صحيح البخاري» (٩٩).
(٢) «صحيح مسلم» (٨١٠).



٧ - كما أن التعليم النبوي كان يُقدَّم في وعاء من المحبة والرحمة وشفقة الأبوَّة وإيناسها.

يقول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بيدي وَقَالَ لي: «**يَا مُعَاذُ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

فانظر إلى تقديم هذه الوصية بهذا القرب وإعلان الحب، والأخذ باليد وكأنما تسري هذه المحبة والمرحمة من كفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى كف معاذ.

يالله كيف تلقَّى وجدان معاذ هذا الإعلان النبوي: «**يَا مُعَاذُ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»؟ كيف كان أنسه بالقرب من رسول الله وأنوار الوجه النبوي تغمره؟!

وما شعوره وكفه في يد المصطفى يعاطيه بها المحبة والوداد؟!

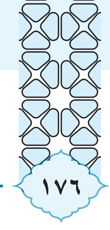
ومن ذلك: قول عبد الله بن مسعود: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ التَّشَهُّدَ كَفِّي بَيْنَ كَفَّيْهِ كَمَا يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ(٢). هل تخيَّلت يد ابن مسعود وقد احتواها النبي بكلتا يديه ووضعها بين كفيه وهو يُعلِّمه التشهد؟ وأيّ إيناس وإشعار بالخصوصية والمحبة والقرب يوحي به هذا القرب والاحتواء؟

وكيف سيكون رسوخ العلم حين يُقدّم بحب فيستقر في القلب؟!

٨ - ونجد في المشهد التعليمي الواحد عدة أنواع من المثيرات والمحفزات والموضحات بحيث لا يجمعها عنوان واحد ومن ذلك ما حدَّث به معاذ بن جبل أنه كان رديف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على حمار يقال له: عُفير، رَسَنُه من

(١) «سنن أبي داود» (١٥٢٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٤٠٢).



ليف، وليس بينه وبين رسول الله ﷺ إلا مُؤَخَّرة رحل الحمار.

وبينما هما في الطريق، إذا برسول الله ﷺ يناديه نداء البعيد على قربه، فيقول: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَل**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. فسكت رسول الله ﷺ، ثم ناداه بعد، فقال: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَل**». فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك. فسكت رسول الله ﷺ، ثم ناداه بعد، فقال: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَل**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. فقال ﷺ: «**يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟**». قال معاذ: الله ورسوله أعلم. فقال ﷺ: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**». ثم سار ساعة ثم قال: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَل**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إذا فَعلُوا ذلك؟**». قال: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ، وَيَغْفِرَ لَهُم، وَيُدخِلَهُمُ الجنَّةَ، مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، صِدْقاً مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»، قَالَ يَا رَسُولَ اللهَ: أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: «**لَا؛ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَّكِلُوا عَلَيْهَا**» فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا[(١)].

فانظر إلى هذه البراعةُ النبويةُ في التعليمِ، وتحفيزَ الذهنِ، وإشراكِ المتعلِّم في الوصول إلى المعلومة، وتحفيزِه لتلقِّيها؛ فقد اختار رسولُ الله ﷺ لإيصال هذه المعلومة ساعةً يكون فيها معاذ رضي الله عنه على حال من القرب الوجداني والنفسي الذي يستلزمه ذلك القرب الجسدي، والخصوصية المستشعرة من الإرداف على الحمار، وهي ساعة تهيُّؤٍ نفسيٍّ للتلقي من رسول الله ﷺ، ثم يعجبك ذاك النداء لمعاذ بن جبل باسمه واسم أبيه، وكأنَّما يناديه من مكان بعيد، مع أنه في أقرب أحواله إليه، حتى

(١) «صحيح البخاري» (١٢٨، ٧٣٧٣)، و«صحيح مسلم» (٣٠).

إذا لبَّاه معاذ وأسعده سكت، ويا لله كيف ذهب ذهنُ معاذٍ كلَّ مذهب في لحظات الصمت التي وزعها رسول الله ﷺ بين نداءاته الثلاثة!! لقد كان النداء محفِّزاً، وكان الانتظار الصامت محفِّزاً أيضاً، حتى إذا كان الذهنُ في غاية التيقُّظ لتلقي ما سوف يقوله رسول الله ﷺ، جاءت المعلومة على شكل سؤال: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ**». وأجاب معاذ جواب المتعلِّم المتلهِّفِ: ألله ورسوله أعلم. فلما جاء الجواب النبوي وافى ذهناً يقظاً متحفِّزاً متشوِّقاً.

لقد توالت كل هذه المحفِّزات من الإردافِ والنداءِ والسكوتِ والتساؤلِ، وكل ذلك شَحَذَ الذهن وأَقْبلَ بالقلب؛ لذلك فلا عجب أن لَقِفَ معاذ رضي الله عنه هذا الحديث فوعاه وحفظه، وكأني به عاش عمرَه كلَّه ونداءُ النبيِّ ﷺ يملأ أذنيه، وهل أعجب من أنه ما أذهلته آلامُ المرضِ ولا كُرَبُ الموت، أن يتذكرَ هذا المشهدَ فيرويه بكل تفاصيلهِ حين حضره الموت، وكأنما يحدِّث عن أمر للتوِّ حَدَثَ معه.

وكان يصاحب هذه الفنون النبوية في التعليم استنفار الناس لتعليم بعضهم بعضاً، فكل متعلم يصير معلماً بما تعلم، ولذا انتشر العلم وفشا في وقت قياسي لتحفيز النبي ﷺ كل متعلم على التعليم، قد خطب ﷺ الناس ثم قال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»[١].

وعن مالك بن الحويرث قال: أَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَحِيماً رَفِيقاً، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٤٧)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣٠).

اشْتَهَيْنَا أَهْلِينَا، أَوِ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّا تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ**»[(١)].

فانظر كيف أوكل إلى هؤلاء الشباب المتعلمين مهمة تعليم ما تعلموه إذا رجعوا إلى أهليهم، فكأنما التعليم النبوي ينتشر من المدينة كما تنداح دوائر الماء وتتابع وتتسع.

فصلوات الله وسلامه وبركاته على خير معلِّمٍ للناس الخيرَ.

خلاصات:

١ – كان التعليم النبوي مدمجاً في الحياة، ينساب مع مشاهدها وفعالياتها.

٢ – كان النبي ﷺ يشرك المتعلم في العملية التعلمية بإشراكه بالوصول للنتيجة من خلال الحوار.

٣– من أساليبه التعليمية طرح السؤال وطلب الإجابة عليه.

٤– من أساليبه استخدام وسيلة الإيضاح.

٥– من أساليبه استخدام الرسم التوضيحي.

٦– من أساليبه ضرب المثل.

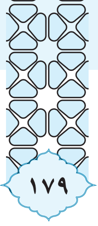
٧– من أساليبه التقريب بالمشهد الخيالي.

٨– عنايته بذوي النباهة العلمية وتحفيزهم.

٩– كان التعليم يقدم في وعاء من الحب.

١٠– كان يستنفر الناس للتعلم والتعليم، فكل متعلم يصير معلماً لما تعلم.

(١) «صحيح البخاري» (٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).



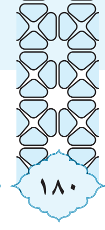
الرَّسُولُ ﷺ والقِراءة



١- الأميَّة صفة نقص في حق كل أحد، إلا في حق النبي ﷺ فإنها صفة كمال؛ وذلك أن المتعلم يقرأ ما كتبه غيره، فالقراءة مصدر معرفة له، أما النبي ﷺ فإن العلم الذي أوتيه وبلَّغه للناس ليس مصدره ما كتبه الناس ولكن ما أوحاه الله إليه، فقد جاء هذا النبي ﷺ ليعلم الناس ما أُنزل عليه من السماء، وليس ما كُتب في الأرض، ولذا أكد القرآن صفة الأُميَّة ليدل على مصدر التلقي عند هذا النبي الأُمي: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

فلم يكن النبي ﷺ يعلِّم الناس مما في الكتب حتى يحتاج إلى القراءة، وإنما يعلِّمهم مما أوحاه الله إليه وأمره ببلاغه، فكانت وصف كمال فيه مع أنها في غيره وصف نقصان؛ لأنها دلالة على نبوته واستغنائه بما علَّمه الله عما يتعلَّمه الناس ويقرؤونه في الكتب.

ولم تكن الأمية مرادفة للجهل؛ فقد كان للنبي ﷺ علمه الواسع، وكانت طريقته في تلقي العلم هي التلقي الشفهي لا الكتابي، كعادة أكثر



العرب، مع الملاحظة الدقيقة، والاتصال بوفود القبائل والأمصار.

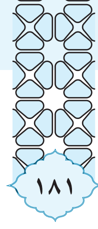
والملاحظ لقرارات النبي ﷺ وإدارته يعلم أنها مبنية على اطلاع واسع بعلوم عصره، ومعارفه الجغرافية والسياسية والقبلية والأدبية وغير ذلك.

٢- وثم عاجبة أخرى وهي أن هذا النبي الأمي عندما تلقَّى الوحي، كانت أول كلمة تلقَّاها وألقاها إلى الناس وحيا من الله إليه وإليهم هي: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وفي نزول أول كلمة في القرآن عن القراءة على أمي لا يقرأ دلالة على صدق نبوته، فلو كان هذا النبي ﷺ مدعياً يختار قرآنه ما اختار البدء بكلمة هو لا يحسنها، فكل مُدعٍ يبدأ بما هو من مواطن القوة عنده، ولا يمكن أن يبدأ بما لا يُعرف عنه مَعرفتهُ والاقتدار عليه، فلما جاء الوحي بكلمة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وهو لا يقرأ ثم تلاها على الناس وبلّغها لهم دلّ على أنه لا يختار ما يبلغه للناس وإنما يتلقّاه وحياً من الله ثم يبلغه كما تلقّاه، فكانت هذه مع أمية النبي ﷺ إحدى دلائل نبوته وأمارات صدقه.

بل إن هذا النبي الأمي الذي بعث في أمة أمية أتاها بكتاب يُقرأ فهو القرآن، ويكتب فهو الكتاب، وكانت آيات القرآن تذكره كتاباً وهو لا زال في طور التنزيل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾.

٣- ونرى كيف اختار ﷺ الشباب أصحاب المواهب والقدرات العلمية، ووجههم إلى تعلم اللغات قراءة وكتابة، ولذا تعلم زيد بن ثابت اللغة السُّريانية والعبرانية في نصف شهر لأنها معروفة في المدينة فسهل عليه تعلمها كتابة حيث كان يعلمها نطقاً.

٤- لا يعرف في تاريخ العرب كتاب قبل القرآن، فهو أول كتاب عرفه



العرب، وليس لهم كتب قبله، فما أعجب أن يكون أول كتاب عند هذه الأمة هو كتاب تلقته من نبي أمي! وما أعظم أن يكون أول كتاب في العربية هو كتاب الله المنزل على رسوله الأُمي!

٥- ثم إن من عادة من لا يحسن أمراً أن يتباعد عنه ويزدريه، وقديماً قيل: من جهل شيئاً عاداه، أما هذا النبي الأُمي فقد كان حفيّاً بالقراءة، ومن مظاهر ذلك كثرة الكتبة حوله من أصحابه حتى بلغ كُتَّاب النبي ﷺ نحواً من (٤٨) كاتباً[١]، وكان خلفاؤه الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وهم أقرب الناس إليه كلهم كتاباً.

وكان القرآن يُكتب بين يديه فور نزوله، فانتشرت الصحف والرقاع التي كتبت فيها آيات القرآن وسوره في أيدي الناس لتنقلهم من الأمية إلى القراءة والكتابة.

بل إن من اهتمامه بالقراءة والكتابة أن جعل فداء بعض الأسرى بعد معركة بدر أن يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة، ويكون هذا فداؤهم.

٦- وكان يوسع مساحة التعليم فيأمر بتعلم اللغات التي يخاطبها قراءة وكتابة، فعن زيد بن ثابت قال: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أَمَرَنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ قَالَ: «**إِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ**». فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ، فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ[٢].

إن الأمية كانت منقبة وكمالاً لنبينا ﷺ إلا أنه لم يجعلها منقبة لأحد

(١) «كُتَّاب النبي ﷺ». د. محمد مصطفى الأعظمي.

(٢) «جامع الترمذي» (٢٧١٥).

من أمته، بل هو الذي بدأ حملة محو الأمية، وتعليم القراءة والكتابة، واتسعت مساحة القراءة والكتابة في عهده وما بعده، فهو الأُمي الذي رفع الأمية عن أمته.

٧- بقي أن نتذكر أن ذاك النبي الأمي الذي بعث أميّاً ولحق بالرفيق الأعلى أميّاً، بقيت الأمة وأجيالها تتعاقب تكتب علمه، فكم من العلوم لدى أمة محمد ﷺ فقهاً وحديثاً وتفسيراً وأصولاً وعقيدة! وكم كُتبَ في هذه العلوم من كُتُبٍ وأُلِّف فيها من مؤلفات!

وقد كنتُ يوماً أحادث شيخي عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله عن كتب الحديث وكثرة ما ألّف فيه وفي علومه من كتب، ثم ما ألف في بقية علوم الشريعة فإذا به يلتفت إلي وعيناه تبرقان وهو يقول: وكل ذلك علم نبي أمي ما قرأ مكتوباً ولا كتب مقروءاً.

ومن أجمل ما قيل عن أُميَّة نبينا ﷺ: العالم يقرأ مَا كَتَبَهُ غَيْرُهُ، وَنبينا ﷺ أُمي عَلَّم النَّاسِ مَا يَكْتُبُون[١].

أَخـوكَ عيسى دَعا مَيتاً فَقـامَ لَـــهُ ... وَأَنتَ أَحيَيــتَ أَجيـالاً مِنَ الرِّمَم

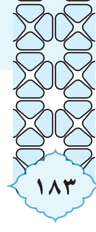
وَالجَهـلُ مَـوتٌ فَإِن أوتيتَ مُعجِزَةً ... فَابعَث مِنَ الجَهلِ أَو فَابعَث مِنَ الرَجَمِ[٢]

خلاصات:

١- الأمية صفة نقص إلا في نبينا ﷺ، فهي له صفة كمال لدلالتها على صدق نبوته.

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٦/ ٢٦٦).

(٢) «نهج البردة» لأحمد شوقي.



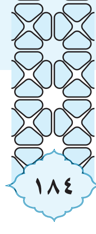
٢- مع أنه أُمي فإن أول كلمة أوحي بها إليه وإلى أمته: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾.

٣- هذا النبي الأمي أتى إلى الأمة بأول كتاب في تاريخها، فلا يعرف عند العرب كتاب قبل القرآن.

٤- هذا النبي الأمي هو الذي رفع الأمية عن أمته واستنفرها للتعلم.

٥- العالم يقرأ ما كتبه غيره، أما نبينا فأمي علم الناس ما يكتبون.





الرَّسُولُ ﷺ والدَّعوة

كانت حياته دعوة، ودعوته حياة.

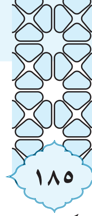
وكيف ستكون دعوة من تلقَّى الأمر بالدعوة من ربه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾؟!

والحديث عن دعوته هو الحديث عن حياته التي أوقفت على دعوته، ولذا فإنَّا نتجاوز التفصيل إلى الإجمال في نقاط تجمل الحال ولا تفصِّلها:

أولاً: أن الدعوة كانت استنفاراً كاملاً في حياته، فهو في كل أحواله وأوقاته لا يدع فرصة تسنح إلا ويجعلها تحمل رسالة من رسائل دعوته، حتى إنه لا يمكن فصل دعوته عن مناشط حياته كلها.

ولذا تراه داعية في مجلسه، وفي مسجده، وفي طريقه، وفي إقامته، وفي سفره وعلى طعامه، وعلى فراش مرضه، وفي آخر أنفاس حياته.

فعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عِبَادٍ الدِّيلِيِّ ـ وَكَانَ جَاهِلِياً أَسْلَمَ ـ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي المَجَازِ، يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا**». وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ، فَمَا رَأَيْتُ



أَحداً يقُولُ شَيْئاً، وَهُوَ لَا يَسْكُتُ، يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**». إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلاً أَحْوَلَ وَضِيءَ الوَجْهِ، ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ، كَاذِبٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، قُلْتُ: إِنَّكَ كُنْتَ يَوْمَئِذٍ صَغِيراً، قَالَ: لَا وَاللهِ إِنِّي يَوْمَئِذٍ لَأَعْقِلُ[١].

وجلس مع أصحابه على الطعام فرفعت إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة[٢] ثم قال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، ثم نَهسَ أخرى، فقال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فلما رأى أصحابه لا يسألونه قال: «**أَلَا تَقُولُونَ كَيْفَهْ؟**» قَالُوا: كَيْفَهْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «**يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ..**» ثم ساق حديث الشفاعة الطويل، وكان ذلك على مائدة الطعام[٣].

وكان في حجة الوداع يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ: «**سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**». قَالُوا وَمَا المُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتُ**»[٤]، فكان في طريقه سائراً وداعياً.

بل إن شدة المرض وآلامه وكربه ما كانت تنسيه أو تذهله عن دعوته، ففي مرض موته جعل يتغشَّاه الكرب وطَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى**

---

(١) «مسند أحمد» (١٦٠٢٣).

(٢) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٣٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٦٧٦).

اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». قالت عائشة: يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا[١].

وأنفاس الحياة وآخر لحظات العمر جعلها دعوة لأمته ووصاة لها، فكان همّ دعوته حاضراً في نفسه في هذه الساعة العصيبة المهولة، فما أوصى بمال ولا ولد، ولكن تذكَّر الدعوة والأمة فحشرجت روحه في صدره وأخذته بحَّة وهو ينادي: «**الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»[٢]. حتى ما يُبينُ بها، فكانت هذه آخر وصاياه وعهده لأمته ﷺ.

فمن كان يؤدي الدعوة في لحظات الكرب العصيبة هذه فكيف حاله في سعة وقته ويسر حاله؟!

ثانياً: نجد أن دعوته قد امتزجت بمشاعره وخلصت إلى وجدانه فمن أجلها يفرح ويحزن، ويأسف ويغتم، حتى إن ربه الذي أرسله يُعاتبه على ذلك فيقول: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا**﴾، أي: مهلك نفسك، ويقول: ﴿**فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ**﴾.

لقد كان يذيب حشاشة نفسه في دعوته حتى كادت أن تذهب حسرات على من لم يؤمنوا.

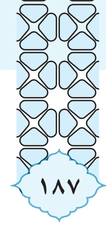
وكما كان يحزن لإعراض المعرضين كان يُسر ويفرح لإيمان المؤمنين، فجاء يعود غلاماً يهودياً كان يخدمه، فلما جلس إليه وجده مدنفاً قد شارف، فقال له: «**أَسْلِمْ**». فنظر الفتى إلى أبيه ضارعاً بنظراته إليه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم. فتشهَّد شهادة الحق ثم قضى، فخرج النبي ﷺ مسروراً بإسلامه وهو يقول: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٥٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).

(٢) «مسند أحمد» (٢٦٤٨٣).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).



وماذا كان النبي ﷺ يستفيد من غلام أسلم ثم مات؟! فلن يقوم له بعمل، ولن يؤدي إليه صدقة، ولن يقاتل معه في معركة، ولكن فرحه إنما كان بالهداية أن تشع في قلب يؤمن بها فينقذه الله به من النار.

وعندما جاء مسلمة الفتح جلس لهم يستقبل وفودهم يعرف السرور في وجهه وأطفأ فرحه بهدايتهم ما سبق من عداوتهم.

ثالثاً: كانت دعوته لأمته واستنقاذهم بالهداية هو الهدف الأكبر الذي يقود جميع الأهداف، ولذا فلا يمكن أن تحرفه الأهداف الصغيرة أو المؤقتة عن هدفه الكبير هذا.

ذهب الطفيل بن عمرو الدوسي إلى قومه يدعوهم فاستعصوا عليه، فعاد إلى النبي ﷺ حانقاً عليهم يقول: يا رسول الله إن دوساً كفرت فادع الله عليهم. فقال ﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ دَوْساً وَائْتِ بِهِمْ**»[(١)].

لقد جاء هذا النبي رحمة ولم يأت عذاباً ولا نقمة.

ولما قيل له: يا رسول الله ادع على المشركين، قال: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»[(٢)].

بل كان يستدفع عن أمته العذاب ويستأني بهم لعل الهداية أن تدركهم أو تدرك أبناءهم.

رجع ﷺ من الطائف مكروباً مغموماً حيث جاء يعرض عليهم دعوته، وطاولهم قرابة نصف شهر يغشى أسواقهم ومجالسهم، ويقابل زعماءهم وكبراءهم، فأعرضوا عنه وردوا عليه أقبح الرد، فرجع آسفاً مغموماً قد

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٩٩).

شق عليه إعراضهم، وشق عليه شماتة قريش به إذا رجع إليهم، فوصل إلى قرن الثعالب وهو يبعد عن الطائف قرابة (٥٠ كم)، ولم يشعر بنفسه لشدة استغراقه في الغم، وكان دعاؤه في طريقه: «**اللَّهمّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي**»[١].

فلما أفاق من غيبوبته إذا بالسماء وقد فتحت أبوابها وتنزَّلت عليه أملاكها وخاطبه جبرائيل قائلاً: «**إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ**». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[٢].

إن شهوة الانتقام من أشد الشهوات وأكثرها ضراوة، ولكنها تتضاءل أمام رغبة النبي ﷺ في الهداية، وأمله الطويل مع قومه حتى لو لم يؤمنوا هم فإن أمله يمتد إلى ذريَّاتهم وأجيالهم القادمة، وقد أقرَّ الله عينه بعد صبره واحتماله؛ فرأى عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية بن خلف، وخالد ابن الوليد بن المغيرة، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وأم كلثوم بنت عقبة ابن أبي مُعَيْط.. وكل هؤلاء صحابة مرضيون وكان آباؤهم من رؤساء الكفر وأعداء الرسالة.

وبعد معركة أُحد ورسول الله يعاني ثكله بمن قتل من أصحابه، ويعاني

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٢٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

جراحاته التي أصابته حيث شج رأسه، وكسرت رَباعيته[١]، ونزف الدم على وجهه، فجعل يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟!**». ثم خاف أن يعاجلوا بالعقوبة فقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[٢]. فانظر إلى هذا التلطُّف في استدفاع العذاب عنهم حيث لم يكتف بالعفو عنهم، ولكن سأل الله المغفرة لهم حتى لا يُعاجلوا بالعقوبة، وشفع لهم بأن أضافهم إلى نفسه فلم يقل: اللهم اغفر لهم، وإنما قال: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي**». ثم اعتذر لهم فقال: «**فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**».

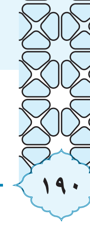
فأيّ نفس تستطيع أن تتجرَّد عن ردات فعلها وانفعالاتها بمن هم الآن في حال حرب وعداء معه؟ ولكن النبي ﷺ خرج من حظ نفسه وبقي متعلقاً بدعوته متوجها بها ولها.

وأجاب الله دعوة نبيه، فبعد عشر سنين من معركة أُحد كان قواد جيش المشركين الثلاثة: أبو سفيان، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل؛ يقاتلون جيش الروم في معركة اليرموك، فبعد أن كانوا يقاتلون رسول الله صاروا جنداً لدينه يقاتلون في سبيله.

رابعاً: استخدم ﷺ كل الوسائل المتاحة في وقته، فنادى على الصفا، ونادى في الأسواق والمواسم، وخطب ووعظ، وسافر وهاجر، وحاور وناظر، وأرسل الرسل، وابتعث الدعاة، واتخذ الشعراء والخطباء، وكاتب

(١) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلْإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٧٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٢).



الملوك والأمراء، وتألَّف رؤساء القبائل وكبرائها، واستخدم كل الطرق الممكنة، واستعمل كل الوسائل المتيسرة، وتنوعت هذه الوسائل بما يناسب حال المدعو وظرف الزمان والمكان.

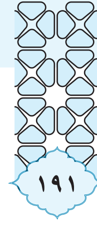
خامساً: كان يبدأ دعوته بالأهم من القضايا فيتدرج فيها إلى ما بعدها، فيبدأ بأصل الأصول وهو عبادة الله وتوحيده كما في وصاته لمعاذ حين أرسله إلى اليمن فقال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»(١).

وكما في رسالته إلى هرقل عظيم الروم وفيها: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ، فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ وَ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**»(٢).

سادساً: أن الدعوة كانت استنفاراً جماعيّاً يبث النبي ﷺ في أصحابه مسؤولية الدعوة التي يقوم بها، ويُشعرهم أنهم مبعوثون بما بُعث به ﷺ.

(١) «صحيح البخاري» (١٤٥٨)، و«صحيح مسلم» (١٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).



فقال في خطبته في حجة الوداع: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[١]، وقال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[٢].

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ وهو في المسجد فتنحَّى مكاناً غير بعيد في ناحية المسجد وجلس يبول، فنهره الصحابة وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ**[٣] **دَعُوهُ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[٤]. فانظر إلى قوله: «**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ**». فأسند البعث إليهم؛ ليُشعرهم بأنهم يتحمَّلون بلاغ ما بلغهم والدعوة إلى ما دعاهم، كما دعاهم هو برفق وعلَّمهم بيسر.

وقد فقه أصحابه ذلك وتشبَّعوا بهذه القناعة وعبروا بذات التعبير الذي لقَّنهم إياه، فعندما سأل يزدجرد قائد الفرس ربعي بن عامر قبل معركة القادسية قائلاً: ما جاء بكم؟ قال له: إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

انظر إلى قول النبي ﷺ «**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ**». وقول ربعي: إن الله ابتعثنا؛ لتعلم أن الرسالة قد وصلت إليهم بوضوح وأنهم تحمَّلوها بقوة.

وعندما سار ﷺ بأصحابه إلى خيبر لفتحها، وهي حصون يهود وقلاعهم التي يكيدون منها ويحتمون بها، وهي خزائن ثرواتهم الطائلة،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٦١).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٤٧)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣٠).

(٣) لا تُزْرِموه: من الإزرام، أي لا تقطعوا عليه بوله، يقال: زرم البول إذا انقطع. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٤٦٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٢٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥).

وغابات ثمارهم الوافرة، فلم تكن قناطير الذهب ولا أحمال الثمار هي ما يغريه، ولا هي مطمعه ومطمع أصحابه، ولكن كان ما يهمه ويوصي به ويحرص عليه هو هدايتهم، ولم يحمله سابق عداوتهم، وتتابع مكائدهم على اليأس من هدايتهم، فأعطى الراية علي بن أبي طالب وقال له: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»[١].

وبهذا كان همّ الدعوة ومسؤوليتها يغرس بعمق في نفوس الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ولذا فإنهم ما إن نفضوا أيديهم من تراب قبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتى ساحوا في الأرض يُبلِّغون رسالات الله، وينشرون دينه وهداه، وإذا الصحابة الذين كان يجمعهم مسجد في المدينة النبوية تتناثر قبورهم بين القارات الثلاث، وتتفرق مضاجعهم في فجاج الأرض ونواحيها المتباعدة، ومات كل منهم في صقع من الأرض إما شهيداً في معركة أو داعية ومعلِّماً يستنقذ أمة هالكة، ولا زالت السرج التي أشعلوها في نواحي الدنيا ساطعة مضيئة، تتوارث الأجيال أنوارها ونعيم هداها.

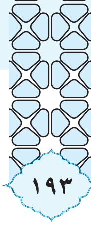
خلاصات:

١- كانت حياته دعوة، ودعوته حياة.

٢- كانت الدعوة مستغرقة أوقاته وأحواله فلا يمكن فصلها عن أي منحى من مناحي حياته.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).

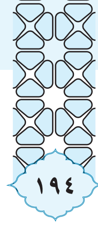


٣- امتزجت دعوته بمشاعره فلها يفرح ويحزن ويتألم، حتى كادت نفسه أن تذهب حسرات على من لم يؤمنوا.

٤- كان هدف الدعوة هو الهدف الذي يقود بقية الأهداف فلا تحرفه عنه الأهداف الصغيرة والعارضة.

٥- جعل ﷺ الدعوة استنفاراً جماعيّاً، فقد قذف همَّ الدعوة في قلوب أصحابه، وحملهم مسؤولية بلاغ ما بلَّغه، والدعوة لما دعا إليه.





الرَّسُولُ ﷺ خَطِيباً

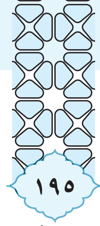
كانت الخطبة ولا زالت من أقوى وسائل التواصل، وأعظم وسائل التأثير، فهي تجمع العديد من المؤثرات كبلاغة الخطيب، وانفعاله، ولغة جسده، ويجتمع فيها التأثير السمعي والبصري والوجداني، فاشتهر الخطباء الفصحاء، وحفظت الخطب البليغة المؤثرة، وكانت خطب النبي ﷺ تجمع هذه الميزات مع صدق اللهجة وحرارة الانفعال، وقوة التأثير مع وجازة الخطاب.

قام ﷺ يوماً خطيباً فجعل يقول في خطبته: «**أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ**». حتى علا صوته، فسمعه من في السوق، وحتى سقطت بردة كانت على عاتقه عند رجليه[١].

إن هذا المشهد في مقام النبي ﷺ ذلك يبين مدى الانفعال والتفاعل منه ﷺ في خطبه مع ما يقول، وهذا الانفعال دليل من دلائل النبوة، فإنه يبين تشبعه بما يقول، وعظيم يقينه به، حتى يظهر منه هذا التأثر والانفعال.

وقد لاحظ الصحابة هذا التأثر منه في خُطَبِهِ فوصفوه بأنه كان إذا خطب

(١) «مسند أحمد» (١٨٣٩٨).



علا صوته واحمرتا عيناه واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»[١].

وكما يدل هذا على يقين النبي ﷺ بما يقول، فإنه يدل على خطر الأمر الذي يتكلم فيه، حتى تأثر هذا التأثر وانفعل هذا الانفعال.

وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندي وللقلوب بكاء

١- لقد كان حال النبي ﷺ وهو يخطب حال المستنقذ الذي يريد انقاذ الناس من هلكة يخشى أن يقتحموها، ولذا كانت نذارته بهذا التأثر والحرقة حتى كأنه منذر جيش يصيح بقومه قبل أن يصبحهم عدوهم، وهكذا وصف أصحابه حاله تلك وهو يخطب: كأنه منذر جيش يقول: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**».

لقد كان ﷺ يذيب نفسه مع أنفاسه وهو يخطب فتخرج كلماته وفيها صدق اللهجة، وحرارة العاطفة، وشدة التأثر والانفعال، خطب في منى فكان يتطاول ليسمع الناس ويقول: «**أَلَا تَسْمَعُونَ؟**»[٢]. يطول بها صوته وينادي: «**يَا أُمَتَاه هَلْ بَلَّغْتُكُم؟**». حتى قال صبي في الموقف لأمه: يا أمه ما له يدعو أمه؟ فقالت: يا بني إنه لا يدعو أمه، إنما يعني أمته[٣].

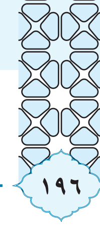
إنك تستشعر في هذا النداء لوعة المشفق، ونداء المستنقذ حتى تأثر هذا الصبي وهو يسمع نداءه، فكيف بتأثر الذين عقلوا كلامه ووعوه، وأحست قلوبهم حرارة النداء، ولهفة المناشدة؟!

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٦٧).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٢٥٨).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٥٣٨).



وقال أنس: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**». فغطَّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين من البكاء[١].

إن رسول الله ﷺ أخبرهم أنه يعلم ما لا يعلمون ولم يفصل لهم ما يعلم ولكن انفعاله وتأثره كأنما هو تفصيل وبيان لهذا الأمر المهول الذي يحذرهم منه، ولذا أثر بهم هذا التأثير حتى غطوا رؤوسهم ولهم نحيب بالبكاء.

إن صدق اللهجة، وشدة التأثر والانفعال تنتقل إلى المستمع حتى كأنما يرى ما يسمع ويعيشه بوجدانه وأحاسيس قلبه، وهكذا كان الصحابة وهم يسمعون خطب النبي ﷺ المتأثرة المؤثرة.

٢- وكان من أعظم ما يميز خطب النبي ﷺ أن لها رصيداً مشهوداً مشهوراً من واقع حاله، فإذا تكلم بأمر فإن فعله قد سبق قوله، وكانت طلائع الصدق تشرق من محياه الكريم، وحالهُ الشريفةُ تُصدِّقُ ما يقول وتؤكده، فعندما خطب على الصفا وناشد قريشاً قائلاً: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**». قالوا جميعاً: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا[٢].

وعندما قدم المدينة جاءه عبد الله بن سلام فوجده يخطب الناس قال عبد الله بن سلام: «**لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ**»[٣].

ولما وقف في حجة الوداع يخطب يوم عرفة يضع للناس معالم استئناف

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٦٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).

(٣) «سنن ابن ماجه» (١٣٣٤).

الحياة بعد الجاهلية قال: «**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ ابْنِ الحَارِثِ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ**»[(١)].

فلا يأمر بخير إلا وقد تمثل فيه، ولا ينهى عن سوء إلا وهو أبعد الناس عنه، لقد كانت حاله تتحدث قبل مقاله، ولذا كان لكلامه وقعه على القلوب وتأثيره في النفوس.

٣- وكان إذا خطب أقبل على الناس بوجهه وأقبلوا عليه بوجوههم وذلك لأهمية التواصل البصري بين الخطيب والحضور عنده، حتى تصل رسالته محفوفة بانفعالاتها وطرائق التعبير عنها، ولذا رمق الصحابة احمرار عينيه، وحركة أصبعه المسبحة يدعو بها، وإشارته بإصبعيه السبابة والوسطى وهو يقول: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»[(٢)].

ولأهمية التواصل البصري كان ﷺ يبرز للناس ويعلو لهم حتى يروه جميعاً؛ ولذا خطب على الصفا[(٣)]، وخطب على الناقة في عرفة[(٤)]، وخطب على البغلة في منى[(٥)]، ولما كثر الناس في مسجده اتخذ المنبر بثلاث درجات[(٦)]، حتى يبرز لمن بعد عنه.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٩٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥١).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (١٥٧٣).

(٥) «سنن أبي داود» (١٩٥٤).

(٦) «صحيح البخاري» (٤٩٣٦)، و«صحيح مسلم» (٥٤٤).

بل إنه عندما خطب يوم عرفة على ناقته القصواء أمكن قدميه في الغرز[١] واعتمد بإحدى يديه على مقدم الرحل وبالأخرى على مؤخرته يتطاول بذلك للناس حتى يشرف لهم جميعاً[٢].

إن في حال الخطيب أثناء الخطبة مزيد بيان مع بيان كلامه يوضح مقصده، ويبلغ رسالته، ولذا كان ﷺ يشرف للناس على ما يرفعه إليهم كراحلته ومنبره ليتم هذا التواصل بينه وبين أصحابه حال خطبته.

٤- وكانت خطبه نوعان: راتبة كخطبة الجمعة والعيدين، وعارضة لسبب عارض يدعو إليها، كخطبة الكسوف، وخطبته حين قدم عليه وفد مضر فرأى ما بهم من الفاقة والحاجة فخطب الناس كما في حديث جَرِيرِ ابْنِ عَبْدِ الله البَجَلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَهُ نَاسٌ مِنْ الأَعْرَابِ حُفَاةٌ عُرَاةٌ، مُجْتَابِي النِّمَارِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنْ الفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ صَعِدَ مِنْبَراً صَغِيراً، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾**. وَقَالَ: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**». ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُعْطِكَ**

---

(١) الغرز: هو موضع قدم الراكب على الجمل، كالركاب للفرس. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٥٩).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٢٥٨).

مَالاً وَوَلَداً؟ وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَيَقُولُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وَبَصَراً؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ، وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَجِدُ شَيْئاً يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ثُمَّ يَنْظُرُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ». ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ». ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ». ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ». حَتَّى قَالَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[(١)].

وخطبته حين جاء ابن اللتبية بالصدقات فقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي، فقامَ النَّبيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ فَحمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَجِيءُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أُمِّهِ أَوْ أَبِيهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟ لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِنْ كَانَ بَعِيراً فَلَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً فَلَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ». ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبطَيْهِ[(٢)]، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟»[(٣)].

وهذه الخطب هي التي يتفاعل فيها النبي ﷺ مع الحوادث، ويعلق فيها على الأحداث فتقع الخطبة مرتبطة بالحدث الذي يوضحها ويعمق أثرها مثل سبب النزول للآية، مثل خطبته عندما شفع أسامة في المرأة المخزومية، فخطب فقال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟». ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ،

---

(١) «صحيح مسلم» (١٠١٧).

(٢) عُفْرَةَ إِبطَيْهِ: أي بياض إبطيه. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٦١).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٥٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٨٣٢).

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[(١)].

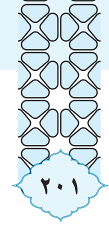
وربما كانت خطبه العارضة موعظة يذكرهم فيها، وهذه مما كان ﷺ يتخولهم فيه ولا يكثر عليهم كما قال ابن مسعود: يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا[(٢)].

٥- وكان من عادته إذا خطب أن يعتمد على عصا[(٣)] أو قوس[(٤)]، وكان يخطب في مسجده إلى جذع يعتمد عليه قبل أن يتخذ المنبر[(٥)]، وبعد اتخاذ المنبر صار يعتمد إذا جلس على رمانة المنبر الشرقية وتسمى: الصلعاء.

واعتماد الخطيب على قوس أو عصا عادة عربية جرى فيها النبي ﷺ على عادة قومه[(٦)]، كما كان من عادته أن يحمل في يده عصا أو عسيب نخل يتوكأ عليه إذا مشى[(٧)] على عادة العرب في ذلك، ولذا فإن حمل العصا في الخطبة من سنن العادة لا العبادة[(٨)].

٦- وكان ﷺ يتجمَّل في لباسه لخطبة الجمعة، فعن عبد الله مولى أسماء قال: أخرجت إليَّ أسماء رضي الله عنها جبة من طيالسة كسروانية لها لبنة

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٧٥)، و«صحيح مسلم» (١٦٨٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢١).
(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٥٤٠٠).
(٤) «مصنف عبد الرزاق» (٥٣٣٠).
(٥) «صحيح البخاري» (٩١٨).
(٦) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٨٠)، و«تاريخ الأدب العربي» لشوقي ضيف (٤١٦).
(٧) «صحيح البخاري» (٤٧٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٤).
(٨) ينظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢/ ٢٠).



ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج فقالت: هذه جبة رسول الله ﷺ كان يلبسها للوفود ويوم الجمعة.

ولما رأى عمر رضي الله عنه حلة حرير تباع عند باب المسجد أخذها فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها للعيد وللوفود إذا قدموا عليك ولبستها يوم الجمعة[١]، فَعَرْضُ عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ أن يشتري هذه الحلة الجميلة ليلبسها يوم الجمعة لما علم من حاله في التجمل ليوم الجمعة.

والتجمل من الخطيب لخطبة الجمعة تعظيم للشعيرة، واحترام للحاضرين بأن يظهر أمامهم على هيئة حسنة جميلة تليق بالموقف الذي يقفه أمامهم.

٧- كان ﷺ إذا خطب بدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم يتشهد الشهادتين بعد الحمد والثناء، وكان يقول: «**كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُّدٌ فَهِيَ كَاليَدِ الجَذْمَاءِ**»[٢].

وكان كثيراً ما يخطب بآيات القرآن، وسوره الواعظة، قال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ يخطب قائماً[٣]... ويقرأ آيات من القرآن ويذكُر الله، وقالت أم هشام بنت الحارث بن النعمان: ما أخذت «**ق وَالقُرْآنِ المَجِيدِ**» إلا من في رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس[٤].

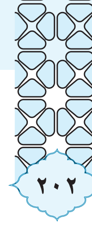
وذلك لما في سورة «**ق**» من المواعظ والتذكير بالموت والبعث وأحوال الآخرة.

(١) «مسند أحمد» (٦٤٥٠).

(٢) «مسند أحمد» (٨٠١٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٦٢).

(٤) «صحيح مسلم» (٨٧٣).



٨ – وكانت خطبه في الجمعة مواعظ يؤكد فيها على قضايا الدين الكبرى، وتقرير أصول الإيمان، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما توعد به أعداءه وأهل معصيته.

فيملأ القلوب إيماناً بالله وتعظيماً وإجلالاً له، ومهابة للقائه والمنقلب إليه، حتى كأنما الجنة والنار رأي عين، فتوجل القلوب وتذرف العيون، حتى يُكب الصحابة رؤوسهم ولهم خنين من البكاء.

ولعل هذا هو ما يفسر عدم نقل خطب الجمعة التي خطبها النبي ﷺ في المدينة مع أنها نحو من خمسمئة خطبة، وذلك لأنها مواعظ عامة تؤكد على قضايا كبرى تكررت مضامينها في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

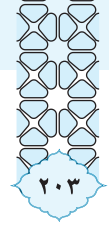
ويوضِّح ذلك حديث العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[١].

فنلاحظ أن العرباض بن سارية ذكر الموعظة وبلاغتها وأثرها، ولكن لم يذكرها وإنما ذكر الوصاة بعدها، وذلك لأنها وعظ بالتذكير بما هو مذكور في غيرها من الآيات والأحاديث.

بينما نقل الوصاة بعدها لأن فيها معنى خاصاً، وحُكماً وتوجيهاً مفصلاً.

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٦٠٧).



٩- وكان ﷺ يوجز الخطبة ويختصرها ولا يطيلها كما قال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هن كلمات يسيرات وكان يقول: «**إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْراً**»[(١)].

١٠- وكانت خطبه تجمع بين الإقناع العقلي، والتأثير الوجداني، وتصوير المعاني والمشاهد، فكانت تزيد الإيمان وتقوي اليقين حتى كأن الآخرة رأي عين، ومن ذلك خطبته حين كسفت الشمس كما في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرْكَباً فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الحَرِّ، فَانْكَسَفَتْ الشَّمْسُ فخرج فصلى بالناس فَفَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَقَدْ انْجَلَتْ الشَّمْسُ فَقَعَدَ عَلَى المِنْبَرِ فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَان مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا كَذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى المَسَاجِدِ**». وفي رواية: «**فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ**». وفي رواية: «**فَادْعُوا اللهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا حَتَّى يَنْجَلِيَا**». ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، أَظَلَّتْكُمْ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئاً فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ فَقَالَ ﷺ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ، فَعُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُوداً حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أَتَقَدَّمُ فَقَصُرَتْ يَدِي عَنْهُ وَلَوْ أَصَبْتُهُ**

(١) «صحيح مسلم» (٨٦٩).

لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ جَهَنَّمُ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ حَتَّى لَقَدْ جَعَلْتُ أَتَّقِيهَا مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ». قَالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ». قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِالله؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ يَجُرُّ قُصْبَهُ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً فَهِيَ إِذَا أَقْبَلَتْ تَنْهَشُهَا، وَإِذَا أَدْبَرَتْ تَنْهَشُهَا، وَرَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ المِحْجَنِ مُتَّكِئاً عَلَى مِحْجَنِهِ فِي النَّارِ، يَقُولُ: أَنَا سَارِقُ المِحْجَنِ وَكَانَ يَسْرِقُ الحَجِيجَ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: لَسْتُ أَنَا أَسْرِقُكُمْ، إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ وَالَّذِي سَرَقَ بَدَنَتَيْ رَسُولِ الله ﷺ فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ قَرِيباً مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ يُؤْتَى أَحَدُكُمْ فَيُقَالُ لَهُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَالهُدَى، فَأَجَبْنَا، وَآمَنَّا، وَاتَّبَعْنَا ثَلَاثَ مِرَارٍ فَيُقَالُ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ إِنَّكَ لَتُؤْمِنُ بِهِ، فَنَمْ صَالِحاً، وَأَمَّا المُنَافِقُ أَوْ المُرْتَابُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئاً فَقُلْتُهُ فَاسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، فَإِنَّ عَذَابَ القَبْرِ حَقٌّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ المَوْتَى لَيُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ عَذَاباً تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ كُلُّهَا». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ[١].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٦٦)، و«صحيح مسلم» (٥٨٦).

١١- وربما جمعت خطبته على وجازتها أحكاماً كثيرة، وأموراً متعددة خصوصاً خطبه في المجامع العامة كخطبته في عرفة، وخطبته يوم النحر، فإنه ذكر فيها أحكاماً ووصايا كثيرة، وذلك أنه قد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً، فيذكر كل هذه الوصايا بأبلغ عبارة وأوجزها، ويتفرق الناس وقد حفظ كل منهم ما وعاه وكان الأهم عنده، فجميعها مجموع في رواياتهم، وإن لم يجمعها راو واحد منهم.

١٢- ومع إقباله على خطبته، وإقبال الناس عليه فيها إلا أنه لم يكن صارماً في خطبته إلى حد الزماتة والوقار الشديد المتكلف، ولم تكن مهابته تمنع أحداً أن يكلمه وهو يخطب، ولم يكن وقاره يمنعه أن يكلم أحداً وهو يخطب، أو يقطع خطبته لعارض يعرض له ثم يرجع فيتمها، فقد كان ﷺ يخطب يوم الجمعة فجاء سُلَيْك الغَطَفاني وهو يخطب فجلس فقال له: «**يَا سُلَيْكُ قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا**»(١).

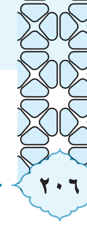
وكان يخطب يوماً على المنبر فدخل الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل ﷺ فأخذهما فصعد بهما المنبر ثم قال: «**صدق الله؛ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**»(٢). ثم أخذ في خطبته فأتمها.

وكان ﷺ يخطب مرة يوم الجمعة فدخل أعرابي فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال وجاع العيال وانقطعت السبل فادع الله تعالى أن يسقينا.

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٧٥).

(٢) «سنن أبي داود» (١١٠٩).



وبأبي وأمي رسول الله ﷺ وهو يسمع هذا الأعرابي الذي لم يجلس فيستمع ثم يكلم النبي ﷺ بعد أن ينهي خطبته وصلاته، وإنما بادر بحاجته وقطع على النبي ﷺ خطبته، فما أغضب ذلك النبي ﷺ ولا أحفظه وإنما بادر بالاستجابة لهذا الأعرابي، واستشعر حاجته التي ألجأته لذلك، ورفع يديه يدعو ويستغيث حتى نزل المطر قبل أن ينزل هو عن منبره ﷺ(١).

ودخل تَمِيم بن أَسَد المسجد ورسول الله ﷺ يخطب فتوجه إليه وقال: يا رسول الله رجل غريب يسأل عن دينه ولا يدري ما دينه، فأقبل عليه رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليه، فأُتي بكرسي قوائمه من حديد فقعد عليه وجعل يعلمه مما علمه الله فلما فرغ أتى خطبته فأتم آخرها(٢).

إن أشق شيء على الخطيب أن يقاطعه أحداً أو يقطع عليه خطبته، ولكن نبينا ﷺ يتلقى هذا السائل الغريب بهذا الاهتمام والحفاوة، فيقطع الخطبة ويأتي هو إليه ولم يستدعه نحوه، ثم يجلس على كرسي حتى يسمع الناس حوله حوارهما فيتعلموا جميعاً، فيستمع إليه ويعلمه حتى إذا فرغ عاد إلى خطبته فأتمها.

إنه مشهد من مشاهد عظمة خلقه ﷺ وعظيم رأفته ورحمته بالمؤمنين.

وكان ﷺ يخطب الناس في منى في أوسط أيام التشريق على بغلة شهباء وعلي رضي الله عنه قائم يبلغ الناس عنه، والناس حوله بين جالس وقائم قال رافع بن عمرو المزني وكان حينها غلاماً صغيراً: فأقبلت أنا وأبي

(١) «صحيح البخاري» (١٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٨٩٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٧٦).

فجلس أبي مع الناس، وتخللت الركاب حتى أتيت البغلة فأخذت بركابها ووضعت يدي على ركبته فمسحت الساق حتى بلغت بها القدم ثم أدخلت كفي بين النعل والقدم فيخيل إلي الساعة أني أجد برد قدمه على كفي[١].

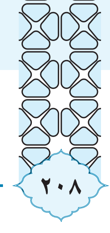
ولئن عجب رافع من برد قدم النبي ﷺ فإننا لنعجب من تلك النفس الرضية حيث يمضي النبي ﷺ في خطبته ويدٌ صغيرة تشاغله بالمسح على ساقه والعبث بما بين قدمه ونعله، ولم يستفزه ذلك فينهر الصبي أو ينظر إليه شزراً أو ينادي أباه ليبعده عنه، وإنما ترك الصبي وشأنه وأقبل هو على خطبته فهي همه وشأنه.

وإني لأحسب الناس حول النبي ﷺ منصتين بآذانهم إلى بليغ قوله، ومُشْرَئِبِّينَ بأبصارهم إلى جميل فعله.

لقد كان تعامل النبي ﷺ مع الصبي في مقامه ذلك خطبة أخرى مع خطبته التي يلقيها تحكي للناس كيف يكون حسن التعامل، وكيف تكون عظمة الخلق.

إن هذا يبين أن هذا النبي الكريم لم يكن يخطب كما يخطب الجبارون والمتكبرون، والذين يهمهم الحفاظ على رسومهم ومراسم هيبتهم، لكنه كان يخطب داعياً وهادياً، حتى في هذا المقام يَظْهر حسن تعامله وتواضعه، ولين جانبه واستيعابه لحاجات الناس، وتفهمه لظروفهم وطبائعهم، ولذا يقطع الخطبة لعثرات صبي جاء يمشي إليه، ولغريب جاء يسأله، ولمجهود جاء يطلب دعاءه.. فيسعهم جميعا خلقه وبره، بل إنه ﷺ كان يخطب أصحابه يوم جمعة فجاءت قافلة من الشام تحمل طعاماً فانفض الناس إليها

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٤٥٨).



حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً: فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾(١).

ومع ذلك لم ينقل أن النبي ﷺ عاتبهم أو لامهم أو دعا أحداً منهم فساءله أو وبخه، وإنما اكتفى بالعتاب القرآني اللطيف: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

إنه ﷺ الداعية الذي يحمل في قلبه محبة الخلق، والرحمة بهم، والحرص على هدايتهم، وتفهّم ما يعرض للنفوس البشرية من ضعف ونقص يُسدَّد بالتربية الحكيمة والتوجيه الهادي الرفيق.

لقد كان ﷺ يذيب نفسه في كلماته إذا تكلم لشدة تأثره بما يقول، ولذا وقعت خطبه من القلوب موقعها، وأثرت أثرها، وتنزلت كلمات خطبه على النفوس غيثا أحياها فاهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج.

خلاصات:

١- كان ﷺ يتفاعل مع خطبته ويتأثر عند إلقائها.

٢- كانت أفعال النبي ﷺ تسبق أقواله، فلكل ما يقوله رصيده العملي من سيرته.

٣- كان إذا خطب أقبل على الناس بوجهه، وتواصل ببصره معهم، وإذا كان الجمع كثيراً أشرف عليهم.

٤- كان إذا خطب اعتمد على قوس أو عصا على عادة العرب في خطبهم.

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٩٩)، و«صحيح مسلم» (٨٦٣).

٥- كان يتجمَّل في لباسه لخطبة الجمعة، تعظيماً للشعيرة، واحتفاء بالحاضرين.

٦- كان ﷺ يبدأ خطبه بحمد الله والثناء عليه، والشهادتين.

٧- كانت خطب الجمعة مواعظ عامة يؤكد فيها على قضايا الدين الكلية، وما أعد الله لمن أطاعه، وما توعد به من كفر به.

٨- لم تنقل لنا خطب الجمعة التي خطبها النبي ﷺ لأنها مواعظ تؤكد على قضايا تكررت مضامينها في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

٩- كان ﷺ يوجز الخطبة ويختصرها، ويأمر بإيجازها.

١٠- كانت خطبته على وجازتها تجمع أحكاماً كثيرة وأموراً متعددة.

١١- لم يكن صارماً في خطبته إلى حد الزماتة، ولذا كان يقطع خطبته ليكلم أحداً، أو ليستمع إلى من يكلمه، أو يستجيب لمن يدعوه.



الرَّسُولُ ﷺ وأُمَّتُه

جعل الله هذا النبي الكريم منته العظمى على عباده أن بعثه فيهم، وأرسله إليهم؛ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وإذا نظرنا إلى حال هذا النبي مع أمته علمنا عظيم منة الله به علينا.

لقد وصفه ربه الذي اختاره وأرسله فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فكانت أمة النبي ﷺ حاضرة في وجدانه، فحرصُه عليها أشد الحرص، وشفقتُه عليها أعظم الشفقة، وتتجلى مكانة الأمة في وجدان نبيها ﷺ في معالم منها:

أولاً: شدة اهتمامه بها وحرصه عليها، حتى إن ربه الذي أرسله يعاتبه على تحسره عليهم، وأسفه الذي يكاد أن يذهب بنفسه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، و﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلك نفسك.

إن النبي ﷺ لم يكن يدعوهم ليقيم الحجة عليهم فقط، ولكن يدعوهم بمشاعره وعواطفه مستنقذاً لهم أن يفلتوا منه فيقعوا في النار، وهو ما بيَّنه ﷺ بقوله: «**مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً، فَجَعَلَ الجَنَادِبُ وَالفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي**»[(١)].

ولذا كان فرحُه عظيما بنجاة من آمن به، وأسفُه وحُزنه شديداً على من ضل وأعرض عنه.

ثانياً: كان ﷺ يحمل همّ الأجيال القادمة حرصاً عليهم وشوقاً إليهم، فعندما عرض عليه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين[(٢)] فيدفنهم تحت أحجارها فقال له: «**إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟**». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أَستأني بِهِم لَعَلَّ الله يُخْرِجَ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[(٣)].

لقد كان حرصه وأمله يمتد إلى الأجيال القادمة أن يهديها الله به فيستنقذها من الهلكة، وإن كان الآباء في حال عداءٍ ولجاجة.

وعندما وقف بالبقيع يدعو لمن مات من أصحابه قال: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**». فَقال أصحابه: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»[(٤)].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٢٨٥).

(٢) الأخشبان: جبلا مكة اللذان يكتنفانها جبل أبي قبيس وعليه الصفا، وجبل قعيقعان وعليه المروة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٤٩).

لقد كانت أجيال الأمة حاضرة في وجدانه حتى كانت أشواقه إليهم تسابق وجودهم في هذه الحياة، فكان يتمنى رؤيتهم واللقاء بهم ﷺ.

ثالثاً: من شفقته على أجيال أمته القادمة تحذيرهم من الفتن والاختلاف الذي سيواجههم، والعهد إليهم وتوصيتهم باتخاذ الموقف الصحيح من كل فتنة، والحذر من أسباب الضلال والهلكة.

ولذا فصل لهم الأحوال والتغيرات التي ستواجههم وأوصاهم بالموقف الرشيد أمامها، فلا تكاد تقع بوادر فتنة حادثة إلا استشعرنا أنه ﷺ قائم على رؤوسنا يناشدنا: إياكم إياكم، أما ذكرتكم، أما حذرتكم؟

وكان يقدم وصاياه المستقبلية بلهفة ولوعة تستشعر فيها حرارة اللهف ورقة الإشفاق؛ فعن العرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ**»[(١)].

وأخبر أمته أن الدنيا ستفتح عليهم، وسيكثر المال في أيديهم فأوصاهم بتجنب الآثار الضارة لذلك كالتنافس فيها والشح بها والخلاف بسببها، فقال: «**فَوَالله مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[(٢)].

وحذر من فتن آخر الزمان، وما سيقع منها في الغيب البعيد، ومن ذلك:

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٤٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٦١).

لما ذكر خروج الدجال فصَّل فيه وخفض ورفع حتى ظن الناس أنه قد وصلهم من أطراف المدينة عند نخيلها، فلما اجتمعوا عليه عرف الفزع في نفوسهم فقال: «**مَا شَأْنُكُمْ؟**»، فقالوا: يا رسول الله، ذكرت الدجال من الغداة فخفضت فيه، ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال ﷺ: «**غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ؛ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»(١)، ثم فصّل لهم من ذكر أوصافه وأحواله حتى كأنما ينظرون إليه الساعة.

رابعاً: محبته كثرة أمته وتفاخره بهم، فقال: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٢).

وعندما عُرضت عليه الأمم في المنام تشوق أن تكون أمته أكثرها عدداً فقال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ الفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ**»(٣).

ولمحبته كثرة أمته وحرصه على ذلك، ومكاثرته بهم الأمم يوم القيامة رغَّبَ في الزواج والتكاثر وطلب الولد، فقال: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ**»(٤).

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٩٨١)، و«صحيح مسلم» (١٥٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٧٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٢٠).

(٤) «سنن أبي داود» (٢٠٥٠).

وكان يستبشر ويبشر بمن يدخل الجنة من أمته ولذا بشر أصحابه فعَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: كنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ نَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ، فَقَالَ: **«أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟»**. قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: **«أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟»**. قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَذَاكَ أَنَّ الجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ، أَوِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَحْمَرَ»**(١).

خامساً: حرصه ألا يفرض عليهم ما يشق عليهم، ومحبته التيسير عليهم.

فقال: **«لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَلَأَخَّرْتُ صَلَاةَ العِشَاءِ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ»**(٢).

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى فِي المَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ، فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَصَلَّوْا مَعَهُ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ، فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ المَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ المَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: **«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ، فَتَعْجِزُوا عَنْهَا»**(٣).

وعندما قال للناس: **«أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الحَجَّ، فَحُجُّوا»**. فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثاً، فَقَالَ رَسُولُ الله

---

(١) «مسند أحمد» (٣٦٦١)، و«صحيح البخاري» (٦٥٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٢١).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٩٢٤)، و«صحيح مسلم» (٧٦١).

ﷺ: «**لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**». ثُمَّ قَالَ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**»(١).

فكان ﷺ يحتاط لهم أن يفرض عليهم ما يشق عليهم، وينهاهم عن التعرض للمشقة والحرج، ويحملهم على اليسر والتيسير، والحنيفية السمحة التي بُعث بها.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الحَبْلُ؟**». قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**»(٢).

وكان يقول: «**اِكْلَفُوا مِنْ العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»(٣).

سادساً: كثرة مناشدته ربه لأمته، فلهجُهُ ومناشدته لربه: «**اللهُمَّ أُمَّتِي، اللهُمَّ أُمَّتِي**». يناشد بها ربه في الدنيا، ويناشد بها ربه في الآخرة.

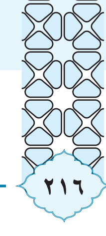
فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**». وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**». فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ

---

(١) «صحيح مسلم» (١٣٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٥٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٣).



رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**»(١).

وناشد ربه سلامة أمته وعافيتها من أن تنهكها المجاعات، أو تقضي عليها الجوائح، فأعطاه ربه ذلك فهي شهادة خلود لهذه الأمة إلى آخر الزمان، فعن سعد بن أبي وقاص، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثاً، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**»(٢).

وكما ناشد ربه لأمته في الدنيا، فسيناشده يوم القيامة، وسيكون دعاءه ولهجه في عرصات القيامة وشدائد الموقف والعرض الأكبر: «**أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ**».

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْماً بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً(٣) فَقَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟..**».

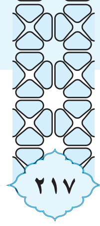
فذكر الحديث وفيه ذهابهم إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام،

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٢٨٩٠).

(٣) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٣٦).



فيعتذرون كلهم عن الشفاعة، ويقولون: «**إِنَّ اللهَ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ.. فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى**»[(١)].

إن البشرية كلها تأتيه فيشفع لها، ولكن لهجه وهجيراه: «**أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ**». فأمته حاضرة في وجدانه وهمه، لا يطمئن حتى يسلمهم إلى منازلهم في الجنة.

فيا لله أي لهف ورأفة وشفقة ورحمة أعظم من رحمة هذا النبي ورأفته بأمته؟

سابعاً: ادخاره دعوته المستجابة لأمته أحوج ما تكون إليها، وذلك بالشفاعة لها يوم القيامة، فقال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً**»[(٢)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٩).

فادخر الدعوة الثمينة المتحققة الإجابة لأشد الساعات شدة، وأعظم المواقف خطراً، يوم الكرب والذهول ليدفع بها غضب الرب من يوم لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وانظر كيف وسع أثرها لتشمل أمة الاستجابة كلها، فلم يقل: هي نائلة المتصدقين أو المجاهدين أو المتهجدين، وإنما قال: «**فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً**».

ثامناً: استدفاعه العقوبة عنهم، فعندما عرض عليه ملك الجبال أن يهلك قريشاً وقال له: «**إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟**»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[١].

وفي غزوة أُحد عندما شُج رأسه ﷺ وكسرت رَباعيته[٢] فجعل يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[٣].

قال القرطبي: وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء في مثل تلك الحال علم معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فإنه ﷺ لم يدع عليهم فينتصر، ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم، ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم لنفسه على جهة الشفقة، ولم يقتصر على ذلك حتى جعل لهم جهلهم بحاله كالعذر، وإن لم يكن عذراً، وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يشارك فيها ولا يوصل إليها[٤].

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٢) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٣) «صحيح ابن حبان» (٩٧٣).

(٤) «المفهم» للقرطبي (٣/ ٦٥٠).

فاستدفع ﷺ عنهم العقوبة التي خشي أن تعاجلهم لعظم ما جنوه على نبيهم، فاستجاب الله دعاءه لهم فإذا أكثر من قاتلوه في أُحُد أسلموا بعد وقاتلوا عن دينه في حياته وبعد وفاته، ومنهم قادة المشركين في هذه المعركة؛ أبو سفيان وعكرمة وخالد بن الوليد.

وعندما كسفت الشمس خرج النبي ﷺ فزعاً مسرعاً حتى إنه لبس درعاً لإحدى نسائه من الفزع والعجلة يخشى أن تكون الساعة، أو تكون عقوبة تعاجل بها أمته، فصلى صلاة طويلة وناشد ربه وألظّ في المناشدة، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَكَدْ يَرْكَعُ، ثُمَّ رَكَعَ فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ، ثُمَّ رَفَعَ فَلَمْ يَكَدْ يَسْجُدُ، ثُمَّ سَجَدَ فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ، ثُمَّ رَفَعَ فَلَمْ يَكَدْ يَسْجُدُ، ثُمَّ سَجَدَ فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ، ثُمَّ رَفَعَ وَفَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ نَفَخَ فِي آخِرِ سُجُودِهِ، فَقَالَ: «**أُفْ أُفْ**». ثُمَّ قَالَ: «**رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟**». فَفَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَدْ أَمْحَصَتِ الشَّمْسُ(١).

إن هذا اليوم الذي كسفت فيه الشمس هو اليوم الذي توفي فيه ولده إبراهيم، ولكن النبي ﷺ تجاوز أحزانه وفجيعته، وذُهِلَ عن ثكله بالخوف على أمته أن تعاجل بعقوبة، وخشي أن يكون هذا الكسوف آية عذاب فجعل يناشد ربه ويستدفع العذاب عن أمته: «**رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟**».

---

(١) «سنن أبي داود» (١١٩٤). وأمحصت: أي ظهرت بعد الغروب. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠٢).



إنك تستشعر من هذا المشهد أن هذه الأمة بكل أجيالها كالابن الأحب للنبي ﷺ في حبه لها، وشفقته عليها، وصدق ﷺ حينما قال: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الوَالِدِ**»[(١)]، وفي قراءةٍ: «**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهمْ**»[(٢)]، لقد كانت نبوة نبينا أبوةً لنا، فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله.

خلاصات:

كيف ستكون هذه الأمة في قلب من وصفه ربه بأنه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ويتجلى حرصه ورأفته ورحمته في مشاهد:

١- شدة حرصه على هدايتها حتى عاتبه ربه الذي أرسله فقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾.

٢- كان يحمل هَمَّ الأجيال القادمة حرصاً على هدايتهم، وشوقاً إلى لقائهم حتى كان شوقه إليهم يسبق وجودهم.

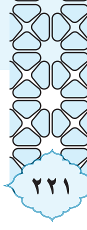
٣- ابتهاجه بكثرة أمته، ومكاثرته بهم الأمم يوم القيامة.

٤- حرصه ألا يفرض عليهم ما يشق عليهم، ومحبته التيسير عليهم وألا يتكلفوا ما لا يطيقون.

٥- كثرة مناشدته ربه لأمته في الدنيا والآخرة، فلهجه ومناشدته لربه: «**يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي**». ناشد بها ربه في حياته، ويناشده بها يوم القيامة.

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٤٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٥٩).

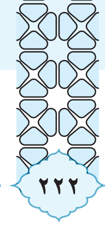


٦- ومن شفقته على أمته وصفه ما يحدث لهم من تغير الأحوال في المستقبل، ومن فتن في آخر الزمان، ووصاتهم بما يواجهون به ذلك ويحتاطون له.

٧- ادخاره دعوته المستجابة شفاعة لأمته يوم القيامة.

٨- استدفاعه العقوبة والجوائح عنهم، ومناشدته ربه في ذلك، فأجاب الله دعوته وضمن له خلود أمته إلى قيام الساعة.





كلام الرسول ﷺ

حديث الرسول ﷺ إذا تحدَّث، وخطابه إذا خطب، هو وعاء بلاغه، وبيان رسالته، وخطاب دعوته، وقد آتاه الله مواهب الخطاب البليغ، والبيان الفصيح، فليس في لسانه عقدة، وليس في منطقه لثغة، وإنما كان منطقه صحيحاً فصيحاً، ولسانه بيِّناً طليقاً، وتلاوته أجمل تلاوة، ومنطقه أوضح منطق، وكان أفصح خلق الله كلاماً، وأعذبهم حديثاً، وأبينهم أداء، ليس كلامه هذّاً مسرعاً، ولا بطيئاً متقطعاً.

١- كان يتكلم بأناة وترسُّل لا يسرد الحديث سرداً، ولا يهذ كلامه هذّاً، وإنما يتكلم بكلام فصل جزل، يسهل فهمه وحفظه، قالت عائشة: لم يكن رسول الله ﷺ يسرد الحديث كسردكم، ولكنه كان إذا جلس مجلساً يتكلم بكلامٍ بيِّنٍ فصل، تفهمه القلوب، ويحفظه كل من سمعه، كان يتكلم كلاماً لو عدَّه العادُّ لأحصاه[1].

٢- ويتميز كلامه بالإيجاز الجامع فلا طول ولا استطراد، وإنما عبارات

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٣).

معدودة، يسهل عدها وحفظها، ولذا حفظ الصحابة كلامه، ووعوا ورووا عنه حديثاً طيباً كثيراً مباركاً فيه، وذلك لوضوحه واختصاره وسهولة حفظه وروايته.

وإذا نظرنا في الأحاديث النبوية فهي في معدّل سطرين أو ثلاثة لكل حديث، فإن طالت فذلك أنها في أثناء قصة.

وقد أوتي ﷺ في حديثه جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا، فيجمع المعاني الكثيرة في اللفظ الوجيز قال ﷺ: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**»(١).

ولذا جُمعت مهمات الدين في كلمات جامعة من كَلِمِه الجوامع مثل قوله:

«**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(٢).

«**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»(٣).

«**فَمَنْ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»(٤).

«**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»(٥).

«**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(٦).

٣- وكان إذا تكلم فإن حديثه يغلب عليه الحوار بأن يطرح سؤالاً، أو يثير تساؤلاً أو يضرب مثالاً، ولذلك يشترك المتلقِّي في التفاعل مع الحديث.

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٣).

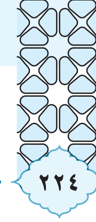
(٢) «صحيح البخاري» (١)، و«صحيح مسلم» (١٩٠٧).

(٣) «صحيح البخاري» (١٠)، و«صحيح مسلم» (٤٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٢)، و«صحيح مسلم» (١٥٩٩).

(٥) «جامع الترمذي» (٢٥١٨).

(٦) «جامع الترمذي» (٢٣١٧).



ومن ذلك قوله: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟**». قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ ﷺ: «**الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[١].

وربما مَثَّل الحال التي يحكيها وصورها حتى يقرن الحديث بالمشهد، كقوله: «**كَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْناً لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ فَقَالَتْ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ، فَقَالَ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ**». قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ[٢].

وحديث: «**إِنَّ الكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ** ـ وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا، وَذَكَرَ لَعْناً ـ **وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ. فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً[٣] كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ هَكَذَا[٤]، أي غطى بها أنفه كما يصنع من وجد ريحاً كريهة، وذلك حتى يصوّر المشهد ويتضح المعنى وترتبط الصورة بالرواية.

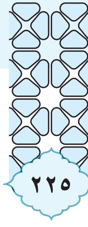
٤ – وكان إذا تكلم بكلام له أهميته كرره ثلاثاً ليعقل عنه، وليبين أهميته،

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥٠).

(٣) الريطة: ثوب رقيق لين. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨٩).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٨٧٢).



قال أنس: كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه[١].

ومثال ذلك: حديث عَبْدِ الله بن مسعود، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**». قَالَهَا ثَلاثاً[٢].

وربما زاد على الثلاث لبيان الأهمية والخطورة كقوله: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثَلاثاً، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئاً فَقَالَ - أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ**». قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قالوا: لَيْتَهُ سَكَتَ[٣]، وذلك شفقة من أصحابه عليه لما رأوا من تأثره.

٥- ومما تميّز به حديثه العفة والجمال، فليس في حديثه كُلِّه كلمةٌ خادشة أو فاحشة، ولا محرجة أو جارحة، قال عبد الله بن عمرو: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشاً وَلَا مُتَفَحِّشاً[٤].

وإذا احتاج إلى ذكر ما يستحيى من ذكره كنَّى عنه بكناية جميلة تستره، كما في حديث عائشة أن امرأةً سألت النبي ﷺ: كيف تغتسل من الحيض؟ فذكرت أنه علمها الغسل ثم قال: «**ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا**». قَالَتْ المرأة: وَكَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا؟ قَالَ: «**سُبْحَانَ الله، تَطَهَّرِي بِهَا**». واستتر بيديه على وجهه، حياءً أن يصرح لها، قالَتْ عَائِشَةُ: فاجتذبتها إليَّ وعرفت ما أراد النبي ﷺ، فقلت: تتَبَّعِي بها أَثَرَ الدَّمِ[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٤٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٧٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٦٥٤)، و«صحيح مسلم» (٨٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٥٥٩).

(٥) «صحيح البخاري» (٣١٤)، و«صحيح مسلم» (٣٣٢).

وكقوله في حديث امرأة رفاعة القرظي لما أرادت فراق زوجها بعده عبد الرحمن بن الزَّبير: «**أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لَا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**»(١)، أي لا تحلين له حتى يعاشرك الثاني معاشرة الأزواج.

هذه الكنايات هي من تأديب الله لنبيه فيما أنزل في كتابه كما قال ابن عباس: الدُّخُولُ، وَالتَّغَشِّي، وَالإِفْضَاءُ، وَالمُبَاشَرَةُ، وَالرَّفَثُ، وَاللَّمْسُ، هَذَا الجِمَاعُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يُكَنِّي بِمَا شَاءَ عَمَّا شَاءَ(٢).

وكذا كان نبيه ﷺ حييا كريما يكني ولا يفحش.

٦- وكان يؤكد ما يستحق التأكيد، ويقسم على ما يستحق التعظيم، فيقول: والذي نفسي بيده، كقوله: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**»(٣).

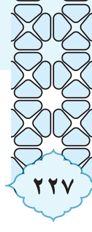
«**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلاً، فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ**»(٤).

«**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ المِسْكِ**»(٥).

٧- وكان لكلامه ﷺ وقعه في القلوب وتأثيره في النفوس حتى كأنهم يرون ما يحدثهم عنه، وينفعلون بما ينفعل به، قال حنظلة الأسيدي: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ،

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٦٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٣٣).
(٢) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٨٢٦).
(٣) «صحيح البخاري» (١٤)، و«صحيح مسلم» (٤٤).
(٤) «صحيح البخاري» (١٤٧٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٤٢).
(٥) «صحيح البخاري» (١٤٩٨)، و«صحيح مسلم» (١١٥١).



مَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيراً، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيراً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(١)].

إن هذا الحديث يصور الحالة الوجدانية للصحابة وهم يستمعون إلى حديثه حتى كأنهم يرون ما يحدثهم عنه، فتتألق نفوسهم وتسمو إلى حالةٍ ملائكية، ولذا قال لهم ﷺ: «**لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**».

وعن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ الله ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، قَالَ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**». قَالَ: فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ وُجُوهَهُمْ ولَهُمْ خَنِينٌ من البكاء[(٢)]، إن النبي ﷺ لم يفصل لهم ما يعلم، ولكن حال التأثر بما علمه انتقلت إليهم ولذا غطوا رؤوسهم ولهم خنين من البكاء.

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٦٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

وعن العرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَأَوصنا...[(١)].

إن العرباض وصف بلاغة الموعظة وأثرها حتى وجلت القلوب وذرفت العيون، وشعروا من حرارة الموعظة بلوعة الوداع فاستوصوا منه وصاة مودع.

إنها مشاهد لتأثير كلامه وخطابه في نفوس مستمعيه، وأَخذِهِ بمجامع القلوب حتى تذرف العيون خشيةً وخشوعاً.

ومع هذه الجاذبية والتأثير في حديثه ومع هذا التشوف من الصحابة للاستماع إليه فإنه كان يقتصد في الموعظة فلا يكثر الحديث، ولا يطيل إذا تحدَّث، وإنما يتعاهدهم به تعاهداً كما قال عبد الله بن مَسْعُودٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا[(٢)].

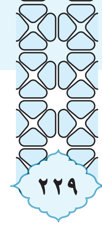
قال الجاحظ في وصف الكلام النبوي: كلامه ﷺ هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب[(٣)]، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة،

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٦٠٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢١).

(٣) التقعيب في الكلام هو التقعر والتعمق فيه. ينظر: «لسان العرب» (١/ ٦٨٤).



وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.

لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبُذّ[١] الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْج[٢] إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة[٣]، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يَسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه ﷺ.

ولعل بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلم، يظن أنّا قد تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره! كلا والذي حرم التزيد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء، وبهْرَجَ[٤] الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه.

فمن كلامه ﷺ حين ذكر الأنصار فقال: «**أَنَا وَاللهِ مَا عَلِمْتُكُمْ إِلَّا تَقِلُّوْنَ عِنْدَ الطَّمَعِ، وَتَكْثُرُوْنَ عِنْدَ الفَزَعِ**»[٥].

---

(١) يَبُذّ: يَغلب. ينظر: «تاج العروس» (٩/ ٣٧٤).

(٢) الفَلْجُ: الظَّفَرُ والفَوْز. ينظر: «تاج العروس» (٦/ ١٥٣).

(٣) الخلابة: الخِداع. ينظر: «تاج العروس» (٢/ ٣٧٧).

(٤) البَهْرَجُ: الباطِلُ والرَّديءُ مِن كلّ شيْءٍ. ينظر: «تاج العروس» (٥/ ٤٣٣).

(٥) «معالم السنن» (٤/ ٣٤)، و «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٩/ ٢٥٤).

وقال: «إِنَّمَا النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ»(١).

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٢).

«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»(٣).

«فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»(٤).

«الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ(٥) وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ»(٦).

«اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(٧).

«مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»(٨).

فتفهم رحمك الله، قلة حروفه، وكثرة معانيه(٩).

يا أَفصَحَ الناطِقينَ الضادَ قاطِبَةً ... حَديثُكَ الشَهدُ عِندَ الذائِقِ الفَهِمِ

حَلَّيتَ مِن عَطَلٍ جِيدَ البَيانِ بِهِ ... في كُلِّ مُنتَثِرٍ في حُسنِ مُنتَظِمِ

(١) «الكنى والأسماء» للدولابي (٢/ ٥٢٣).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣)، و«صحيح مسلم» (٤٥).

(٣) «جامع الترمذي» (١١٦٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٣٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤).

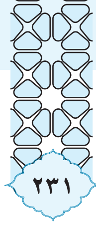
(٥) أي إذا أجار واحد من المسلمين ـ حر أو عبد أو أمة ـ واحدا أو جماعة من الكفار وخفرهم وأمنهم جاز ذلك على جميع المسلمين، لا ينقض عليه جواره وأمانه. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٣).

(٦) «سنن أبي داود» (٢٧٥١).

(٧) «جامع الترمذي» (١٩٨٧).

(٨) «صحيح البخاري» (٥٩٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٨).

(٩) «البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ١٣-١٥)، مع إضافة بعض الأمثلة.



بِـكُلِّ قَـولٍ كَريـمٍ أَنـتَ قائِلُـهُ ... تُحيِ القُلوبَ وَتُحيِ مَيِّتَ الهِمَمِ[١]

خلاصات:

١- كان ﷺ يتكلم بكلام بيِّن فصل، يفهمه ويحفظه كل من سمعه، ولو عدَّه العادّ لأحصاه.

٢- كان كلامه موجزاً جامعاً، فهو الذي أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً.

٣- يغلب على حديثه الحوار وإشراك المستمعين له بالتفاعل، بأن يسأل سؤالاً، أو يثير تساؤلاً، أو يضرب مثلاً.

٤- إذا تكلم بكلام له أهميته كرره ثلاثاً ليعقل عنه، ويبيّن أهميته.

٥- عرف حديثه بالعفة والجمال، فليس فيه كلمة فاحشة أو خادشة، أو محرجة أو جارحة.

٦- كان لكلامه وقعه في القلوب، وتأثيره على النفوس حتى كأنهم يرون ما يرويه لهم.

٧- مع جاذبية كلامه وشدة تأثيره وتشوق الصحابة له فقد كان يقتصد في الحديث، ويتخوّلهم بالموعظة كراهة السآمة عليهم.



(١) «نهج البردة» لأحمد شوقي.



الباب السابع

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في بيئته



الرَّسُولُ ﷺ وبيئةُ مكّة



١- مكة بلد عريق في الهداية؛ ففيها إرث إبراهيم، وبيت الله الذي بناه، وأثره وأثر إسماعيل خالد في صخرة المقام.

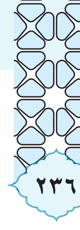
وموطئ إبراهيمَ في الصَّخرِ رطْبَةٌ   على قَدَميهِ حافياً غيرَ ناعِلِ

وبئر زمزم، ومشاعر الحج، ولذلك بقي في مكة بقايا من إرث إبراهيم وشعائر دينه، ومن أعظمها الحج والعمرة إلى البيت العتيق، وصار لها مكانة دينية في نواحي الجزيرة العربية كلها.

٢- تميزت مكة وأهلها عند العرب بمكانة خاصة لجوارهم البيت وقيامهم بأمر الحجيج رفادة وسقاية، ثم زادت هذه المكانة والشرف بعد عام الفيل حيث رأى سكان الجزيرة الذين تابعوا مسير الفيل وأصحابه من اليمن إلى مكة كيف أهلكهم الله بعقوبة إلهية لا يد لأحد فيها.

فانتصر الله لهم وأهلك عدوهم، وفَشَا أمر أصحاب الفيل في الجزيرة كلها وقالوا: أهل الله قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم.

ولذا كانت مكة مطمح عيون أهل الجزيرة، وتأكدت قدسية البيت



المعظم وحرمته، وكثر قصاده حجاجاً وتجاراً، وصار ما يجري في مكة ينتشر خبره في أنحاء الجزيرة كلها، ولذا فشت دعوة النبي ﷺ وتناقل الناس خبرها، وتحدثت بها الوفود القادمة للحج في كل أنحاء الجزيرة في وقت قصير، فوفد عليه في مكة نزاع القبائل، والمتأثرون بالدعوة كأبي ذر الغفاري، وعمرو بن عبسةَ الأسلمي، والطفيل بن عمرو الدوسي، وغيرهم.

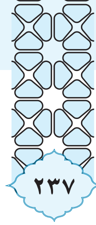
٣- كما تميزت مكة بموقعها الجغرافي؛ فليست في مكان قصيّ وليست في مكان دنيّ[١]، فهي بلد لا يصل إليه نفوذ القوى العظمى، في الشام أو العراق أو اليمن، وليست في مكان منعزل ومنقطع عن العالم، فهي متصلة بالعالم منقطعة عنه، بعيدة عن السلطان والنفوذ الكسروي والهرقلي والحبشي ومتواصلة معه، فإذا نظرت إلى مكانها الجغرافي شعرت أنه مكان متصل بالعالم، وبعيد عن نفوذ دوله العظمى، لتبقى لمكة ميزة المكان الذي لا تصل إليه هيمنة الدول الإمبراطورية ولا سطوتها.

٤ - كانت مكة في مكان صعب التضاريس، صعب المناخ، شحيح الماء، في رقعة ضيقة تحاصرها الجبال وتُضَيق ساحتها ومساحتها، وكانت مساكن أهلها في الشعاب وخيوف[٢] الجبال، وهي أرض قاحلة كما وصفها الله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ ولذا كان من تعنت قريش على النبي ﷺ أن سألوه أن يبعد عنهم الجبال، ويجري لهم الأنهار، فقالوا له: إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ أَضْيَقَ بَلَداً، وَلَا أَقَلَّ مَاءً، وَلَا أَشَدَّ عَيْشاً مِنَّا، فَسَلْ لَنَا ربَّك الَّذِي بَعَثَك بِمَا بَعَثَكَ بِهِ، فليسيِّر عَنَّا هَذِهِ الجِبَالَ الَّتِي قَدْ ضيَّقت عَلَيْنَا،

---

(١) «طلائع النور» لعباس العقاد (١٠٠).

(٢) الخيف: مَا ارْتَفع عَنْ مَجْرى السَّيل وانْحدرَ عَنْ غِلَظِ الجبلِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٩٣).



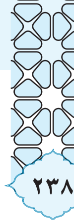
وَلْيَبْسُطْ لَنَا بلادَنا، وَلْيُفَجِّرْ لَنَا فِيهَا أَنَهاراً كَأَنْهَارِ الشَّامِ وَالعِرَاقِ[١]، وهذا السؤال على ما فيه من تعنت فإنه يدل على ما كانوا فيه من ضيق، وما كانوا يعانون من شدة، وكان ذلك من أسباب انقطاع المطامع عن مكة، وعدم الرغبة فيها من غير أهلها.

٥ - ومما تميزت به بيئة مكة نظام الزعامة فيها، فلم يكن أمر الزعامة مجتمعاً في يد ملك أو زعيم فرد، حيث لم يصح لقريش بعد موت قصي بن كلاب زعيم عام ترجع إليه القبيلة، وإنما يحكمها الملأ من رؤساء العشائر، وكانت الزعامة مشتركة بين رؤوس عشائر قريش لا يستبد أحد فيهم بالأمر دونهم، ولكل كبير عشيرة رأيه الذي يراعي فيه أمر عشيرته، وكل عشيرة تتمتع بالحرية التامة، ولا طاعة مفروضة عليها لأحد؛ ولذا لم يكن النبي ﷺ حين دعوته في مواجهة فرعونية أو نمرودية، كما جرى لموسى وإبراهيم عليهما السلام.

وكان لموقف بني هاشم وبني المطلب مع النبي ﷺ مسلمهم وكافرهم أثره في تفرق أمر قريش أن يستبد به مثل أبي جهل أو أمية بن خلف ونحوهم، وكان هذا من صنع الله وخيرته لنبيه ﷺ.

كما كان في هذا منعة لمن آمن بالنبي ﷺ من عشائر قريش، فلا يجرؤ عليه أحد من غير عشيرته، ولذا فكل ما تعرض له الصحابة في مكة من أذى كان من عشائرهم، ويدل على هذه الحماية العشائرية ما ذكره ابن إسحاق: أَنَّ رِجَالاً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ مَشَوْا إِلَى هِشَامِ بْنِ الوَلِيدِ، حِينَ أَسْلَمَ أَخُوهُ الوَلِيدُ ابْنُ الوَلِيدِ (بْنِ المُغِيرَةِ)، وَكَانُوا قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا فِتْيَةً مِنْهُمْ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا، مِنْهُمْ: سَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ، وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ. فَقَالُوا لَهُ وَخَشُوا

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٦٣).



شَرَّهُمْ: إنَّا قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نُعَاتِبَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةِ عَلَى هَذَا الدِّينِ الَّذِي أَحْدَثُوا، فَإِنَّا نَأْمَنُ بِذَلِكَ فِي غَيْرِهِمْ قَالَ: هَذَا فَعَلَيْكُمْ بِهِ، فَعَاتِبُوهُ وَإِيَّاكُمْ وَنَفْسَهُ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

أَلَا لَا يُقْتَلَنَّ أَخِي عُيَيْش ... فَيَبْقَى بَيْنَنَا أَبَداً تَلَاحِي

احْذَرُوا عَلَى نَفْسِهِ، فَأُقْسِمُ اللهَ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَأَقْتُلَنَّ أَشْرَفَكُمْ رَجُلاً، فَقَالُوا: واللهِ لَوْ أُصِيبَ فِي أَيْدِينَا لَقُتِلَ أَشْرَفُنَا رَجُلاً، فَتَرَكُوهُ وَنَزَعُوا عَنْهُ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا دَفَعَ اللهُ بِهِ عَنْهُمْ[١].

وكذلك كان الموالي والعبيد لا يجرؤ على أذيتهم إلا أسيادهم دون غيرهم، فكان توزع النفوذ، وحمية كل عشيرة لأبنائها مما وفر حمايةً عشائرية للمؤمنين وكفَّ عنهم أذيةَ مخالفيهم.

٦- تميز أهل مكة بقيم وأخلاق شريفة يلتزمونها ويعظمونها في جاهليتهم، فكانت من مناقبهم، ومن أسباب عصمة الرسول وكف الأذى عنه بينهم، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

فمن ذلك استقباحهم الكذب ونُفرتهم منه، وكانوا يرون أنه ينافي أخلاق السيادة كما قال أبو سفيان عندما سأله هرقل عن رسول الله ﷺ: ولولا أن يأثروا علي كذبة لكذبت عليه[٢]، أي أن الذي منعه أن يكذب على هرقل نفرته أن يحفظ عليه أصحابه كذبة قالها له.

ومن ذلك موقف هند بنت عتبة مع زينب حين أرادت أن تسير إلى مكة وكان ذلك بعد غزوة بدر، حيث قَالَتْ لها هند: يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ، أَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّكِ تُرِيدِينَ اللُّحُوقَ بِأَبِيكِ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَا أَرَدْتُ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: أَيْ ابْنَةَ

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٤١).

عَمِّي، لَا تَفْعَلِي، إنْ كَانَتْ لَكِ حَاجَةٌ بِمَتَاعٍ مِمَّا يَرْفُقُ بِكِ فِي سَفَرِكِ، أَوْ بِمَالٍ تَتَبَلَّغِينَ بِهِ إلَى أَبِيكِ، فَإِنَّ عِنْدِي حَاجَتَكِ، فَلَا تَضْطَنِي[(١)] مِنِّي، فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ بَيْنَ النِّسَاءِ مَا بَيْنَ الرِّجَالِ. قَالَتْ: وَاللهِ مَا أَرَاهَا قَالَتْ ذَلِكَ إلَّا لِتَفْعَلَ[(٢)].

وموقف هند هذا غاية في المروءة وكرم الخلق، فإنها عرضت على زينب المعونة والمؤونة، وقالت: إنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال، مع أنها أكثر النساء فجيعةً بعد بدر فقد قتل فيها أبوها وأخوها وابنها.

وكذلك موقف عثمان بن أبي طلحة حينما لقي أم سلمة وهي تريد الهجرة لوحدها قالت: فقال لي: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالمَدِينَةِ، قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قُلْتُ: مَا مَعِي أَحَدٌ إلَّا اللهُ وَبُنَيَّ هَذَا. فَقَالَ: وَاللهِ مَا لَكِ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ البَعِيرِ فَانْطَلَقَ مَعِي يَهْوِي بِي، فوالله مَا صَحِبْتُ رَجُلاً مِنَ العَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إِذَا بَلَغَ المَنْزِلَ أَنَاخَ بِي، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي فَحَطَّ عَنْهُ ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرِ، ثُمَّ تَنَحَّى إِلَى شَجَرَةٍ فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ قَامَ إِلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَّلَهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي وَقَالَ: ارْكَبِي، فَإِذَا رَكِبْتُ فَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ فَقَادَنِي حَتَّى يَنْزِلَ بِي.

فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي المَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ قَالَ: زَوْجُكِ فِي هَذِهِ القَرْيَةِ، وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلاً، فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعاً إِلَى مَكَّةَ[(٣)].

---

(١) لا تضطني: أي: لا تبخلي بانبساطك إلي. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٠٤).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢١٥).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٧٠).

فتحقق للدعوة وللمسلمين كثير من المصالح بسبب هذه الأخلاق، ومن ذلك موقف المطعم بن عدي وأبي البختري بن هشام من نقض صحيفة المقاطعة، وموقف المطعم بن عدي في جواره للنبي ﷺ حينما أتى إلى مكة من الطائف وغير ذلك.

٧ - تميز زعماء مكة بالحكمة والحلم ورجاحة العقل مما جعلهم يديرون خلافاتهم العشائرية بلياقة تمنع كل طيش ونزق، ولذا لم تقع الحروب فيما بين عشائرها كما وقعت بين قبائل بكر وتغلب، والأوس والخزرج مع أنهم تفرع لقبيلة واحدة.

وأَثَّر هذا في تعاملهم مع النبي ﷺ وأصحابه، فمع شدة العداوة وضراوة المواجهة لمن أسلم واجتهادهم أن يفتنوا المسلمين عن دينهم إلا أنهم لم يصلوا إلى خيار القتل، ولم يقتل أحد من المسلمين إلا ما كان من أمر سمية التي قتلها أسيادها بنو مخزوم، بل كان الرأي الرشيد يطرح من بعض زعماء المشركين في مكة، كما اقترح الوليد بن المغيرة حيث قال في بداية الدعوة: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وخلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فاعتزلوه، فَوَاللهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سمعتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تصبْه العَرَبُ فَقَدْ كُفيتموه بغيرِكم، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى العَرَبِ فملُكه ملكُكم، وعزُّه عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ؛ قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللهِ يَا أَبَا الوَلِيدِ بِلِسَانِهِ؛ قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فاصنعوا ما بدا لكم[1]، وكذا قال: عتبة بن ربيعة يوم بدر حيث أشار على قريش: فَقَالَ: يَا قَوْم، إِنِّي أَرَى قَوْماً مُسْتَمِيتِينَ لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَفِيكُمْ خَيْرٌ، يَا قَوْم اعْصِبُوهَا اليَوْمَ بِرَأْسِي، وَقُولُوا: جَبُنَ عُتْبَةُ

(١) «سيرة ابن اسحاق» (ص٢٠٨).

ابْنُ رَبِيعَةَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَسْتُ بِأَجْبَنِكُمْ[(١)]، وقد كاد هذا الرأي أن يُبرم لولا لجاجة أبي جهل وقوة تأثيره فيهم، التي ساقتهم لحتفهم، ولذا قال ﷺ يومها: «**إِنْ يَكُنْ فِي أَحَدٍ مِنَ الْقَوْمِ خَيْرٌ فَعِنْدَ صَاحِبِ الْجَمَلِ الأَحْمَرِ، إِنْ يُطِيعُوهُ يَرْشُدُوا**»[(٢)]، يعني عتبة بن ربيعة.

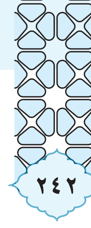
٨ - مكانة مكة الدينية والتجارية جعلتها مقصداً للناس من نواحي الجزيرة كلها، في موسم الحج وفي الأسواق الموسمية كسوق منى وعكاظ ومجنة وذي المجاز، وكانت ملتقيات الناس الجامعة هذه فرصة للقاء الوفود القادمة، وعَرْضِ النبي ﷺ دعوته عليهم، فانتشر خبر دعوته ودينه في أنحاء الجزيرة كلها.

فإذا انقضت هذه المجامع كلها تحدث كل وفد إلى قومه بما سمع من رسول ﷺ، وقد سهل ذلك نشر تعاليم الإسلام ورسالته في نواحي الجزيرة بحيث كان كل من في الجزيرة متهيئين لاتباع الرسول ولكن كانوا ينتظرون ما يكون من شأنه مع قومه، فعَنْ عَمْرِو بْنِ سَلِمَةَ، قَالَ: كُنَّا بِمَاءٍ مَمَرَّ النَّاسِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَنَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ، مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى اللهُ بِكَذَا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الكَلَامَ، وَكَأَنَّمَا يُقَرُّ فِي صَدْرِي، وَكَانَتِ العَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهِمُ الفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ[(٣)].

(١) «مسند أحمد» (٩٤٨).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٣٠٢).



ولذا لما فتحت مكة وأسلمت قريش تتابع الناس إلى الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجاً، لأنه كانت لديهم معرفة مسبقة بالدين وحقيقة الدعوة.

٩- عرفت قريش بمهارتها التجارية وبخاصة التجارة الخارجية، وهي تجارة الاستيراد والتصدير، وقد رحلوا بتجارتهم إلى الشام واليمن والحبشة والعراق، وقاموا باتصالات مع تلك الدول، وعقدوا معها معاهدات تجارية، فقد أخذ هاشم بن عبد مناف عهداً من الروم بالسماح لتجار قريش أن يدخلوا الشام ويتاجروا فيها، وأخذ إخوته المطلب وعبد شمس ونوفل عهوداً مماثلة من الأكاسرة والنجاشي والحميريين، وبذلك سيطرت قريش على التبادل التجاري بين الشمال والجنوب، ونظمت رحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال، وهو ما ذكَّرهم الله به ممتناً به عليهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾، إضافة إلى مشاركتهم الفاعلة في الأسواق الموسمية حول مكة مثل أسواق منى وعكاظ وذي المجاز وحباشة وغيرها.

وقد أفاد هذا التنقل والارتحال بين البلدان والقبائل شهرةَ قريشٍ وصلَتها بالدول والقبائل، ولذا كان بدء الدعوة في مكة مؤذنا بانتشار خبرها وما تدعو إليه في كل القبائل التي تتصل بها قريش أو البلاد التي تصل إليها.

١٠- قام التجمع البشري في مكة بعد نزول قبيلة جُرهم على أم إسماعيل وابنها، وكان لهم الكثرة والإمرة قروناً متتابعة حتى كاثرتهم قبيلة خزاعة وأخرجتهم من مكة وتولت أمرها نحواً من خمسة قرون، وفي ولاية خزاعة سربت الوثنية إلى مكة على يد زعيمها عمرو بن لحي الخزاعي، وتحولت من مثابة للتوحيد إلى تجمع للوثنية، وبقيت مكة في يد خزاعة حتى انتزعها

قصي بن كلاب، الأب الخامس للنبي ﷺ وذلك قبل نحو مئة وخمسين سنة من البعثة.

وكان قصي زعيمها وولي أمرها، وهو الذي بنى بها داره دار الندوة، وأنزل عشائر قريش في شعاب مكة ونواحيها المطيفة بالكعبة، فكانت عشائر قريش في نواحي البيت متباعدة عنه، وكل عشيرة في ناحيةٍ أو شعب، ثم أصبحت زعامة قريش بعد قصي بين كبرائها مجتمعين، وكان هاشم من سادات مكة وسمي هاشما لأنه هشم الثريد للحجاج، ثم كان ابنه عبد المطلب من بعده سيد مكة وكبير زعمائها، وطال عمره واشتهر أمره وكثرت ذريته وكان المنظور إليه في مكة سيادة وشرفاً، ولذا عُرف النبي ﷺ به فيقال: ابن عبد المطلب، ويعرف النبي ﷺ نفسه به فيقول:

أَنَـا النَّبِـــيُّ لَا كَـــذِبْ ... أَنَـا ابْـنُ عَبْـدِ المُطَّلِـبْ

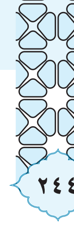
وكان تسلسل نسب النبي ﷺ من سروات قريش وخيارها وسادتها وذوي شرفها، ومكانهُ ومكانته في الذؤابة منها.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**رَحْمَةُ الله عَلَى لُوطٍ إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، إِذْ قَالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فَمَا بَعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيّاً إِلَّا فِي ذِرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ**»[(١)].

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[(٢)].

(١) «سنن الترمذي» (٣١١٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٧٦).



١١- قامت مكة حول الكعبة التي جعلها الله قياماً للناس، ومثابةً وأمنا، وكان للنبي ﷺ مشاركته في تجديد بناء الكعبة، فقد شارك في بنائها قبل البعثة وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان ينقل الحجارة مع عمه العباس من جبل أجياد إلى البيت، ثم كان له دوره المحمود في رفع النزاع بين قبائل قريش عند وضع الحجر الأسود حيث تنافروا حتى اتعدوا للقتال، كل قبيلة تدّعي أن لها الحق أن يكون ذلك على يدها، ثم اتفقوا على تحكيم أول داخل من باب بني شيبة، فدخل ﷺ فاختار لهم الرأي الحكيم المرضي، وهو أن يوضع الحجر في ثوب ثم يأخذ رجل من كل قبيلة بطرف منه فيرفعوه جميعاً، ثم وضعه بيده الكريمة.

ثم كان على يده ﷺ بعد ذلك تطهير الكعبة من أرجاس الوثنية وإعادتها إلى نقاء التوحيد ونصاعته، فعندما دخل الكعبة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً، وكان هبل في جوف الكعبة فجعل ﷺ يطعنها بعود في يده وهو يقرأ: ﴿**وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾، فتقع على وجوهها وكانت مثبتة بالرصاص.

ثم دخل الكعبة فوجد فيها صورة إبراهيم وإسماعيل وهما يستقسمان بالأزلام، فقال: «**قَاتَلَهُمُ اللهُ، وَاللهِ إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالأَزْلَامِ قَطُّ**»، ووجد بها حمامة من عيدان فكسرها[١].

وكما كان بناء البيت على يد أبويه إبراهيم وإسماعيل فقد كان له ﷺ مشاركته في إعادة بنائه بعدهما، ثم كان على يده تطهيره من أرجاس الوثنية وشعائر الشرك، وإعادته إلى ملة أبيه إبراهيم، حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٥٢)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٤٧).

خلاصات:

١- مكة بلد عريق في الهداية، وفيها بقايا ميراث الأنبياء، بيت الله ومقام إبراهيم ومشاعر الحج.

٢- تميز أهل مكة بمكانة خاصة عند العرب لجوارهم البيت وقيامهم بأمر الحجيج.

٣- تميزت مكة بموقعها الجغرافي، فهي متصلة بالعالم وبعيدة عن سلطة الدول ونفوذهم.

٤- كان نظام الزعامة في مكة نظاماً جماعياً عشائرياً، لا يستبد فيه أحد بالأمر، مما وزع المسؤولية وأضعف النفوذ الفردي.

٥- كانت القيم ومكارم الأخلاق من شيم أهل مكة التي يرعونها ويعظمونها، وكانت هذه المروءات من أسباب عصمة النبي ﷺ والمؤمنين معه.

٦- مكانة مكة جعلتها مقصداً للناس من أنحاء الجزيرة كلها، وكان ذلك من أسباب انتشار دعوة النبي ﷺ وفشو خبره.

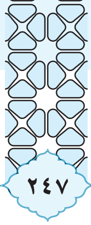
٧- تميز زعماء مكة برجاحة العقل وحسن إدارة الخلاف بينهم، ولذا لم تقع بينهم حروب كما وقعت بين غيرهم.

٨- عرفت قريش بمهارتها التجارية وتنقلها بين البلاد وصلتها بالدول العظمى، وكان ذلك من أسباب انتشار خبر الدعوة عالمياً منذ بداياتها.

٩- كان النبي ﷺ في الذؤابة وذروة الشرف بين بيوتات قريش، ولذا كان في منعة من قومه.

١٠- كما كان على يد إبراهيم وإسماعيل بناء البيت فقد شارك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في بناء البيت عندما جدد، ثم كان على يده تطهير البيت من أرجاس الوثنية، وجهالات الجاهلية.





الرَّسُولُ ﷺ وبيئةُ المدينةِ



١- كانت علاقة النبي ﷺ بالمدينة تُنْسجُ في عالم الغيب البعيد، فقد بشَّر الله به وبها في رسالات الأنبياء قبله، وجاء وصفها لدى الأمم السابقة، ولذا جاء اليهود إلى جزيرة العرب يتتبعون وصفها: أرضاً ذات حِرارٍ ونخل، فنزلوا نواحي عدة ينطبق عليها الوصف، فنزلوا وادي القرى، وخيبر، وفَدَك، وفيهم من نزل المدينة لما رأوا من صفتها المذكورة في كتبهم، كما جاء بعد ذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه إليها؛ للوصف الذي أخبره به عنها علماء النصارى الذين لقيهم.

وفشا علم اليهود بين الأوس والخزرج، واتبعوهم في بعض عاداتهم من غير أن يتركوا دينهم الوثني، فكانت لهم أصنامهم، ومن أشهرها مناة بالمُشَلَّل[1] بين مكة والمدينة.

وأكثَرَ اليهود من إسماعهم أن نبيّاً سيخرج، وأنهم سيتبعونه ويقاتلونهم معه، وهي معلومة كان اليهود مصدَرها والمفاخِرَ بها، بل المتوعد بقرب وقوعها، وهو ما أخبر عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ

(١) هي ثنيّة مشرفة على قديد. ينظر: «معجم ما استعجم من أسماء البلاد» (٤/ ١٢٣٣).

ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثم كان من صنع الله لنبيه أن يمر بالمدينة جدُّه هاشم بن عبد مناف في سفره إلى الشام، فيتزوج بها من سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية الخزرجية، فولدت له ولداً أسمتْه شيبة، وبنتاً أسمتْها رقية، ثم خرج هاشم إلى غزة، فمات فيها شابّاً[1]، ونشأ شيبة في المدينة حتى جاء به منها عمه المطلب ولما أقبل به إلى مكة ظنوه عبداً له اشتراه، فقالوا: هذا عبدُ المطلب، فمن ذلك سمى شيبةُ عبدَ المطلب[2].

ثم وُلِد لعبد المطلب بنوه في مكة، ومنهم الشقيقان: عبد الله وأبو طالب، وتزوج عبد الله آمنة بنت وهب، ثم أرسله أبوه عبد المطلب إلى المدينة ليشتري منها تمراً، فخرج إليها وزوجته حامل برسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، فلما وصل المدينة نزل على أخوال أبيه بني عدي بن النجار، فمرض عندهم، ثم توفي فدفن في المدينة في دار النابغة، وهو رجل من بني عدي ابن النجار[3].

ففي المدينة ولد جدُّ رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ عبد المطلب، وفيها توفي أبوه عبد الله.

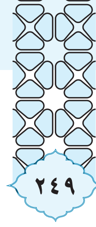
فلمّا بلغ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ست سنين، ذهبت به أمه إلى المدينة، ومعها أم أيمن بركة الحبشية حاضنته؛ لتزور قبر زوجها عبد الله، فنزلت به عند أخوال

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٥٣).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٣٧-١٣٨).

(٣) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٢/ ٢٤٤).



جدِّه، في دار النابغة التي دفن فيها أبوه، وأقامت عندهم شهراً عند قبر زوجها الذي أحبته وتأيمت منه، وكان ﷺ قد ميّز وتفتح وعيه، وكأنما هذه الزيارة المبكرة في الطفولة، هي التهيئة للهجرة النبوية الكبرى في الكهولة، فكان يذكر هذه الزيارة ومشاهدها، فكان ﷺ، يذكر أمورا كانت في مقامه ذلك، فلما نظر إلى أطم بني عدي بن النجار عرفه، وقال: كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي، نطيّر طائراً كان يقع عليه، ونظر إلى الدار، فقال: ها هنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبى عبد الله بن عبد المطلب، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه[١].

ثم أراه الله بعد النبوة دار هجرته وهو في مكة، فرأى أرضها ونخيلها ولم يعلم مكانها، فظنها اليمامة أو هَجَر[٢]؛ لشهرتهما بالنخيل، فقال: «**أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، أُرِيتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ، فَذَهَبَ وَهْلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ**»[٣].

٢- ثم كان من صنع الله لرسوله ﷺ أن الأوس والخزرج، والذين كان بينهم خصومة وحروب تتابعت؛ فكان آخرها حرب يوم بُعاث[٤] قبل الهجرة بثلاث سنين، وكانت معركة عظيمة انتصر الخزرج في أولها، ثم كان النصر النهائي للأوس وهم الأقل عدداً، وقُتل فيها سادة الأوس والخزرج

---

(١) «إمتاع الأسماع» (٨/ ١٤٣)، و«الرصف لما روي عن النبي ﷺ من الفعل والوصف» (١/ ٣٥).

(٢) هي ساحات الأحساء، وهي الآن في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية.

(٣) «صحيح البخاري» (٣٦٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢).

(٤) هو مكان في المدينة معروف، ويسمى الآن «المبعوث»، وفيه جرت هذه المعركة فسميت باسمه. ينظر: «معجم ما استعجم من أسماء البلاد» (١/ ٢٥٩).

وقادتهم، ومنهم رئيسا الخزرج والأوس، وعدد من أكابرهم ممن كان يظن أن سيتكبر ويأنف من الدخول في الإسلام؛ حتى لا يكون تحت حكم غيره، وانتقلت الزعامة إلى قيادات شابة، وقد بقي من كبرائهم عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ.

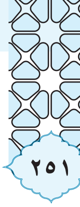
ثم كانوا بعد هذه المعركة متنافرين، فلا الأوس تُسلِّم الزعامة للخزرج؛ لأنهم قد انتصروا عليهم في هذه المعركة، ولا الخزرج تسلّمها للأوس؛ لأنهم أكثر منهم، فكان اجتماعهم على رجل من غيرهم مما يتقبله كلا الطرفين.

ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ، يَوْماً قَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وسلم فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِسْلَامِ[١].

فانظر إلى لطف الله في تقديره وتدبيره، وما أجراه من تصريف الأحوال في الغيب السحيق، تهيئةً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ليتبوأ المدينة مهاجَراً وسكناً، وثِواءً ومثوى، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٣- وأما جغرافية المدينة فإنها، أرض خصبة وافرة الماء، وبها واحات النخيل المتناثرة، تعمرها قبائل الأوس والخزرج واليهود، وكانوا في تجمعات عشائرية متفرقة في نواحي المدينة عاليتها وسافلتها وتسمى كل ناحية بمن يسكنها فيقال: دور بني ساعدة، وبني النجار، وبني ظفر، وبني عمرو بن عوف، وبني حارثة، وقريظة، والنضير، وغيرهم، ويحيط بالمدينة حرار وعرة من جهاتها الثلاث الشرق والغرب والجنوب على

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٧٧).



هيئة حذوة الحصان مما شكل لها حماية طبيعية فكانت في مثل السور المحيط بها، وواجهتها المفتوحة هي الجهة الشمالية، يواجهها جبل أُحد من الشمال وجبل عير من الجنوب، وجبالها متباعدة، ومساحاتها فسيحة رحبة، وليست مثل مكة التي تضايقها الجبال فيسكن أهلها في الشعاب والخيوف[١]، وتتخلل المدينة أودية منها وادي العقيق ورانونا وبطحان، وكانت المياه تتجمع مستنقعات في هذه الأودية، ولذا كثرت فيها حمى البلهارسيا المعروفة بحمى يثرب.

ولما نزل النبي ﷺ المدينة اتخذ مسجده الذي بوأه الله مكانه في منازل بني النجار، وهي المنطقة الوسطى بين نواحي المدينة، فهي النقطة المركزية وبقية الأحياء تحيط بها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

٤- ويختلف تكوين المدينة السكاني عن التكوين في مكة، ففي مكة قبيلة واحدة، ودين واحد هو الوثنية، أما المدينة فتجمع قبلي عربي وإسرائيلي، فالعرب قبيلتا الأوس والخزرج، والإسرائيليون بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع.

وكان للعرب دينهم الوثني وأصنامهم المعظمة كغيرهم من قبائل العرب، وللإسرائيليين دينهم اليهودي وكتابهم ومدراسهم وكُنُسهم، وبعد الهجرة تعامل النبي ﷺ مع هذه التركيبة السكانية المتنوعة قبلياً ودينياً.

فكان في المدينة المسلمون والمشركون واليهود، وقبائل الأنصار، وقبائل اليهود وانضاف إليهم المهاجرون القرشيون، ثم المهاجرون من القبائل الأخرى فكثر التنوع القبلي واتسع.

(١) الخيف: ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل. ينظر: «النهاية» (٢/ ٩٣).

ولكن النبي ﷺ أذاب هذه الفروق القبلية بآصرة المؤاخاة، وأخوة الإيمان بين المسلمين، وكان التعامل مع هذا التنوع واستيعابه مقدمة لاستيعاب التنوع البشري العالمي الذي سيحتوي هذا الدين ويتمدد في مساحته الواسعة.

٥- بعث النبي ﷺ وليس بين قبيلتين من الشر كما بين الأوس والخزرج ولذا سهل اجتماعهم على زعامة خارج محيطهم القبلي وهو رسول الله ﷺ فجمعهم الله به.

وقد وأد ﷺ كل ثائرة تستجلب عداوات الماضي وثاراته، ومن ذلك ما ذكرته عائشة في قصة الإفك، قالت: فقام رسول الله ﷺ فقال: «**مَن يَعْذِرُنِي مِن رَجُلٍ قدْ بَلَغَ أذَاهُ في أهْلِ بَيْتِي فَوَاللَّه ما عَلِمْتُ على أهْلِي إلَّا خَيْراً، ولَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خَيْراً، وما كانَ يَدْخُلُ علَى أهْلِي إلَّا مَعِي**». فَقَامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ الأنْصارِيُّ، فَقالَ: أنَا أعْذِرُكَ منه، يا رَسُولَ الله، إنْ كانَ مِنَ الأوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وإنْ كانَ مِن إخْوَانِنَا الخَزْرَجِ أمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أمْرَكَ، قالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ وهو سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وكانَ رَجُلاً صَالِحاً، ولَكِنِ اجْتَهَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقالَ لِسَعْدِ بنِ مُعَاذٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ الله لا تَقْتُلُهُ، ولَا تَقْدِرُ علَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ، وهو ابنُ عَمِّ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ، فَقالَ لِسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ الله لَنَقْتُلَنَّهُ فإنَّكَ مُنَافِقٌ تُجادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَثَارَ الحَيَّانِ الأوْسُ والخَزْرَجُ حتَّى هَمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا ورَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ علَى المِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتَّى سَكَتُوا وسَكَتَ[1].

وقد حول ﷺ تنازعهم القبلي إلى تنافس على الفضائل، ومسارعة في

(١) «صحيح البخاري» (٢٦٦١).

الخيرات، فلا يرى الأوسُ الخزرجَ سبقوا إلى فضل إلا رغبوا أن يدركوا مثله ويسبقوا إليه، وكذا الخزرجُ مع الأوس، وبذا تحول التشاحن العدائي إلى تنافس إيجابي، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

٦- كان وجود اليهود القديم في المدينة سبباً في انتشار العلم بالنبوات، خاصةً أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج الذين كاثروهم وتغلبوا عليهم فيتوعدونهم بقرب خروج نبي سيتبعونه ويظهرون على الناس به، ولذا كان الأوس والخزرج يترقبون معهم خروجه، فلما لقوا النبي ﷺ وتحدثوا إليه علموا أنه النبي الذي يوعدون به فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْم، تَعلموا وَالله إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا تَسْبِقَنَّكُمْ إلَيْهِ. فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ، بِأَنْ صَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ الإِسلام، وَقَالُوا: إنَّا قَدْ تَرَكْنَا قومَنا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنْ العَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمْ اللهُ بِكَ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ، فَنَدْعُوهُمْ إلَى أمرك، ونعرض عَلَيْهِمْ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فإن يجمعهم الله عليك فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ[(١)].

وكم تعجب أن يكون اليهود سبب هداية الأنصار وإيمانهم، وأن يستفيد الأنصار من علمهم في حين لجّوا هم في طغيانهم، واختاروا أشد العداوة للرسول والرسالة حسداً من عند أنفسهم، ونفاسةً ألا يكون الرسول منهم، وصدق ﷺ إذ قال: «**فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[(٢)].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٤٧)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣٠).

ولما وصل النبي ﷺ المدينة مهاجراً احتوى اليهود بعقد اتفاق معهم تضمنته صحيفة المدينة يقوم على التعاون والتناصر في حماية الوطن ودفع العدوان عنه.

وكان ﷺ في بداية قدومه المدينة يحب موافقتهم وتألفهم فصام عاشوراء معهم وقال: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ**». وكانت قبلته في الصلاة إلى بيت المقدس، وكان يسدل شعره مثلهم ولا يفرقه، وهو بذلك يوثق الصلة بهم، ويرجو هدايتهم فهم أهل كتاب وعلم، وأولى الناس باتباعه، ومن احتوائه لهم وتواصله معهم إدخالهم بيته ففي بيته غلام يهودي يخدمه، ولعائشة خادمة يهودية في بيتها، وكانوا يزورونه في بيته، ويدعونه فيجيب دعوتهم، وعاد مرضاهم وقام لجنائزهم.

وكان في تعامله معهم أسوة حسنة في التعامل مع المخالف إذا كان مسالماً، وهو التعايش والبر والقسط.

لكن حسدهم جعلهم يلجون في العداوة ويبلغون منها أشدها: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ**﴾، وتواصوا فيما بينهم على ذلك، ولذا قال ﷺ: «**لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بِي اليَهُودُ**»[(١)]، أي عشرة من أحبارهم عندما قدم المدينة، ومع ذلك فقد آمن به بعد ذلك جماعة منهم[(٢)]، وأما غالبهم فاتبعوا أحبارهم وزعماءهم على العداوة والحسد، وتجاوزوا المخالفة وعدم الإيمان إلى العداوة والكيد، ولذا

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٤١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٣).

(٢) بلغ عدد اليهود الذين أسلموا قرابة (٦٣) فرداً، كما استقصاهم د. عمر صابونجي في كتابه: «الصحابة من أصول يهودية»، مطبوع باللغة التركية.

انتهج النبي ﷺ معهم المفاصلة الدينية فكان يفرق وهم يسدلون، وعزم على صيام تاسع المحرم مع العاشر مخالفة لليهود.

وأما كيدهم وحربهم فقد كان حازماً في مواجهتها ولذا دخل في حرب وإجلاء مع بني قينقاع عندما بادؤوا بالعداوة، ولم يُحمِّل بقية القبائل اليهودية جريرتهم، فبقي بنو النضير وبنو قريظة على حالهم، ثم نقضت بنو النضير وأعلنت العداوة بعد أُحد فحاربهم وأجلاهم، ولم يعرض لبني قريظة، فلما غدرت بنو قريظة يوم الأحزاب استأصلهم وعاملهم بما يليق بجرمهم وخيانتهم.

خلاصات:

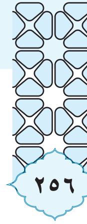
١- ذكرت المدينة بصفتها في كتب أهل الكتاب مهاجَراً للنبي الخاتم؛ ولذا نزلها اليهود، وقصدها سلمان الفارسي بالصفة التي عرفوها.

٢- نسجت علاقة النبي ﷺ بالمدينة في الغيب البعيد، فولد فيها جده عبد المطلب، وتوفي فيها أبوه عبد الله.

٣- زارها ﷺ طفلاً في السادسة مع أمه، وكأنما هذه الزيارة طليعة لهجرته إليها بعد ذلك.

٤- كان التنافس بين الأوس والخزرج وشدة العداوة مما سهل اجتماعهم على النبي ﷺ وائتلافهم حوله.

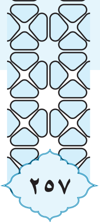
٥- كان وجود اليهود القديم في المدينة سبباً في انتشار العلم بالنبوات وترقب النبي الذي سيبعث، فانتفع الأنصار بهذه المعلومة ولم ينتفع بها اليهود الذين حملوها.



٦- كانت بيئة المدينة السكانية متنوعة قبلياً ودينياً وتعامل النبي ﷺ مع هذا التنوع بلياقة واستيعاب.

٧- كانت بيئة المدينة الجغرافية تحقق لها حماية طبيعية وأمناً غذائياً، فهي واحات نخيل محاطة من نواحيها الثلاث بحرار وعرة كالسور عليها.





البيت النبوي[1]

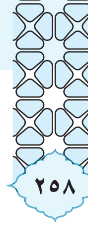


بيوتات النبي ﷺ التي عاش فيها، هي تلك البيوت التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، هي البيوت المعطرة بأنفاس النبوة، وتلاوة القرآن، وتنزُّلِ روح القدس؛ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

فإلى بيت من بيوتات النبي ﷺ، إلى بيت عائشة الصديقة رضي الله عنها، البيت الذي آوى النبي ﷺ عشر سنين من عمره المبارك.

هو البيت الذي شهد إغفاءةَ نومِه، وقيام تهجده، وشهد تسابيح السَّحر، وقرآن الفجر، شهد النبي ﷺ وهو يفتق حيوية الحياة أُنساً وبهجة، وطيب عشرة مع أهل بيته، فقد كان ﷺ أعظم الناس خُلقاً، وكان أسعدَ الناس بحسن خُلقه أهلُ بيته.

(١) ينظر: كتاب «بيوت النبي ﷺ وحجراتها» لأستاذنا د. محمد بن فارس الجميل، ومنه استفدت في هذا المبحث.



فبسم الله نستأذن ونستأنس ونسلم..

فلو اقتربنا إلى بيت النبي ﷺ وجدناه ملتصقاً بالمسجد من الجهة الجنوبية الشرقية، ينفذ بابه إلى المسجد من حائط المسجد الشرقي، فهو أقرب إلى زاوية المسجد الشرقية الجنوبية، وعلى هذا الباب سترٌ هو مِسحٌ[١] من صوف، يستر هذه الحجرة والبيت عن المسجد النبوي، فإذا أراد النبي ﷺ أن يخرج كشف هذا الستر، فأشرق محياه على المسجد الشريف.

وعلى هذا الباب وقف ﷺ آخر موقف في حياته، في آخر يوم من أيام عمره؛ ليلقي نظرة الوداع على أمته، ويودعها قبل أن يودع الحياة، ينظر إليهم كأن وجهه ورقة مصحف[٢].

فإذا رفعنا الستر ودخلنا، وجدنا دار عائشة مكوَّنة من وحدتين متلاصقتين:

١- الحجرة، وهي الفناء المكشوف.

٢- والبيت، وهو البناء المسقوف.

أما الحجرة فإنا ندخل إليها من المسجد، أي: بمجرد كشف الستر ونقل القدم من عتبة الباب، نكون في هذه الحجرة، وهي عند العرب: الفناء المحتجَر غير المسقوف.

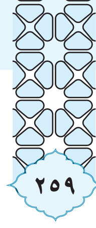
سورها من الشمال والجنوب جريد النخل مصفوفة بعضها إلى بعض، مربوطة بحبال من صوف إلى خشبات منصوبة من العرعر[٣] حتى تشد إليها، أما جدارها الغربي فهو جدار المسجد، وأما جدارها الشرقي فهو جدار البيت.

---

(١) مسح: كساء غليظٌ من الشَّعرِ. ينظر: «تاج العروس» (٧/ ١٢٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٣) العَرْعر: شجر السرو. ينظر: «تاج العروس» (١٣/ ١٣).



أما مساحة هذه الحجرة المكشوفة فهي ستة أذرع في سبعة أذرع[١]، ما يقارب (٣ × ٥,٣م٢)، ويبلغ مجموع مساحتها (٥,١٠م٢).

فهذا الفناء المكشوف هو ما يسمى: حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو المكان الذي تقع فيه الشمس، ولذا حدّثت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يصلي العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء بعد[٢].

وهو فِناء البيت الذي يجلسون في دفْء شمسه شتاءً، وفي برد ظله صَيفاً.

في هذا الفِناء توضع البُرمة التي يُطبخ فيها الطعام، وهي قِدر من الفخّار أو من الحجارة؛ لأن النار لا توقد داخل البيت، وإنما توقد في الفِناء، وفيه أيضاً القربة المعلقة التي يُبرَّد فيها الماء.

والذي يجلس في هذه الحجرة لا يكون بينه وبين المسجد إلا هذا الستر الذي على الباب، ولذلك يسمع من كان في المسجد قريباً من الحجرة ما يكون فيها، يقول ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَبِيتُ عِنْدَ حُجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ**» الهَوِيَّ من الليل[٣]، ثُمَّ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**» الهَوِيَّ من الليل[٤].

وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصلي الضحى، فيسمع من في ناحية المسجد القريبة منها صوت استنانها بالسواك إذا أرادت أن تصلي[٥].

---

(١) ينظر: «الأدب المفرد» (٤٥١).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٤٥)، و«صحيح مسلم» (٦١١).

(٣) الهوي: طَائِفَة من اللَّيْل. ينظر: «الفائق في غريب الحديث» (٤/ ١١٩).

(٤) «جامع الترمذي» (٣٤١٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٦١٨).

(٥) «صحيح البخاري» (١٧٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٥٥). واستنانها أي: تحريك السواك في فهما قبل الصلاة.

وذلك للقرب الشديد من المسجد وعدم وجود حواجز سوى هذا الستر.

أما بيت عائشة رضي الله عنها فهو البناء المسقوف، ويسمى البيت: أي مكان البيات الذي يبيت فيه أهله، ويكون مسقوفاً، وله باب يغلق.

فإن سألت عن بنائه فهو على ذات الطراز الذي بني عليه المسجد، فأساسه من الحجارة؛ لأنهم يضعون الحجارة في أساس البناء، وهو جزء الجدار الأسفل مما يلي الأرض، إذ لو كان الأساس لَبِناً من الطين لأذابه جريان السيل فانهار، فيجعلون الأساس حجارة، ثم يبنى عليها بلَبِن الطين.

أما مساحة هذا البيت فهو عشرة أذرع في سبعة أذرع (٥ × ٣,٥ م٢) تقريباً، أي أن مساحته أقل من عشرين متراً[١]، وأما ارتفاعه فهو كارتفاع المسجد خمسة أذرع، يقول الحسن البصري: كُنْتُ أَدْخُلُ بُيُوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَأَتَنَاوَلُ سُقُفَهَا بِيَدِي[٢].

وأما سقفه فشقائق جذوع النخل، وعليها الجريد والإذخر، وفوقه طبقة غليظة من الطين، وعليه حائط قصير جداً، وفي السطح ميزاب من الخشب لنزول ماء المطر منه.

وللبيت بابان: باب يفتح إلى جهة الغرب في زاويته الغربية الشمالية، يخرج هذا الباب إلى الحجرة، وهو مصراع[٣] واحد من خشب العرعر المصفوفة إلى بعضها، ولا تكون عادة متطابقة منضدّة، وإنما يكون بينها

---

(١) وقدّرها أستاذنا محمد بن فارس الجميل في كتابه: «بيوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحجراتها» (ص:٤١) بـ(١٧,٥٠ م)، سبعة عشر متراً مربعاً ونصف متر تقريباً.

(٢) «الأدب المفرد» (٤٥٠).

(٣) المصراع: أحد البابين اللذين ينضمان جميعا إذا كان المدخل واسعا، وتسمى الدرفة، فإن كان ضيقاً كفاه مصراع واحد. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ١٩٩).

فجوات طولية هي خلل الباب بسبب عدم استقامة الأخشاب، ولذا ربما حاولت بعض العيون التي لم تفقه بعد في الدين النظر من خلل الباب لترى ماذا في بيت رسول الله ﷺ، وهو سلوك كان النبي ﷺ ينهى عنه ويحذر منه[١].

وباب آخر يفتح شمالاً في نهاية الجدار الشمالي عند الزاوية الشمالية الشرقية، وهو باب صغير يمكن تسميته: باب خدمات، يُخْرج منه إلى البقيع والمناصع[٢].

ومما يوضح هذا التفصيل لمرافق البيت حديث: «**صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا[٣] أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا**»[٤].

فإن سألت عن المتاع في هذا البيت، فإنك إذا دخلت من الباب رأيت على اليمين سرير النبي ﷺ في الزاوية الجنوبية الغربية.

ولم يكن من عادة أهل المدينة اتخاذ الأسِرَّة وإنما كانت عادة قريش، ولذلك لما جاء النبي ﷺ المدينة بحثوا له عن سرير، فوجدوه عند أسعد ابن زرارة، فوضع له ﷺ[٥]، وعلى هذا السرير فراش من جلد حشوه ليف، وعليه وسادة واحدة من جلد حشوها ليف؛ فإذا جاء ضيف إلى النبي

---

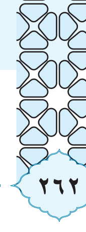
(١) «صحيح البخاري» (٦٢٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٧).

(٢) المناصع: موضع في الشمال الشرقي من المسجد شمال البقيع، وكان فضاء تخرج إليه النساء بالليل لقضاء الحاجة على عادة العرب قبل أن تتخذ الكنف في البيوت، وهي الآن داخلة في مساحة توسعة المسجد النبوي. ينظر: «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص:٢٧٩).

(٣) المخدع: مكان صغير داخل الغرفة الكبيرة يكون كالخزانة. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٤).

(٤) «سنن أبي داود» (٥٧٠).

(٥) «تركة النبي» لحماد بن إسحاق (ص١٠٤-١٠٥).



ﷺ رمى له هذه الوسادة ليجلس عليها، كما في خبر عدي بن حاتم في قدومه على النبي ﷺ قال: ثُمّ مَضَى بِي رَسُولُ الله ﷺ حَتّى إِذَا دَخَلَ بِي بَيْتَهُ تَنَاوَلَ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ مَحْشُوّةً لِيفاً، فَقَذَفَهَا إِلَيَّ فَقَالَ: «**اجْلِسْ عَلَى هَذِهِ**». قَالَ: قُلْت: بَلْ أَنْت فَاجْلِسْ عَلَيْهَا، فَقَال: «**بَلْ أَنْتَ**». فَجَلَسْت عَلَيْهَا، وَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ بِالأَرْضِ قَالَ: قُلْت فِي نَفْسِي: وَالله مَا هَذَا بِأَمْرِ مَلِكٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ صَنَعَ مَا صَنَعَ وَقَعَتْ عَلَيَّ غَضَاضَةٌ[(١)] وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ يُرِيدُ عُلُوّاً فِي الدُّنْيَا وَلَا فَسَاداً[(٢)].

وحين نام ابن عباس رضي الله عنهما عند النبي ﷺ نام النبي ﷺ وزوجته ميمونة في طول الوسادة ونام ابن عباس في عرضها[(٣)]، وكان نوم ابن عباس رضي الله عنهما عند النبي ﷺ في فصل الصيف، ولذا نام مع النبي ﷺ في الحجرة وليس في البيت، وعلى الأرض وليس على السرير.

فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تَضَيَّفْتُ مَيْمُونَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ خَالَتِي وَهِيَ لَيْلَةَ إِذْ لَا تُصَلِّي، فَأَخَذَتْ كِسَاءً فَثَنَتْهُ، وَألقَتْ عَلَيْهِ نُمْرُقَةً، ثُمَّ رَمَتْ عَلَيْهِ بِكِسَاءٍ آخَرَ، ثُمَّ دَخَلَتْ فِيهِ، وَبَسَطَتْ لِي بِساطاً إِلَى جَنْبِهَا، وَتَوَسَّدْتُ مَعَهَا عَلَى وِسَادِهَا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَدْ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ، فَأَخَذَ خِرْقَةً فَتوَزَّرَ بِهَا، وَألقَى ثَوْبَهُ، وَدَخَلَ مَعَهَا لِحَافَهَا، وَبَاتَ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَامَ إِلَى سِقَاءٍ مُعَلَّقٍ فَحَرَّكَهُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ فَأَصُبَّ عَلَيْهِ، فَكَرِهْتُ أَنْ يَرَى أَنِّي كُنْتُ مُسْتَيْقِظاً[(٤)].

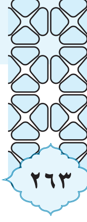
---

(١) غضاضة: أي: ذِلَّةٌ ومَنْقَصَةٌ وانكِسارٌ. ينظر: «تاج العروس» (١٨/ ٤٦١).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٨٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٥٧٠)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

(٤) «مسند أحمد» (٢٥٧٢).



وليس في البيت فراش آخر للجلوس؛ ولذلك فإن النبي ﷺ إذا قام يتهجد من الليل يصلي على فراشه الذي ينام عليه مع زوجته، فيصلي وعائشة رضي الله عنها معترضة بينه وبين القبلة، فإذا أراد أن يسجد غمزها فتكف رجلها، وإذا قام مدت رجليها[١]، وقد يظن من يقرأ هذا الخبر أن ذلك لضيق المكان، وليس كذلك، ولكن لضيق الفراش.

وهناك أثاث قليل من ضرورات الحياة في ذلك الوقت، ومنه حصير صغير من السعف يسمونه: الخُمرة[٢]، يتسع للوجه واليدين إذا سجد عليه المصلي، وهو يشبه سجادة الصلاة الآن، وكان يستعمل في ديارنا قديماً، فقد أدركنا كبار السن يصلون عليه، ويسمونه: المُصَلَّى.

وهناك سَهوة[٣] في الجدار توضع فيها الأشياء الصغيرة عادة، ولما قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَوْ خَيْبَرَ، ورأى على سَهْوَة عائشة سِتْرٌ، فَهَبَّتْ الرِيحُ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ هي لُعَبُها، فقَالَ: «**مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟**». قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَساً لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ[٤]، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟**». قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: «**وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟**». قَالَتْ: جَنَاحَانِ، فقَال متعجباً: «**فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟**». قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلاً لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٧٩)، و«صحيح مسلم» (٥١٣).

(٣) السهوة: تجويف في الجدار الطيني الذي يكون عريضاً، فيكون فيه تجويف مرتفع في عرض الجدار لرفع الأمتعة الصغيرة، وقد رأيت مثاله في بيوتنا الطينية، وفي مساجد الطين أيضاً، ترفع فيه المصاحف.

(٤) رقاع: جمع رقعة من ورق أو جلد أو نحوهما. ينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١٩/ ١٣).

(٥) «سنن أبي داود» (٤٩٣٢).



وفي البيت رفٌّ، وهو خزانة من خشب، يوضع فيها التمر أو الشعير، قالت عائشة رضي الله عنها: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ[١] لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ[٢].

وكان فيه أصواع من شعير استلفها النبي ﷺ من يهودي ورهنه درعه، قالت عائشة: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ[٣].

وفي البيت: الصَحفة[٤]، والبُرمة[٥]، والشَّنُّ[٦]، والقدح[٧]، ونحوها من متاع الناس حينها.

ولم يكن في هذا البيت سراج للإضاءة؛ لأن وقود السراج الزيت؛ وهو قليل جداً، فإذا وجد فهم أحوج إليه إداماً للأكل[٨]، قالت عائشة: بَعَثَ إِلَيْنَا آلُ أَبِي بَكْرٍ بِقَائِمَةِ شَاةٍ لَيْلاً، فَأَمْسَكَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَطَعْتُ، أَوْ أَمْسَكْتُ وَقَطَعَ، فَقَالَ الَّذِي تُحَدِّثُهُ: أَعَلَى غَيْرِ مِصْبَاحٍ؟ فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مِصْبَاحٌ لَائْتَدَمْنَا بِهِ ـ أي جعلناه إداماً لطعامنا ـ إِنَّهُ كان يَأْتِي عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِزُونَ خُبْزاً، وَلَا يَطْبُخُونَ قِدْراً[٩].

---

(١) الرف: شِبْهُ الطَّاقِ فِي الحَائِطِ. ينظر: «فتح الباري» (١١/ ٢٨٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩١٦).

(٤) الصحفة: صحن خشبي يشبع الخمسة ونحوهم. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ١٨٧).

(٥) البرمة: القدر المتخذة من الحجر. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ٣).

(٦) الشَّنُّ: القربة القديمة من الجلد تستعمل لحفظ الماء وتبريده. ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ٢٤١).

(٧) القَدَح: آنيَةٌ للشُّرب. ينظر: «تاج العروس» (٧/ ٣٩).

(٨) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٢٠)، و«وفاء الوفاء» (٢/ ٥٢)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١١٣)، و«طيبة المدينة النبوية» (١٦٣).

(٩) «مسند أحمد» (٢٥٨٢٥).

الحياة في البيت النبوي:

وهذا البيت النبوي على تقارب جُدُره، وتطامن سقفه، وصغر مساحته، وقلة متاعه، هو البيت الذي بناه ﷺ في السنة الأولى من الهجرة؛ ليسكنه مع أحب الناس إليه زوجته عائشة الصديقة رضي الله عنها، ثم تتابعت عشر سنين وتغيرت فيها أحواله من القلة إلى الكثرة، ومن الضيق إلى السعة، ومع ذلك بقي في بيته هذا فلم يغيره، ولم يزد فيه، مع أنه قد فتح الله له البلاد، وأفاء عليه أرض بني النضير وآطامهم، فما اختار منها بستاناً يسكنه، ولا حصناً يتعالى فيه.

وكانت الأموال تجبى إليه فينثرها في المسجد ويقسمها حثواً في الثياب، ثم ينقلب إلى بيته وينام على سرير مرمول بحبال ليف؛ إذا نام عليه أثَّر في جنبه الشريف.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشاً أَوْثَرَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: **«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، إِلا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**[1].

إنّ النبي الذي عاش على هذه الحال من الإيثار والكفاف، لم يُحَرّم الطيبات، ولم يأمر أتباعه بمجافاتها، فهو الذي أنزل عليه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾، و﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

ولذا توسع بعض أصحابه رضي الله عنهم فيما أحل الله لهم، وابتغوا الطيبات من الرزق.

(١) «مسند أحمد» (٢٧٤٤).

ولكن النبي ﷺ تجافى عنها فلم يتخذها ولم يدخرها؛ حتى لا يُظن أنه أخذ على دعوته عوضاً دنيوياً، ولا أصاب حظاً من أموال الناس مقابل تبليغ رسالته، فقد كان إعلانه وإعلان الرسل قبله: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ولذا عاش ﷺ بين الناس، ثم لحق بالرفيق الأعلى، من غير أن يرزأ الناس شيئاً من دنياهم، أو يحتجز منها شيئاً يتمتع به دونهم.

كما أن أشواقه ﷺ كانت هناك في منازله العلى في الجنة، فعن سمرة ابْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه قال في حديثه الطويل في رؤيا النبي ﷺ ودخوله الجنة: فقيل له: «**وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالاَ: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالاَ: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ**»(١).

فكان ﷺ يعيش في هذه الدنيا، وهو في انتظار النقلة إلى منازله العُلَى في الجنة.

أتخيل حاله كحال من كان يشيد قصراً يوشك أن يُتمه، وهو ساكن في بيت صغير؛ فإن نظره إلى القصر الذي يُشَيده وسينتقل إليه، وليس إلى البيت الذي يسكنه وسيغادره، وربما احتاج بيته هذا إلى إصلاح أو إضافة، فيقول: دعوه؛ فإنّا سننتقل عنه إلى بيتنا الآخر، فكيف بقصر في الجنة لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

(١) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

ولما عاد النبي ﷺ من سفر دخل حجرة أم سلمة رضي الله عنها، وكانت محاطة بالجريد، فلما سافر ﷺ بَنَتْها باللَّبِن، فلما قدم ﷺ قال لها: ما هذا البنيان؟ فقالت: أردت أن أكف أبصار الناس، فقال: إن شر ما ذهب فيه مال المسلم البنيان(١).

إن هذا يشعرك بحال التهيؤ للنقلة، وأنه ﷺ كان ينظر إلى كل ما في هذه الحياة الدنيا على أنها فترة انتظار في الظل، ثم سيغادر شجرتها ويتركها إلى الدرجة العالية الرفيعة في الجنة.

خلاصات:

١- ابتنى النبي ﷺ بيته الأول عند وصوله المدينة بعد بناء المسجد، وما كان أحد يدري حينها أن النبي ﷺ كان يبني بيت حياته وقبر مماته.

٢- كان البيت النبوي مكونا من وحدتين متلاصقتين، الحجرة وهي الفناء المكشوف، والبيت وهو الغرفة المسقوفة.

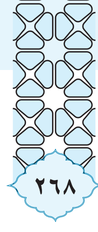
٣- كان بيت عائشة في الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد، وبينه وبين المسجد باب عليه سترٌ من صوف.

٤- كانت مساحة الفناء ثلاثة أمتار طولاً، وثلاثة أمتار ونصف عرضاً، وكان البيت المسقوف ثلاثة أمتار ونصف عرضاً وخمسة أمتار طولا تقريباً.

٥- كان البيت مبنياً باللَّبِن، وأساسه الحجارة، وسقفه من شقائق جذوع النخل وعليها الجريد، والإذخر وفوقها طبقةٌ من الطين.

٦- أما الحجرة فكانت محاطة بحاجزٍ من جريد النخل مربوطٌ بحبال الصوف إلى أعمدةٍ من خشب العرعر.

(١) «المراسيل» لأبي داود (٤٩٤).



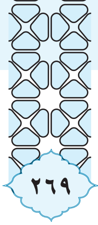
٧- لم يكن للبيت مرافق ولا ملاحق أخرى، وكان قضاء الحاجة يتم في الفضاء الشرقي خارج البيوت.

٨- كان أثاث البيت قليلاً يسيراً يناسب حال الناس ذلك الوقت، ففيه سرير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبرمة للطبخ، وحصير للصلاة، ورف خشبي للشعير ونحو ذلك.

٩- لم يكن في البيت سراج لقلة الزيت عندهم، فكانوا لا يجدونه للأكل فكيف به للإضاءة!

١٠- بنى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بيته عند قدومه المدينة على حال من القلَّة ثم اتسعت الحال وكثر المال، ولكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عاش فيه، وتوفي فيه، من غير أن يحدث فيه زيادة أو إضافة أو توسعة، فقد كان يعيش في الدنيا وأشواقه إلى منازله في الجنة.





المَسْجِدُ النّبوي(١)



كأنما نرى ناقة النبي القصواء تَخُبُّ(٢) به ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ردفه، وهي منحدرة به من قباء، وقد خرجت أحياء الأنصار يتلقّونه في الطريق، ويرغب كل منهم أن ينزل عنده، فيمسك رجالاتهم بزمام الناقة ويقولون: انزل عندنا يا رسول الله حيث المنعة والقوة والسلاح، فيقول: «**دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»(٣).

حتى إذا أتت ديار بني مالك بن النجار دخلت مربداً(٤) فبركت فيه، والنبي ﷺ على رحله لم ينزل منها، ثم جعلت تتلفت كأنها تبحث عن شيء، أو تتعرف على شيء، ثم قامت مرة أخرى والرسول ﷺ على ظهرها، فجالت ثم رجعت إلى مكانها الذي بركت فيه أولاً، فبركت وتحلحلت(٥)

(١) ينظر: «التعريف بالمسجد النبوي الشريف» للسيد عطار.

(٢) الخَبَبُ: ضَرْبٌ مِنَ العَدْوِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣).

(٣) «المعجم الأوسط» للطبراني (٣٥٤٤).

(٤) المِربد: هو السقيفة أو العريش التي كانت تُجفَّف فيها التمور. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٨٢).

(٥) أَيْ: أقامَت ولَزِمَت مَكَانَهَا وَلَمْ تَبْرح. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٣٩).

ورزَمت[١]، وضربت بجرانها[٢] الأرض، وكأنها تقول: هذا المنزل والخيار، وكان مكان بروك ناقة النبي ﷺ هو مكان منبره من بعد في مسجده.

فلم يختر النبي ﷺ أين تبرك ناقته، وإنما كان ينتظر خيرة الله التي سيبوئه مكاناً يبنيه مسجداً، فكما بوأ الله لإبراهيم عليه السلام مكان البيت بوأ لمحمد ﷺ مكان المسجد، حيث بركت ناقته؛ فنزل ﷺ، وقال: «**هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[٣].

والعجيب أن هذا المكان يقع في وسط المدينة تماماً، وأحياؤها تحيط به شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً، فهو من المدينة سُرَّتها ومركزها.

ثم قال ﷺ لبني مالك بن النجار: «**يَا بَنِي النَّجَّارِ، ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا**». وكان هذا الحائط لغلامين يتيمين ورثاه، فقال أهلهم: يا رسول الله لا نبغي به ثمناً، هو لك، ونحن نرضي اليتيمين، قال: «**لَا، ثَامِنُونِي بِهِ**». وأبى إلا أن يقدر ثمنه، ويُعطى الأيتام حَقَّهم[٤]، فكان بداية النزول إعلاناً بحفظ الحقوق، ورعاية حق الأيتام والضعفاء.

وكان أول مشروع بدأه النبي ﷺ في المدينة هو بناء مسجده، يقول أنس رضي الله عنه وهو يصف ذاك المكان: وكان في ناحية من هذا الحائط قبور مشركين، وفي ناحية منه خِرَبٌ وبقايا جدر تهدمت، وفي ناحية منه نخل طوال، فأمر النبي ﷺ بالقبور فنبشت، وأمر بالخِرَبِ فسويت، وأمر بالنخل فقطعت وصارت جذوعاً[٥].

(١) أَيْ: صَوَّتَت. والإِرْزَام: الصَّوْتُ لاَ يُفْتَح بِهِ الفَمُ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٢٠).

(٢) الجران: ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٦٣).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٩٧٤٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٢٨)، و«صحيح مسلم» (٥٢٤).

(٥) «صحيح البخاري» (٤٢٨).

وعند بناء المسجد كان نمط البناء وهيئته على نمط أبنية المدينة، الجدر بالحجارة واللَّبِن والطين، والأعمدة بجذوع النخل، والسقف بشقائق الجذوع وجريد النخل وعليه طبقة من الطين.

ثم بدأ العمل لبناء المسجد، فاستنفر النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم، وكان أعظم الاستنفار لهم أن يعمل معهم بنفسه ويشاركهم العمل، فألقى رداءه؛ ليأخذ هيئة العامل معهم، فألقوا أرديتهم وشدوا أزرهم، وجدّوا في العمل، وصار النبي ﷺ ينقل الحجارة معهم، فلما رآه أسيد بن حضير رضي الله عنه والحجر بين يديه، قال: يا رسول الله، دعني أحمله عنك، قال: «**اذْهَبْ فَاحْتَمِلْ غَيْرَهُ**»(١).

وكان هذا عملاً اشترك فيه المهاجرون والأنصار، وفي هذا إعادة دمج وتمازج بين مكونات المجتمع الجديد، وكان مشهد البناء مشهداً مبهجاً، كأنما هو مهرجان عمل جماعي.

هذا عمار بن ياسر رضي الله عنه يحمل لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن؛ لأنه كان فتيّاً قويّاً، والناس يحملون لَبِنَة لَبِنَة، فيأتيه النبي ﷺ وينفض التراب عن رأسه، ويقول: «**وَيْحَ ابْنِ سُمَيَّةَ! تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ**». فيقول عمار: نعوذ بالله من الفتن، نعوذ بالله من الفتن(٢).

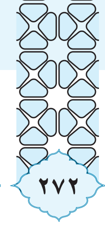
ورأى الصحابة النبي ﷺ وقد علا التراب ثيابه وصدره، وهو يعمل معهم، فيقولون:

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منا العمل المضلَّلُ

---

(١) ينظر: «وفاء الوفاء» للسمهودي (١/ ٢٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٧).



وأحياناً يقطعون كلال العمل بأهازيج العمال إذا عملوا؛ لكنها أهازيج ذات معانٍ سامية، فيشاركهم النبي ﷺ أهازيجهم، ويرتجز معهم.

لاهم إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةْ

فيقول ﷺ: الآخِرَةْ

فيقولون: فَاغْفِرْ لِلأَنْصارِ وَالمُهَاجِرَةْ

فيقول: وَالمُهَاجِرَةْ(١)

وقد تم بناء سور المسجد على مراحل، فحفروا الأساس، ثم بنوه ثلاثة أذرع بالحجارة: ذراع في الأرض، وذراعان فوقها، حتى لا يؤثر السيل إذا جرى في أساس البناء، ثم بنوا فوق الحجارة باللَّبِن والطين، ثم أقاموا الجذوع، وكانت من جذوع النخيل التي كانت في المربد ومن جذوع نخيل الدوم(٢) فجعلوها أعمدة، وصفُّوها في قبلة المسجد، وكانت القبلة باتجاه الشمال إلى بيت المقدس، وكان الارتفاع ـ كما قال النبي ﷺ ـ كعريش موسى عليه السلام(٣)، أي لو مدّ الرجل الطويل يده لنال السقف، ولذا قيل: كان ارتفاعه قامة وبسطة.

ويستشف من الروايات أن الجدار لم يكن يصل إلى السقف، وإنما كان جداراً يقصر قليلاً عن السقف، بحيث يبقى بينه وبين السقف مساحة مفتوحة تسمح بالنور والهواء بقدر ذراع، ـ أي: نصف متر ـ فكان الجدار خمسة أذرع: ذراع في الأرض، وأربعة أذرع فوقها، وذراع هو فراغ بين

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٥٢٤).

(٢) نخيل الدوم: شجرة تشبه النخلة إلا أنها متفرعة الجذوع تنمو في بوادي المدينة، وثمرها صلب يسمى المقل. ينظر: «نور النبراس» (٤/ ٩١)، و«لسان العرب» (١٢/ ٢١٨).

(٣) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٠٦).

الجدار والسقف، فيكون ارتفاع السقف عن الأرض خمسة أذرع، أي: مترين ونصفاً تقريباً.

وأما سقفه، فقد كان شقائق جذوع النخل عرضت بين الأعمدة، ثم صفّ بينها الخشب، ووضع عليه جريد النخيل وسعفه، فكان عريشاً، ووضع فوقه طبقة من الطين تسد خلله، وتحجب الحرارة والمطر، فإذا كان المطر غزيراً وكَفَ السقف، ونفذ الماء إلى أرض المسجد.

وقد صلى النبي ﷺ الفجر في رمضان صبيحة إحدى وعشرين، وكان المطر قد نزل ليلتها، فرأى الصحابة رضي الله عنهم أثر الطين على جبينه وأرنبة أنفه(١).

واستسقى مرة على المنبر، فما نزل منه حتى وكَفَ السقف، وصار الماء يتقاطر على وجهه ولحيته ﷺ(٢).

وجُعلت للمسجد ثلاثة أبواب: باب على اليمين، وباب على اليسار، وباب إلى الجنوب؛ لأن القبلة كانت إلى الشمال، وجعلت عضادات(٣) هذه الأبواب من الحجارة، ولم يكن لها مصاريع تغلق، وإنما كانت فتحة شارعة ليس لها أغلاق، فكان الأعرابي يدخل المسجد براحلته ثم ينيخها فيه(٤)، وكانت الكلاب تقبل وتدبر في المسجد؛ لأنه بلا أبواب(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (٨١٣)، و«صحيح مسلم» (١١٦٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٩٣٣).

(٣) عضادتا الباب: جانبا الباب اللذان يحملانه عن يمين الداخل منه وشماله، يكونان من الخشب، وهنا من الحجارة لأنه لم يكن ثمّ باب. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١٥٧)، و«شرح أبي داود» للعيني (٢/ ٣٥٦).

(٤) «مسند أبي داود الطيالسي» (٢٤٤٩).

(٥) «صحيح البخاري» (١٧٤).

أما أرضه فقد فرشت ببطحاء العرصة الحمراء من وادي العقيق، وذلك لأن البطحاء في أرض المسجد تَشْرب ماء المطر وتَحْفظ تراب الأرض فلا يثور غُبارها، وبنى ﷺ بيوته في الجهة الجنوبية الشرقية: بيت زوجاته عائشة وسودة رضي الله عنهما.

وبعد سنة وستة أشهر حولت القبلة إلى جهة الكعبة، فسقفت الجهة الجنوبية، وبقيت سقيفة الجهة الشمالية صُفّة يأوي إليها الغرباء، والذين عرفوا بأهل الصُّفّة[١].

وببناء المسجد صار للمسلمين مكان عبادتهم الآمن، ومجتمعهم المعلن مع رسول الله ﷺ، وصار المسجد النبوي هو الصورة المقابلة لاجتماع السري في دار الأرقم بمكة، بينما الاجتماع هنا في المسجد في الهواء الطلق، والمجلس المفتوح، حيث لا أبواب ولا حجاب.

وصار المسجد مركز المدينة وملتقى أهلها، فالصلوات الخمس تجمع المسلمين خمس مرات في اليوم، وإمامهم رسول الله ﷺ، يسمعون القرآن بقراءته في صلاتهم وبقراءته لهم في مسجده.

وفي المسجد خُطَبُ النبي ﷺ ومواعظه وتعليمه، وفي المسجد مجلسه الذي يقصدونه، وكان له في المسجد مجلسان معتادان في مصلاه بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس، ومجلس في شرقي المسجد ضحى إلى وقت القيلولة قبيل الظهر.

وكان للنبي ﷺ مع خطبة الجمعة مواعظ عارضة في المسجد يخطب أصحابه بها، وغالباً ما تكون بعد صلاة الفجر أو بعد صلاة الظهر.

---

(١) ينظر: فصل «الرسول ﷺ وأهل الصفة».

وصار الغريب يأتي إلى المدينة فيلقى النبي ﷺ في مسجده ويصلي خلفه، ويجلس مع أصحابه في مجلسه، وبذا قوي التواصل مع القبائل والنواحي، فثم جهة يقصدونها ومكان يلقون فيه النبي ﷺ فيصلُّون معه ويجلسون إليه ويرون حاله، ثم يعودون إلى قومهم وقد وعوا الإسلام برنامج عمل ونظام حياة، قال مالك بن الحويرث: قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ، فَلَبِثْنَا عِنْدَهُ نَحْواً مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِيماً فَقَالَ: «**لَوْ رَجَعْتُمْ إِلَى بِلاَدِكُمْ، فَعَلَّمْتُمُوهُمْ وَأَمَرْتُمُوهُمْ، مُرُوهُمْ فَلْيُصَلُّوا صَلاَةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلاَةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ**»[(١)].

وفي هذا المسجد كانت المدرسة الأولى للمرأة، وذلك بحضور النساء المسجد وشهودهن الصلوات مع رسول الله ﷺ وسماعهن القرآن من تلاوته في الصلاة، وقد أكد النبي ﷺ على عدم منعهن من شهود المساجد والصلاة فيها فقال مخاطباً الرجال: «**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ**»[(٢)]، وقال: «**إِذَا اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةُ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَمْنَعْهَا**»[(٣)].

فكانت النساء يحضرن الصلوات مع رسول الله ﷺ في المسجد كما أخبرت عائشة رضي الله عنها قالت: كُنَّ نِسَاءُ المُؤْمِنَاتِ يَشْهَدْنَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الفَجْرِ مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ، ثُمَّ يَنْقَلِبْنَ إِلَى بُيُوتِهِنَّ حِينَ يَقْضِينَ الصَّلاَةَ، لَا يَعْرِفُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الغَلَسِ[(٤)].

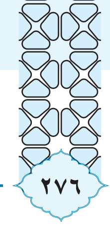
---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٩٠٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٨٧٥)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٧٨)، و«صحيح مسلم» (٦٤٥).



وكان رسول الله ﷺ يراعي حضورهن المسجد فربما قَصَّر الصلاة لأن امرأة معها صبي يبكي ويقول: «**إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**»(١).

وكان ﷺ إذا سلم قام النساء حين يقضي تسليمه، ومكث يسيراً قبل أن يقوم، قال ابن شهاب: فَأَرَى ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ أَنَّ مُكْثَهُ لِكَيْ يَنْفُذَ النِّسَاءُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُنَّ مَنِ انْصَرَفَ مِنَ الْقَوْمِ(٢).

وفي حضور النساء الصلاة في المساجد دورة تدريبية في إقامة الشعائر وحفظ القرآن، والذي كان يتعاهد به الرجال والنساء جميعاً.

وكان لهن مع هذا الحضور مشاركة في السؤال والاستفصال والإجابة على ما يسأله الرسول ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: انْطَلَقَ رسول الله ﷺ يَمْشِي حَتَّى أَتَى مَقَامَهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ وَمَعَهُ صَفَّانِ مِنْ رِجَالٍ، وَصَفٌّ مِنْ نِسَاءٍ، أَوْ صَفَّانِ مِنْ نِسَاءٍ وَصَفٌّ مِنْ رِجَالٍ، فَقَالَ: «**إِنْ أَنْسَانِي الشَّيْطَانُ شَيْئاً مِنْ صَلاَتِي فَلْيُسَبِّحِ الْقَوْمُ وَلْيُصَفِّقِ النِّسَاءُ**»(٣).

وبهذا الحضور حفظت النساء المسلمات قرآناً وذكراً، وتلقين أدباً وعلماً، وكان في هذا تحفيز لهن في المشاركة في حمل همّ الدين والعمل له، فَكُنَّ خير عونٍ لرجالهن على الخير.

---

(١) «صحيح البخاري» (٨٦٨)، و«صحيح مسلم» (٤٧٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٣٧).

(٣) «سنن أبي داود» (٢١٧٤).

خلاصات:

١- مكان المسجد اختيار الله لنبيه محمد ﷺ كما كان الحرم في مكة اختيار الله لنبيه إبراهيم عليه السلام.

٢- وقع المسجد في وسط المدينة تحيط به دورها وأحياؤها فصار مركز المدينة.

٣- تم بناء المسجد بذات النمط المعتاد والسائد في بناء دور المدينة، فلم يكن باذخاً في تشييده ولا دوناً في بنائه.

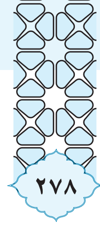
٤- كان بناء المسجد عملاً جماعياً اشترك فيه الصحابة كلهم، والنبي ﷺ يعمل معهم.

٥- صار المسجد مكان العبادة، وملتقى الجماعة، ومجلس الاجتماع المعلن بلا أبواب ولا حجاب.

٦- وفي المسجد كانت خطب النبي ﷺ ومواعظه ومجالس علمه، واستقبال الوافدين عليه.

٧- وكان المسجد المدرسة الأولى للمرأة فيشهد النساء فيه الصلاة، ويسمعن الذكر، والقرآن.





نهار الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم(١)



في هذه السيرة اليومية، نترحل مع ساعات يوم النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كان يعقد صفقاته مع الحياة في كلِّ ثانية؛ في بيته، ومسجده، وطرقات مدينته، وبيوت أصحابه، على حصير مجلسه، وسفرة طعامه، وفراش نومه، وكأنا نعيش معه بساطة الحياة العظيمة، وعفويَّة الحياة الجادَّة، والتوازن بين مناشط الحياة.

إنَّ التاريخ لم يعرف إنجازاً تحقَّق على يد بشر أعظم من الإنجاز الذي تحقَّق على يد النبيِّ الإنسان صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يومه هو الوعاء الزماني للإنجازات الكبرى التي تحقَّقت على يديه.

تتراءى لنا في هذا اليوم سكينة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم نائماً، وحيويَّته جالساً، وتوثبه قائماً، ونسمع صوته الحاني معلماً، وصوته المخبت مصلياً، ونأكل من طعامه القليل الذي يُؤثر به، ونجلس على حصيره الذي يجلس عليه، ونمشي معه في طرقات مدينته، ونترحل مع ساعات يومه ساعة ساعة.

يصدع نور الفجر ظلمة الليل، ويصدح أذان بلال فيبدِّد سكون المدينة،

(١) باختصار من كتاب: «اليوم النبوي» للمؤلف.

ويستيقظ رسول الله ﷺ، فيتناول سواكه فيستاك به، ثم يقول: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُشُورُ**»(١)، ويجيب المؤذِّن بمثل ما يقول(٢)، ثم ينبعث ﷺ، فإن كان به حاجة إلى الغسل اغتسل، وإن كان به حاجة إلى الوضوء توضأ.

ثم يصلِّي ركعتي الفجر؛ صلاةً خفيفة، يقرأ فيها بعد الفاتحة في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وربَّما قرأ بغير ذلك(٣).

ولم يكن ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ تعاهداً منه على هاتين الركعتين، وكان يقول: «**لَهُما أَحَبُّ إِليَّ مِنَ الدُنْيَا وَمَا فِيهَا**»(٤)، فإذا فرغ من صلاته اضطجع على شقِّه الأيمن حتى يحين موعد إقامة الصلاة(٥).

فإذا اجتمع الناس خرج رسول الله ﷺ من بيته، فإذا دخل المسجد قال: «**اللهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ**»(٦).

ثم يقدم في مصلاه فيسوِّي الصفوف، ويقول لأصحابه: «**سَوُّوا صُفوفَكَمْ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُفُوفِ مِنْ تَمَامِ الصَّلاةِ**»(٧)، ثم يصلي صلاة الفجر ويطيل في القراءة ويترسل بقرآن الفجر، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(٨).

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦١١)، و«صحيح مسلم» (٣٨٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٦١٨)، و«صحيح مسلم» (٧٢٦).

(٤) «صحيح مسلم» (٧٢٥).

(٥) «صحيح البخاري» (٦٢٦)، و«صحيح مسلم» (٧٣٦).

(٦) «صحيح مسلم» (٧١٣).

(٧) «صحيح البخاري» (٧٢٣)، و«صحيح مسلم» (٤٣٣).

(٨) «مسند أحمد» (٨٣٦٦).

فإذا أتمَّ صلاته وسلَّم منها قال وهو في مكانه ووجهه تلقاء القبلة: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**»(١)، ثمَّ ينصرف فيقبل على أصحابه بوجهه، ويقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(٢)، ثمَّ يذكر الله بجوامع الذِّكر ويسبِّح الله ويَحْمَدُه ويكبِّره.

ثم تتقارب أطراف الصفوف، فيطيف أصحاب رسول الله ﷺ به وهو جالس في مصلاه، مقبل بوجهه إليهم، فيسفر لهم ضوء الصباح عن ضياء وجه رسول الله ﷺ، وكان أبيضَ وضيئاً، كأنَّ الشمس تجري في وجهه(٣)، يرى الناظرُ في مُحيَّاه بشائرَ الصِّدق، فيتحدث إلى أصحابه.

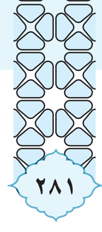
وربما سألهم: «**مَنْ رَأَى مِنْكُم رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَا لَهُ**»(٤)، فيقصُّون عليه رؤاهم فيعبِّرها لهم.

وربَّما حدَّثهم ﷺ برؤيا رآها هو، فيقصُّها عليهم ويعبِّرها لهم(٥).

وربَّما وعظهم بموعظة، وكان يتخوَّلهم بها ويتعاهدهم من غير إملال.

ويتحدث الصحابة في هذا المجلس بين يدي رسول الله ﷺ، فيشاركهم الحديث والاستماع، فربَّما تحدَّثوا عن حياتهم في الجاهليَّة، وما كانوا يقعون فيها من أُحمُوقات الجهل التي تبدَّى لهم عوارها بعد أن

(١) «صحيح مسلم» (٥٩١).
(٢) «صحيح البخاري» (٨٤٤).
(٣) «جامع الترمذي» (٣٦٤٨).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٢٦٩).
(٥) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٨٥).



منَّ الله عليهم بالإسلام، فإذا ذكروها ضحكوا من جهلهم في الجاهلية، ويتبسَّم رسول الله ﷺ معهم[(١)].

ويتفقَّد أصحابه، ويسأل عمَّن غاب منهم، لا يعزب عن باله ولا يسقط من عينه أحد، فلكلٍّ من حضر حظُّه من الحفاوة والرعاية، ولمن غاب حظُّه من الاهتمام والتفقُّد؛ تقوية للحمة المجتمع، وتعميقاً للانتماء.

ولم يكن يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الفجر حتى تطلع الشمس حسناء[(٢)]، فإذا طلعت الشمس وأراد ﷺ الخروج من المسجد قال: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ**»[(٣)]، ثم يذهب ﷺ إلى حُجَر نسائه، وأوَّل شيء يبدأ به إذا دخل بيته السِّواك يطيِّب به فمه الطيِّب المطيَّب[(٤)]، ويسلِّم على أهله قائلاً: «**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَيْفَ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟**». ويطوف على نسائه، يدخل على كلِّ واحدة في حجرتها، يسلِّم عليهنَّ ويدعو لهنَّ، ولا يطيل المكث، وربما دخل على إحداهنَّ وهي في مصلاها، تذكر الله وخرج وهي على حالها من الذِّكر[(٥)].

وربما سأل أهله عن الطعام، فقال: «**هَلْ عِنْدَكُمْ شَيءٌ؟**». فإن كان ثَمَّ طعام قرِّب إليه، وغالباً ما يكون طعاماً خفيفاً كالتمر والأقط، أو شراباً كاللبن أو النَّبيذ[(٦)] ونحو ذلك، وربَّما قال أهله: يا رسول الله، ما عندنا شيء،

(١) «صحيح مسلم» (٦٧٠، ٢٣٢٢).
(٢) «صحيح مسلم» (٦٧٠).
(٣) «صحيح مسلم» (٧١٣).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٥٣).
(٥) «صحيح مسلم» (٢٧٢٦).
(٦) النبيذ هنا هو الماء الذي ينبذ فيه حبات التمر أو قبضات الزبيب حتى يصير طعمه حلواً، وليس هو النبيذ المسكر.

فيقول: «**فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ**»[(١)].

فإذا أتمَّ ﷺ طوافه على نسائه عاد إلى المسجد، فإذا دخله صلَّى تحية المسجد عند سارية وسط الروضة الشريفة، ثم يجلس شرقي المسجد في الروضة الشريفة، مستنداً إلى حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويجتمع إليه أصحابه، وكان هذا اللقاء معهوداً، بحيث أن من أراد النبيَّ ﷺ في هذا الوقت، فإنه يأتي إليه في المسجد.

وقد يقلُّ أصحابه حوله أو يكثرون بحسب فراغهم وظروف حياتهم، فإن كانوا قليلاً تحلَّقوا حوله، وإن كانوا كثيراً جلسوا صفين عن يمينه ويساره، حتى يصل إليه الوافد، ويدنو منه السائل.

وهذا هو مجلس استقبال القادمين من الوفود، فكانوا يلقون النبيَّ ﷺ في هذا المجلس ضحىً.

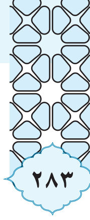
وكان ﷺ يقسِّم بشره وتبسُّمه وإقباله في مجلسه بين أصحابه، حتى يتفرَّقوا عنه، وكلٌّ يظن أنه أكثرهم حظوة عنده.

وقد يطول هذا المجلس أو يقصر بحسب الحال والحاجة، وكان الصحابة يتناوبون على حضور هذا المجلس النبويِّ المبارك حتى لا يفوتهم ما فيه من علم، وما يكون فيه من أمور.

حتى إذا تعالى النهار قام ﷺ، ولم يكن يقوم من مجلسه إلا قال: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»[(٢)]، ثم يتفرَّق أصحابه إلى أعمالهم أو إلى بيوتهم، للقيلولة قبل الظهر.

(١) «صحيح مسلم» (١١٥٤).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٨٥٩).



أما هو ﷺ فقد يرجع إلى بيته لنومة القيلولة، وربما تلقَّته أسواق المدينة ماشياً فيها؛ مجيباً لدعوة، أو قاصداً لزيارة، أو ساعياً في قضاء حاجة من حاجاته.

وربَّما ذهب النبيُّ ﷺ في بعض ضحوات الأيام لقضاء بعض شأنه، أو لزيارة من يرغب زيارته من قرابته أو أصحابه، وكان يؤنس من يزورهم، ويسعهم جميعاً برُّه وحسن خلقه، حتى صبيتهم وصغارهم.

وكان ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويجيب دعوتهم، فتكون زيارته أنساً لنفوسهم، وإكراماً لكبارهم، وبرّاً بصغارهم.

وربَّما ذهب ﷺ إلى بعض بساتين المدينة؛ يجمُّ نفسه فيها، ويستظلُّ بظلِّها، ويشرب من مائها ويجلس فيها إلى خاصة أصحابه، فكان يذهب إلى بيرحاء؛ وهي حديقة لأبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه، فيدخلها ويستظلُّ بها ويشرب من ماءٍ فيها طيِّب[(١)]، وكانت مستقبلة المسجد النبوي؛ شمالاً منه، وربَّما ذهب إلى غيرها من بساتين الأنصار.

وكان يذهب ضحى كلِّ سبت راكباً وماشياً إلى قباء، فيصلي في المسجد[(٢)]، ويأتي إليه أهل قباء فيسلمون عليه.

وكان إذا ذهب إلى قباء ربَّما ذهب إلى بئر أريس، عند مسجد قباء، وهي البئر التي وقع فيها خاتم رسول الله ﷺ في خلافة عثمان رضي الله عنه، ولم يمكن إخراجه منها[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٦١١).

(٢) «صحيح مسلم» (١٣٩٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٨٧٨).

وفي ذهابه ﷺ إلى بساتين المدينة إجمام للنفس واستبراد بظلِّ شجرها عن حرِّ المدينة اللافح، وتطرية للحياة، وتجديد لوتيرة النشاط اليومي، وإيناس لأصحاب هذه البساتين أن يروا رسول الله ﷺ يأوي إلى حوائطهم؛ فيصيبها من بركته وطهوره، وهو المبارك حيثما كان ﷺ.

وربَّما ذهب رسول الله ﷺ إذا تعالى الضحى إلى بيت زوجته التي هو عندها وفي يومها، فإذا دخل بيته كان أوَّل شيء يفعله عند الدخول الذِّكر، والسواك، والسلام على أهل البيت، وربَّما صادف طعاماً فأصاب منه، إذا لم يكن طَعِم في الصباح، وقد يعرض عليه الطعام وهو صائم فيفطر.

وكانت هذه ساعة خلوته في بيته مع أهله، وربَّما أتاه فيها بعض نساء المؤمنات يسألنه عن أمور دينهنَّ ممَّا لا يَجْرُؤنَ على السؤال عنه أمام الرجال، ويكون السؤال بمحضر أمهات المؤمنين، فحفظن للأمة هذه الفتاوى النبويَّة في خاصة أمور النساء، وربَّما زاره في هذا الوقت بعضُ خاصةِ أصحابه لأمر يعرض لهم.

وكان ينام القيلولة إلى قريب من صلاة الظهر، وكانت قيلولته في بيوته وعند أزواجه، ولم يكن يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه.

وربَّما دخل ونام القيلولة عند أمِّ سُليم أو أختها أم حرام وهن من محارمه[(١)].

وإذا زالت الشمس أذَّن بلال رضي الله عنه للظهر، فيستيقظ رسول الله ﷺ من قيلولته إن كان لا يزال نائماً، ويجيب المؤذن بمثل ما يقول، ويتوضأ إن كان به حاجة إلى وضوء، ثمَّ يصلِّي في بيته أربع ركعات[(٢)]، وكان يقول: «**إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ**»[(٣)]، ثم

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٩١٢).
(٢) «صحيح البخاري» (١١٨٢).
(٣) «سنن أبي داود» (١٢٧٠).

ينتظر الصلاة حتى يؤذنه بلال رضي الله عنه، فيخرج إلى الناس، وربَّما قبَّل إحدى زوجاته وهو خارج إلى الصلاة[١]، فإذا خرج أقام بلال رضي الله عنه الصلاة.

وخرج مرَّة، وهو حامل الحسن أو الحسين[٢]، وخرج مرة وعلى عاتقه أمامة بنت بنته زينب[٣]، وكأنما يقدم للبشرية درساً في محبة الأطفال ورحمتهم.

وكان يصلِّي الظهر في أوَّل وقتها[٤]، فإذا فرغ من صلاته أقبل على أصحابه، فإن كان قد نزل أمر أو عرض عارض خطب الناس بعد صلاة الظهر؛ لأنها وقت اجتماع الناس؛ إذ هم قد نهضوا من قيلولتهم، فالاجتماع فيها أكثر، والنفوس مستريحة واعية لما يقال.

وهذه الخطب تكون في الأمر العارض والشأن العاجل الذي لا يحتمل التأخير إلى يوم الجمعة.

ثم يعود ﷺ إلى بيته الملاصق للمسجد، فيصلِّي راتبة الظهر ركعتين[٥]، ثمَّ يخرج إلى أصحابه، وربَّما جلس لهم إلى العصر، وربَّما ذهب في وقت الظهيرة لقضاء بعض حاجات المسلمين.

فإذا أُذِّنَ لصلاة العصر، انتظر حتى يجتمع الناس لها، فإذا اجتمعوا خرج فصلَّى العصر، وكان يصليها في أوَّل وقتها[٦]، وكان يجعل قراءته

(١) «سنن أبي داود» (١٧٩).
(٢) «سنن الكبرى» للنسائي (١١٤١).
(٣) «صحيح البخاري» (٥١٦)، و«صحيح مسلم» (٥٤٣).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٩٥)، و«صحيح مسلم» (٦٤٧).
(٥) «صحيح البخاري» (١١٦٥)، و«صحيح مسلم» (٧٢٩).
(٦) «صحيح البخاري» (٥٤٤)، و«صحيح مسلم» (٦١١).

فيها على النِّصف من صلاة الظهر[١]، فإذا انصرف من صلاته دخل على نسائه، فيطوف عليهنَّ جميعاً، فيدنو من كلِّ امرأة منهنَّ في مجلسه من غير مسيس، حتى ينتهي إلى التي هو في يومها، فيبيت عندها، وربَّما اجتمعن كلُّهنَّ في بيت التي هو عندها، فيقضي فترة بعد العصر غالباً في بيته ومع نسائه، وكما يجري في مجلسه مع زوجاته الأنس الزوجي، تجري المذاكرة العلميَّة والأسئلة والاستشكال، ويتلقَّى ذلك رسول الله برحابة صدر وحسن تلقٍّ، وتُراجِعُه زوجاته فيما أشكل عليهنَّ، وما كانت هذه المراجعة بين المصطفى ﷺ وزوجاته لتتم لولا أنه استثار اليقظة العقلية، وفتح آفاق التفكير، وجعل المراجعة والتفاعل العقلي طريق القناعة واليقين.

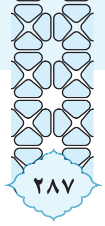
وربَّما دعاه بعض أصحابه بعد صلاة العصر إلى الأمر يحبُّون أن يشهده معهم، فيجيبهم لذلك، فقد دعاه رجل من بني سلمة بعد صلاة العصر، فقال: يا رسول الله، إنا نريد أن ننحر جزوراً لنا، ونحبُّ أن تحضرها ـ وهذه من مناسبات السرور؛ لقلة اللحم عندهم ـ فقال ﷺ: «**نَعَمْ**». فانطلق وانطلق معه بعض أصحابه، فوجدوا الجزور لم تنحر فنُحرت، ثم قُطِّعت، ثم طبخ منها، فأكلوا قبل أن تغيب الشمس[٢]، فشاركهم النبيُّ ﷺ هذه الاحتفاليَّة والابتهاج بنحر جزور، فيتسع سرورهم بحضوره، ويكبر فرحهم بمشاركته، وليتحوَّل الفرح من نحر جزور وأكلها إلى حضور النبيِّ ﷺ نحر الجزور ومشاركتهم أكلها.

وكان وقت العصر إلى غروب الشمس وأوَّل الليل هو وقت أذكار المساء.

---

(١) «سنن أبي داود» (٨٠٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٦٢٤).



ليل الرسول ﷺ(١)



تغرب الشمس ململمة آخر أنوار الضياء، ويصدح أذان بلال لصلاة المغرب، فكما يصحب التكبير أول أنوار الفجر، فكذلك يصحب التكبير أول ستور الظلام، ففاتحة النهار وفاتحة الليل ذكر وتكبير، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، فلا يلبث رسول الله ﷺ في بيته إلا قليلاً ثم يخرج للصلاة، فإذا خرج وجد أصحابه قد ابتدروا السواري يصلُّون خلفها ركعتين(٢)، حيث كان ﷺ يرغِّب أصحابه فيهما ويقول: «**صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ**»(٣)، ولم يكن بين أذان المغرب وإقامتها إلا وقت قليل، فإذا خرج أقيمت الصلاة فصلى المغرب، وكان يصلي المغرب أوَّل وقتها(٤)، وينصرف منها قبل حلول الظلام، وكانت صلاته وقراءته فيها قصيرة غالباً(٥)،

(١) باختصار من كتاب: «اليوم النبوي» للمؤلف.
(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٣)، و«صحيح مسلم» (٨٣٧).
(٣) «صحيح البخاري» (١١٨٣).
(٤) «صحيح البخاري» (٥٦١)، و«صحيح مسلم» (٦٣٦).
(٥) «سنن أبي داود» (٨١٤).

وربَّما أطال القراءة أحياناً على ندرة، فقد صلَّى مرَّة فقرأ بالطور[١]، ومرَّة قرأ بالمرسلات[٢].

ولم يكن من عادته ﷺ أن يتحدَّث بعدها إلى أصحابه كما يتحدَّث في أعقاب الصلوات؛ وذلك لحاجة الناس إلى الانصراف إلى عَشائهم وراحتهم، فإذا صلَّى المغرب عاد إلى بيته فصلَّى فيه ركعتين سنة المغرب[٣]، ثم تعشَّى، وهذا هو وقت العَشاء في الشتاء غالباً، وكان يأخذ معه إلى عَشائه من الفقراء من أهل الصفة فربَّما أخذ ﷺ عشرة فذهب بهم إلى بيته، ليتعشَّى معهم، حسب ما يجد من طعام يطعمه[٤].

وكان يأمر أصحابه أن يأخذوا معهم إلى عَشائهم فقراء المسلمين، فيقول: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ**»[٥].

فإذا تعشوا انصرفوا ويبقى رسول الله ﷺ في بيته إلى أذان العشاء، وكان لا يحبُّ النوم قبلها، ولا الحديث بعدها[٦]، فإذا أذَّن بلال رضي الله عنه لصلاة العِشاء لم يُعجِّل ﷺ بالصلاة، وإنما ينتظر، فإن رآهم اجتمعوا عجَّل،

(١) «صحيح البخاري» (٧٦٥)، و«صحيح مسلم» (٤٦٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٢٩)، و«صحيح مسلم» (٤٦٢).
(٣) «صحيح البخاري» (١١٦٥)، و«صحيح مسلم» (٧٢٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٦٠٢).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٥٨١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٧).
(٦) «صحيح البخاري» (٧٧١)، و«صحيح مسلم» (٦٤٧).

وإن رآهم تأخروا أخَّر[١]، وكان يحب تأخيرها لولا خوف المشقة على الناس[٢]، وكان أخفَّ الناس صلاة في تمام[٣].

ثم يرجع النبيُّ ﷺ إلى بيته فيصلي ركعتين راتبة العشاء[٤]، ثم يجلس سويعةً يتحدَّث مع أهله يؤانسهم ويسمر معهم قبل أن ينام، وربَّما ذهب يسمر عند بعض أصحابه، وغالباً ما يكون عند أبي بكر وعمر للنظر في حاجة المسلمين، فإذا فرغوا عاد ﷺ إلى بيته ومشيا معه يشيعانه حتى يدخل حجرته.

فإذا دخل بيته وأراد أن ينام تخفَّف من ثيابه ولبس إزاراً خفيفاً هو لباس نومه، وكان فراشه ووساده من جلد حشوه ليف، ثم يؤانس زوجته بالحديث معها سُويعة في هدأة الليل وسكون المدينة الجميل، في عطاء وجداني يُفيض على النفس أنواع المسرَّة والإبهاج، ويعطي العلاقة الزوجية عمقاً وجدانيّاً راسخاً في النفس.

فإذا أوى إلى فراشه قال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ**»[٥]، ويضع سواكه عند رأسه؛ ليستاك به إذا استيقظ، وكان لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا بدأ بالسواك، وكان يتعاهد به فمه الطيِّب المطيَّب تعاهداً شديداً[٦]، فإذا أخذ مضجعه اضطجع

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٦٤٦).
(٢) «سنن أبي داود» (٤٦).
(٣) «صحيح مسلم» (٤٦٩).
(٤) «صحيح البخاري» (١١٦٥)، و«صحيح مسلم» (٧٢٩).
(٥) «صحيح مسلم» (٢٧١٥).
(٦) «صحيح البخاري» (٢٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥).

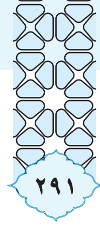
على شقِّه الأيمن، ووضع يده اليمنى تحت خدِّه ثم قال: «**اللهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا**»[١]، وربَّما قرأ سوراً من القرآن كالزمر والإسراء، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، نَفَثَ فِي يَدَيْهِ وَقَرَأَ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَمَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ[٢]. فإذا تقلَّب في فراشه من الليل قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ**»[٣].

ولا ينقطع لهجه ﷺ بالتسبيح في أوقات استيقاظه، قال ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: كان إذا صلَّى رسول الله ﷺ العشاء دخل بيته، فأجلس ببابه أقول لعلَّها أن تحدث لرسول الله حاجة، فما أزال أسمعه يقول: «**سُبْحَانَ الله، سُبْحَانَ الله، سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ**»، حَتَى تَغْلِبَنِي عَيْنِي فَأَرْقُدُ[٤].

فإذا انتصف الليل استيقظ ﷺ، ومسح النوم عن وجهه بيده، ويتناول سواكه فيدلك به فمه الطَّيِّب المبارك، ويرفع نظره إلى السماء، ينظر بتفكُّر في هدوء الليل وسكونه إلى عظمة الله في خلقه، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[٥]، حتى يختم سورة آل عمران.

ثم يقوم ﷺ إلى قربة معلَّقة فيطلق رباطها، ويسكب الماء منها في

(١) «صحيح البخاري» (٦٣١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٠١٧).
(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٧٠٠).
(٤) «مسند أحمد» (١٦٥٧٩).
(٥) «صحيح البخاري» (٤٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦).



قدح عنده، ثمَّ يتوضأ وضوءاً مقتصداً سابغاً، ثم يلبس إزاره ورداءه، ويلهج لربِّه بالذِّكر والتسبيح والتعظيم قبل أن يبدأ صلاة التهجد[١].

فإذا قام إلى صلاته، استفتحها استفتاح المعظِّم لربِّه، المحبِّ له، المشتاق إليه، فاستفتاحه جوامع التعظيم والحمد والثناء، وكان يبتدئ قيامه بركعتين خفيفتين، ثم يصلي صلاةً يطيل فيها القيام والركوع والسجود[٢]، فصلاته في الليل أطول صلاته استفتاحاً وقياماً ودعاءً، ويقرأ قراءة مترسِّلة مرتَّلة، لا يمرُّ بآية رحمة إلا سأل، ولا آية عذاب إلا استعاذ، ولا آية تسبيح إلا سبَّح[٣]، فإذا ركع أطال الركوع، وإذا سجد أطال السجود، فيسجد السجدة قدر خمسين آية قبل أن يرفع رأسه[٤].

ولا يزال نبيُّك ﷺ يُقطِّع آناء الليل بين قراءة خاشعة، ومسألة ضارعة، وتسبيح قدسي، إلى أن يبقى سدس الليل.

فإذا أتمَّ ﷺ قيامه وأراد أن يوتر أيقظ زوجته لتوتر معه[٥]، وكان يوتر بثلاث ركعات يقرأ في الأولى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٦].

وكان ﷺ يصلِّي في حجرته التي زوي عنها ترف العيش ونعيم الدنيا، فكان يصلِّي فيها على حصير صغير بقدر ما يسجد عليه، وربَّما صلَّى ولا

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٨)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

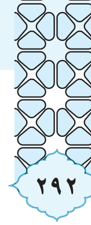
(٢) «سنن أبي داود» (١٣٢٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٢٠).

(٤) «سنن أبي داود» (١٣٣٦).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

(٦) «سنن أبي داود» (١٤٢٣).



فراش له إلا فراش زوجته، فيصلِّي وهي معترضة أمامه[١].

وربَّما خرج في الليل وقت التهجُّد إلى بيت ابنته فاطمة وزوجها عليٍّ عليهما السلام، فيطرقهما ويناديهما: «**أَلَا تَقُومَانِ فَتُصَلِّيَان؟**»[٢]، وكان في آخر حياته يخرج في الليل إلى البقيع، فيسلم على أهل القبور ويدعو لهم[٣].

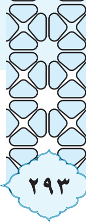
فإذا تدافعت ساعات الليل، ولم يبق من الليل إلا صبابته، وسدسه الأخير، أوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى فراشه؛ ليريح البدن الشريف بعد سبح ليل طويل، ذكراً وصلاة ودعاء وتعاهداً للأقارب الأحياء، وللأصحاب الأموات، فيهجع هجعة يريح بها بدنه بعد القيام، ويهيِّئه لاستقبال صلاة الصبح وعمل النهار بنشاط وإقبال، فتتقصَّف سُويعة السَّحَر، ويظلُّ صلى الله عليه وآله وسلم في نومته تلك حتى يصدع نور الفجر ظلمة الليل؛ ويصدع أذان بلال سكون المدينة، فيستيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويبدأ يوم نبويٌّ جديد، معطَّر بأنفاس النبوَّة، منوَّر بأنوار الرِّسالة.



(١) «صحيح البخاري» (٣٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).

(٣) «صحيح مسلم» (٩٧٤).



الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله وسلم والطَّعَامُ[(١)]



ذكر اللهُ الأنبياء فذكر من شأنهم أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وذكر عيسى ابن مريم وأمّه عليهما السلام فقال: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

وذلك للتأكيد على أن الرسل بشر لهم احتياجات البشر، وفيهم طبائع البشر ليكمل الاقتداء بهم، ولذا فإنا نجد في تعامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الطعام هدياً وهداية ومن ذلك:

١- كان طعام النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طعام البيئة، وطريقته فيه هي طريقة البيئة، فيأكل مما يأكل منه العرب في غرب الجزيرة في مكة والمدينة فطعامهم البر والشعير والتمر، وفاكهتهم الرطب والعنب، وإدامهم اللحم والسمن إن وجد، وحلواؤهم العسل والتمر ونحو ذلك من مطعوماتهم، والتي يلاحظ فيها؛ محدوديتها فليست كثيرة التنوع، وبساطة تركيبها، وليس فيها تفنن في مزج أنواع الطعام، حتى إن ألذ طعامهم وأطيبه هو الثريد وهو الخبز باللحم، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ**

(١) ينظر في ذلك: كتاب «الأطعمة والأشربة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم» لأستاذنا د. محمد بن فارس الجميل.

عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[١]، وكأن المقصود الرئيس بالطعام هو الشبع والقوت وليس التفنن والتنوق في أنواعه، فإن ذلك لا يتحقق إلا مع الوفرة والرفاهية وكثرة الخيارات، وقد لاحظت ذلك فيما أدركناه من أنواع الأكل في نجد[٢] حين كانت على حالها الأولى، أي: كانت تشبه المدينة بيئة وحالاً، فكانت الأطعمة محدودة في أنواعها، بسيطة في تركيبها، وتتكرر في الأيام وقلَّما تتنوع، ولا يوضع على المائدة إلا نوع واحد من الطعام.

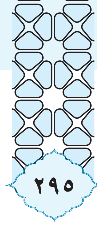
ومما روي أنه ﷺ أكل الحَلْوَى وَالعَسَلَ، وَكَانَ يُحِبُّهُمَا، وَأَكَلَ لَحْمَ الجَزُورِ وَالضَّأْنِ وَالدَّجَاجِ، وَلَحْمَ الحُبَارَى، وَلَحْمَ حِمَارِ الوَحْشِ وَالأَرْنَبِ، وَطَعَامَ البَحْرِ، وَأَكَلَ الشِّوَاءَ، وَأَكَلَ الرُّطَبَ وَالتَّمْرَ، وَشَرِبَ اللَّبَنَ خَالِصاً وَمَشُوباً، وَالسَّوِيقَ، وَالعَسَلَ بِالمَاءِ، وَشَرِبَ نَقِيعَ التَّمْرِ، وَأَكَلَ الخَزِيرَةَ وَهِيَ حِسَاءٌ يُتَّخَذُ مِنَ اللَّبَنِ وَالدَّقِيقِ، وَأَكَلَ القِثَّاءَ بِالرُّطَبِ وَأَكَلَ الأَقِطَ، وَأَكَلَ التَّمْرَ بِالخُبْزِ، وَأَكَلَ الخُبْزَ بِالخَلِّ، وَأَكَلَ الثَّرِيدَ وَهُوَ الخُبْزُ بِاللَّحْمِ، وَأَكَلَ الخُبْزَ بِالإِهَالَةِ وَهِيَ الوَدَكُ، وَهُوَ الشَّحْمُ المُذَابُ، وَأَكَلَ مِنَ الكَبِدِ المَشْوِيَّةِ، وَأَكَلَ القَدِيدَ، وَأَكَلَ الدُّبَّاءَ المَطْبُوخَةَ وَكَانَ يُحِبُّهَا، وَأَكَلَ الثَّرِيدَ بِالسَّمْنِ، وَأَكَلَ الجُبْنَ، وَأَكَلَ الخُبْزَ بِالزَّيْتِ، وَأَكَلَ البِطِّيخَ بِالرُّطَبِ، وَأَكَلَ التَّمْرَ بِالزُّبْدِ وَكَانَ يُحِبُّهُ[٣].

وقد كان النبي ﷺ يأكل من هذه الأنواع لأنها هي المتيسّرة المتاحة في بيئته، ولم يكن يختص نفسه بشيء يجلب له خاصة من نواحي البلاد،

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٣٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣١).

(٢) هي المنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية، وتشبه في بيئتها بيئة المدينة النبوية، ولم يتغير نمط الحياة فيها إلا في القرن الأخير.

(٣) «زاد المعاد» (١/ ١٤٢).



ولو شاء ذلك لفعل كما يفعل الملوك حيث تجلب لهم الأطايب التي لا تكون في بلادهم، ولكن كان يأكل مما يأكل الناس حوله ولم يترفّه بشيء يختص به عنهم.

٢- وكان الأكل بقدر الحاجة ولا يتجاوز إلى الامتلاء والاكتظاظ، ولذا قال: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ**»[(١)].

وقال جابرُ بْنُ عَبْدِ الله: كُنْتُ جَالِساً فِي دَارِي، فَمَرَّ بِي رَسُولُ الله ﷺ، فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَى بَعْضَ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَدَخَلَ ثُمَّ أَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ الحِجَابَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «**هَلْ مِنْ غَدَاءٍ؟**». فَقَالُوا: نَعَمْ، فَأُتِيَ بِثَلَاثَةِ أَقْرِصَةٍ، فَوُضِعْنَ عَلَى نَبِيٍّ[(٢)]، فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ قُرْصاً، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ قُرْصاً آخَرَ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، ثُمَّ أَخَذَ الثَّالِثَ، فَكَسَرَهُ بِاثْنَيْنِ، فَجَعَلَ نِصْفَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَنِصْفَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ مِنْ أُدُمٍ؟**». قَالُوا: لَا إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ، قَالَ: «**هَاتُوهُ، فَنِعْمَ الإِدَامُ الخل**»[(٣)]، وهذا ثناء عليه بحسب الحال الحاضر لا أنه تفضيل له على غيره.

٣- وكان يأكل ما تيسّر ومَا عَابَ طَعَاماً قَطُّ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِلَّا تَرَكَهُ[(٤)]، ولا تجد في طريقته في الأكل شدة التشهّي والتنوع في المطاعم بل يأكل الموجود ولا يتطلّب المفقود.

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٣٨٠).

(٢) أي: وضع على شيء مرتفع عن الأرض. ينظر: «النهاية» (٥/ ١١).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٥٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٥٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٤).

وإذا جاء إلى أهله قال: «هَلْ عِنْدَكُمْ طَعَامٌ؟». فما وجده ميسوراً أكله، وربما قال لهم: «هَلْ عِنْدَكُمْ طَعَامٌ؟». فيقولون: لَا، فيقول: «إِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ»[١].

٤- ومرَّت به ﷺ حالات من قلة الطعام حتى كان يمر به الشهران وما أوقد في بيته نار يطبخ عليها وإنما كان طعامهم التمر والماء واللبن[٢]، ومرت به أوقات يقل الطعام حتى لا يكون في بيته ما يأكله ذو كبد رطبة، وجاءه مرة ضيف فأرسل إلى بيوت زوجاته يسأل: «هَلْ عِنْدَكُنَّ طَعَامٌ؟»، فكلهن قلن: لا، والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء[٣].

ومرَّ به أبو طلحة وهو يقرئ أهل الصفة القرآن فرأى فيه أثر الجوع وسمع صوته ضعيفاً فأمر أم سليم فصنعت قرص شعير ودعته إليه فجاء هو وأهل الصفة معه ودعا عليه وبرَّك فأكلوا منه جميعاً[٤].

وأما ربط الحجر على البطن من الجوع فهذا إنما حصل للنبي ﷺ وأصحابه نادراً كما حصل عند حفر الخندق[٥] وليست حالة متكررة، ويفعل ذلك على عادة العرب إذا احتاجوا للعمل وهم جياع ربطوا حجراً مسطحاً على البطن، ويرون أنه يشد الصلب ويعين على العمل.

وفعل ذلك النبي ﷺ معهم لأنه كان يشاركهم حالهم هذه في الجوع والعمل.

وهذه حالات عارضة وليست الحال الدائمة وأكثرها كان في أول الهجرة

(١) «سنن أبي داود» (٢٤٥٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٧٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٥٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).

(٥) «صحيح البخاري» (٤١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).

حين قدم المهاجرون ولم تكن مؤونة المدينة تكفيهم، وبعد فتح بني النضير ثم خيبر كثر الطعام حتى كان يدخر في بيوت أزواجه قوت سنة.

وربما عرضت قلة الطعام في وقت من السنة وهو أول الصيف حيث تكون ثمرة العام الماضي قد أكلت وثمرة هذه السنة لم تنضج بعد، وهذا معروف في بلاد النخيل في الجزيرة العربية ويسمونها في نجد القَعدَة، أي فترة ما بين الثمرتين، وأحسب أن هذا هو الوقت والسبب الذي خرج فيه الرسول وأبو بكر وعمر في الظهيرة في يوم شديد الحر من الجوع ثم التقوا في الطريق فقال النبي ﷺ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**». قَالَا: الجُوعُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**». فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ المَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحباً وَأَهْلاً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ المَاءِ، إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ لله مَا أَحَدٌ اليَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافاً مِنِّي، فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ المُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِيَّاكَ، وَالحَلُوبَ**». فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ العِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**»[١]، وذكر البسر والرطب عند الأنصاري في نخله يُبيِّن أنهم في أول الصيف وبداية نضج الثمرة قبل أن تطيب كلها وتكثر.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٣٨).

٥- ويظهر من حالهم أن وجبات الطعام اليومية وجبتان: الغداء والعشاء، والغداء: ما يؤكل في الغدوة وهي أول النهار وهو ما يسمى في وقتنا: الإفطار.

والعشاء: هو ما يؤكل في العشي[١] بعد العصر أو بعد المغرب، وكأن وجبة العصر تكون في الصيف حين يطول النهار، ووجبة المغرب تكون في الشتاء حين يقصر النهار.

٦- وكان ﷺ يتجنَّب من الأطعمة ما له رائحة قوية؛ كالثوم والبصل فيمتنع عن أكلها ولا ينهى عنها، ولكن ينهى مَن أكلها من دخول المساجد حتى لا يؤذي عُمّارها من الملائكة والمصلين برائحتها[٢].

فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصارِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أُتِيَ بِطَعَام أَكَلَ مِنْهُ، وَبَعَثَ بِفَضْلِهِ إِلَيَّ، وَإِنَّهُ بَعَثَ إِلَيَّ يَوْماً بِفَضْلَةٍ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهَا، لِأَنَّ فِيهَا ثُوماً، فَسَأَلْتُهُ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ مِنْ أَجْلِ رِيحِهِ**». قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا كَرِهْتَ[٣].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ ثُوماً أَوْ بَصَلاً فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ لِيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ**». وَإِنَّهُ أُتِيَ بِبَدْرٍ يَعْنِي طَبَقاً، فِيهِ خَضِرَاتٌ مِنْ بُقُولٍ، فَوَجَدَ لَهَا رِيحاً، فَسَأَلَ عَنْهَا فَأُخْبِرَ بِمَا فِيهَا مِنَ البُقُولِ، فَقَالَ: «**قَرِّبُوهَا**». فَقَرَّبُوهَا إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ كَانَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ كَرِهَ أَكْلَهَا قَالَ: «**كُلْ فَإِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجِي**»[٤].

---

(١) العشي من زوال الشمس إلى المغرب، ومن المغرب إلى العِشاء. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٤٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٥٣)، و«صحيح مسلم» (٥٦١).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٥٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٧٣٥٩)، و«صحيح مسلم» (٥٦٤).

٧- وكان يتجنَّب ما تعافه نفسه لعدم الإلف والعادة، كما تجنب أكل الضب الذي قدم إليه مشوياً فلم يأكله: قال له خالد: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: «**لَا، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ**»[(١)]، فاجترَّه خالد فأكله.

والضب يوجد بأرض نجد، ويأكله أهلها لقلة اللحم عندهم، ولكن منظره بشعٌ كأنه تمساح، وطعمه غير مستساغ عند من لم يعتده، ولذا عافته نفس النبي ﷺ، فأُكِلَ على مائدته ولم يأكله.

٨ - وكان يأكل على الأرض على عادة العرب في زمانه حيث لم يكونوا يأكلون على الخوان[(٢)] وإنما يبسطون الطعام على السفرة، وهي فراش الطعام يكون من جلد أو قماش أو حصير مدور من سعف النخيل.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض[(٣)]، وقَالَ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا عَلِمْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَكَلَ عَلَى سُكْرُجَةٍ[(٤)] قَطُّ، وَلاَ خُبِزَ لَهُ مُرَقَّقٌ قَطُّ، وَلاَ أَكَلَ عَلَى خِوَانٍ قَطُّ. قِيلَ لِقَتَادَةَ: فَعَلاَمَ كَانُوا يَأْكُلُونَ؟ قَالَ: عَلَى السُّفَرِ[(٥)].

ولم يكن يأكل متكئاً وإنما يجلس على طعامه وَهُوَ مُقْعٍ[(٦)]، وَيُذْكَرُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ لِلْأَكْلِ مُتَوَرِّكاً عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَيَضَعُ بَطْنَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٣٩١)، و«صحيح مسلم» (١٩٤٦).

(٢) هو ما يرفع عليه الطعام مثل الطبلية والطاولة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٩).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (١٢٤٩٤).

(٤) إناءٌ صغيرٌ يُؤكل فِيهِ الشَّيْءُ القليلُ مِنَ الأُدْم. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٨٤).

(٥) «صحيح البخاري» (٥٣٨٦).

(٦) «سنن أبي داود» (٣٧٧١)، والإقعاء: إلصاق الأليتين بالأرض وينصب ساقيه، وقيل: هو أن يجلس على وركيه مستوفزاً. ينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١٥/ ٣٥٩).

عَلَى ظَهْرِ قَدَمِهِ اليُمْنَى تَوَاضُعاً لِرَبِّهِ ﷻ، وَأَدَباً بَيْنَ يَدَيْهِ، وَاحْتِرَاماً لِلطَّعَامِ وَلِلْمُؤَاكِلِ[١].

وعن عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ، قَالَ: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَصْعَةٌ[٢] يُقَالُ لَهَا الغَرَّاءُ يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بِتِلْكَ القَصْعَةِ وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا فَالتَفُّوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَا هَذِهِ الجِلْسَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ الله جَعَلَنِي عَبْداً كَرِيماً، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً عَنِيداً»**. ثُمَّ قَالَ: **«كُلُوا مِنْ حَوَالَيْهَا، وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا، يُبَارَكْ فِيهَا»**[٣].

وكان يأكل بأصابعه الثلاث، ويلعقها إذا فرغ[٤]، ولم يكن لهم مناديل يمسحون بها أيديهم، ولم يكن من عادتهم غسل أيديهم كلما أكلوا، فربما غسلوها وربما دعكوها بالتراب ثم نفضوها.

عن عَبْدِ الله بْنِ الحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ الزُّبَيْدِيِّ، قَالَ: أَكَلْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ شِوَاءً فِي المَسْجِدِ، فَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَأَدْخَلْنَا أَيْدِينَا فِي الحَصَى، ثُمَّ قُمْنَا نُصَلِّي، وَلَمْ نَتَوَضَّأْ[٥].

وكان يغسل فمه بعد كل طعام دسم فعن ابن عباس أن النبي ﷺ شرب لبناً فمضمض وقال: **«إِنَّ لَهُ دَسَماً»**[٦].

٩- ومن آداب الأكل ما علمه عمر بن أبي سلمة قال: كُنْتُ غُلَاماً فِي

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٠٣).

(٢) القصعة: إناء طعام كبير يشبع العشرة. «تاج العروس» (٢٤/ ٥).

(٣) «سنن أبي داود» (٣٧٧٣)، و«سنن ابن ماجه» (٣٢٦٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٤٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣١).

(٥) «سنن ابن ماجه» (٣٣١١).

(٦) «صحيح البخاري» (٢١١)، و«صحيح مسلم» (٣٥٨).

حَجْرِ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**». فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ(١).

١٠- وقد كان الطعام يبارك بين يديه، ولذا جرت معجزات تكثير الطعام وتكررت وشهدها كثير من الصحابة، منها:

أ - عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أُتِيَ بِقَصْعَةٍ فِيهَا ثَرِيدٌ. فَأَكَلَ وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَلَمْ يَزَلِ الْقَوْمُ يَتَدَاوَلُونَهَا إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الظُّهْرِ يَأْكُلُ كُلُّ قَوْمٍ، ثُمَّ يَقُومُونَ، وَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَتَعَاقَبُونَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَلْ كَانَتْ تُمَدُّ بِطَعَامٍ؟ قَالَ: أَمَّا مِنَ الأَرْضِ فَلَا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَانَتْ تُمَدُّ مِنَ السَّمَاءِ(٢).

ب - وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ، لَمَّا رَأَى رَسُولَ الله ﷺ طَاوِياً، جَاءَ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ طَاوِياً فَهَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدَنَا نَحْوُ مُدَّيْنِ مِنْ دَقِيقِ شَعِيرٍ، قَالَ: فَاعْجِنِيهِ وَاطْبُخِيهِ عَسَى أَنْ نَدْعُوَ النَّبِيَّ ﷺ يَأْكُلُ مِنْهُ. فَعَجَنْتُهُ وَخَبَزَتْهُ وَجَاءَ قُرْصٌ، فَقَالَ لِي: ادْعُ رَسُولَ الله. فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ أُنَاسٌ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَبُو طَلْحَةَ يَدْعُوكَ. فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**أَجِيبُوا أَبَا طَلْحَةَ**». فَجِئْتُ مُسْرِعاً حَتَّى أَخْبَرْتُهُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالَ: وَالله لَرَسُولُ الله أَعْلَمُ بِمَا فِي بَيْتِي مِنِّي. فَاسْتَقْبَلَهُ أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ: وَالله مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُرْصٌ رَأَيْتُكَ طَاوِياً، فَأَمَرْتُ أُمَّ سُلَيْمٍ فَجَعَلَتْ لَكَ قُرْصاً. فَدَعَا بِالْقُرْصِ، وَدَعَا بِجَفْنَةٍ، فَوَضَعَهُ فِيهَا وَقَالَ:

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢١).

(٢) «مسند أحمد» (٢٠١٣٥).

«**هَلْ مِنْ سَمْنٍ؟**». فَقَالَ: أَبُو طَلْحَةَ: قَدْ كَانَ فِي العُكَّةِ[(١)] شَيْءٌ. قَالَ: فَجَاءَ بِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ يَعْصِرَانِهَا حَتَّى خَرَجَ شَيْءٌ فَمَسَحَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ سَبَّابَتَهُ، ثُمَّ مَسَحَ بِالقُرْصِ، ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ الله**». فَانْتَفَخَ القُرْصُ، فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَالقُرْصُ يَنْتَفِخُ حَتَّى رَأَيْتُ القُرْصَ فِي الجَفْنَةِ يَتَمَيَّعُ[(٢)] فَقَالَ: «**ادْعُ لِي عَشَرَةً مِنْ أَصْحَابِي**». فَدَعَوْتُ لَهُ عَشَرَةً، فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ القُرْصَ وَقَالَ: «**كُلُوا بِسْمِ الله**». فَأَكَلُوا مِنْ حَوَالِيِّ القُرْصِ حَتَّى شَبِعُوا، فَلَمْ يَزَلْ يَدْعُو عَشَرَةً عَشَرَةً يَأْكُلُونَ ذَلِكَ القُرْصَ حَتَّى أَكَلَ مِنْهُ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ رَجُلاً مِنْ حَوَالَيِّ القُرْصِ حَتَّى شَبِعُوا قَالَ: وَإِنَّ وَسَطَ القُرْصِ حَيْثُ وَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ كَمَا هُوَ[(٣)].

ج - وعن جابر بْن عَبْدِ الله، قال: لَمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِرَسُولِ الله ﷺ خَمَصاً[(٤)]، فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ لَهَا: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ الله ﷺ خَمَصاً شَدِيداً، فَأَخْرَجَتْ لِي جِرَاباً فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ، قَالَ: فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتْ، فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي، فَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا قَدْ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنَتْ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ فِي نَفَرٍ مَعَكَ، فَصَاحَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِراً قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُوراً فَحَيَّ هَلاً بِكُمْ**». وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَتَكُمْ**

---

(١) العُكّة: وعاء من جلود مستدير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٨٤).

(٢) أي: يتفتت ويسيل لكثرة السمن. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٨١).

(٣) «صحيح ابن حبان» (٥٢٨٥).

(٤) خمصاً: أي ضموراً فِي بَطْنه من الْجُوع. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١١٤).

حَتَّى أَجِيءَ». فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْدمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ لِي، فَأَخْرَجْتُ لَهُ عَجِينَتَنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «**ادْعِي خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا**». وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِالله لَأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَتَنَا لَتُخْبَزُ كَمَا هُوَ[1].

د - وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسِيرٍ، فَنَفِدَتْ أَزْوَادُ الْقَوْمِ، حَتَّى هَمَّ بِنَحْرِ بَعْضِ حَمَائِلِهِمْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، لَوْ جَمَعْتَ مَا بَقِيَ مِنْ أَزْوَادِ الْقَوْمِ، فَدَعَوْتَ الله عَلَيْهَا، فَفَعَلَ، فَجَاءَ ذُو الْبُرِّ بِبُرِّهِ، وَذُو التَّمْرِ بِتَمْرِهِ، فَدَعَا عَلَيْهَا حَتَّى مَلأَ الْقَوْمُ أَزْوِدَتَهُمْ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنِّي رَسُولُ الله، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[2].

وهذه خوارق معجزة للنبي ﷺ ودلائل نبوية، وهي أيضاً كرامة لأصحابه ليزدادوا إيماناً ويقيناً وثباتا، فهم الذين آمنوا به وصدَّقوه والدنيا كلها مطبقة على الكفر معرضة عن الحق، فكانت هذه المعجزات تقع بمرأى أعينهم تأييداً وتثبيتاً وكرامة من الله لهم، وشتان بين سؤالهم من رسول الله الدعاء بإيمان ويقين، وسؤال الحواريين لعيسى المائدة بقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ولذا جاءت المكرمة لأصحاب النبي ﷺ بركة وامتناناً، وعرضت على

(١) «صحيح البخاري» (٤١٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧).

الحواريين مع الوعيد: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

١١- وأما الشراب فإن آبار المدينة كان يغلب عليها الملوحة، وكان ثمة آبار معينة هي أقل ملوحة من غيرها فكان الماء المعد للشرب يستعذب من هذه الآبار ومنها بئر غرس وبيرحاء وبئر رومة وبئر السقيا.

ولوجود هذه الملوحة في مياههم اعتادوا أن ينبذوا في الماء حبات من التمر أو قبضات من الزبيب حتى تذوب فيه وتغير طعمه إلى الحلاوة، ويسمونه: نبيذاً، أي: قد نبذ فيه التمر أو الزبيب ليكون مذاقه سائغاً وليس بمعنى النبيذ المسكر.

وقد كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُنْبَذُ لَهُ الزَّبِيبُ فِي السِّقَاءِ، فَيَشْرَبُهُ يَوْمَهُ، وَالغَدَ، وَبَعْدَ الغَدِ، فَإِذَا كَانَ مَسَاءُ الثَّالِثَةِ شَرِبَهُ وَسَقَاهُ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ أَهَرَاقَهُ[١].

وكان الماء يبرد في القربة وهي جلد الشاة يسلخ منها بعناية ثم يدبغ وتخرز فتحاته إلا فتحة الرقبة، ثم يملأ بالماء ويعلق، فيتسرب الماء ببطء من مساماته فيبرد ما فيه، فإذا قَدُمَ الجلد سمي شناً، وصار الماء فيه أكثر برودة.

وكان للنبي ﷺ شن[٢] معلق يبرد فيه الماء[٣]، وكان إذا شرب الماء شرب قاعداً ونهى عن الشرب قائماً[٤]، وقد شرب قائماً من زمزم للحاجة[٥].

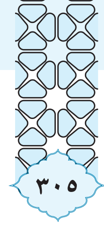
(١) «صحيح مسلم» (٢٠٠٤).

(٢) هي القربة القديمة اليابسة وهي أشدُّ تبريدا للماء من الجدد. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).

(٣) «جامع الترمذي» (١٨٩٢).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٠٢٤).

(٥) «صحيح البخاري» (٥٦١٧)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٧).



وإذا شرب الماء شربه على جرعات ولا يعبه عبّاً، ويتنفس حال الشرب ثلاثاً[(١)].

وكان ينهى عن النفخ في الإناء[(٢)]، وذلك أن آنيتهم مشتركةٌ فالقدح الواحد يشرب منه الجماعة من الناس تباعاً فإذا نفخ فيه أحدهم كرَّهه على من بعده.

١٢- وكان ﷺ يؤاكل أصحابه ويؤثر بالقليل وذلك أن المؤاكلة توثيق للعلاقة ومؤانسة وإشعار بالقرب والصلة، وإحياء للمودات وتطييب النفوس، ولذا أكد ﷺ على إجابة الدعوة واعتبرها من حق المسلم على المسلم.

وكان ﷺ يدعو إلى طعامه وإن قلّ، ومن ذلك استضافته جابراً على ثلاثة أقرصة وإدام خل[(٣)].

وكان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عنده، فلما خرجا أتي بلبن، فأرسل إليهما فدعاهما ليصيبا منه[(٤)].

وإذا كان في الطعام سعة أكثرَ المدعوين إليه؛ فعن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن أَبِي بَكْرٍ، أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا نَاساً فُقَرَاءَ، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ مَرَّةً: **«مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثالث، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ، بِسَادِسٍ»**. وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، وَانْطَلَقَ نَبِيُّ الله ﷺ

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٨).

(٢) «جامع الترمذي» (١٨٨٧).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٥٢).

(٤) «صحيح مسلم» (٣٠٢).

بِعَشَرَةٍ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صُلِّيَتِ العِشَاءُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَلَبِثَ حَتَّى نَعَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ بَعْدَمَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ، قَالَ: أَوَ مَا عَشَّيْتِهِمْ؟ قَالَتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجِيءَ، قَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلَبُوهُمْ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا فَاخْتَبَأْتُ، وَقَالَ: يَا غُنْثَرُ[١]، فَجَدَّعَ وَسَبَّ، وَقَالَ: كُلُوا لَا هَنِيئاً، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَطْعَمُهُ أَبَداً، قَالَ: فَايْمُ اللهِ، مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، قَالَ: حَتَّى شَبِعْنَا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ أَوْ أَكْثَرُ، قَالَ لِامْرَأَتِهِ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا؟ قَالَتْ: لَا وَقُرَّةِ عَيْنِي، لَهِيَ الآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مِرَارٍ، قَالَ: فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ يَعْنِي يَمِينَهُ، ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، قَالَ: وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَقْدٌ، فَمَضَى الأَجَلُ فَعَرَّفْنَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، إِلَّا أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ[٢].

١٣- وكان أغلب قدور الطعام من الفخار أو الحجارة وتسمى البرمة، وأطباق الأكل من الخشب وتسمى القصعة والصحفة، وآنية الشرب وهي القدح وتكون من الخشب أو الفخار، والركوة وتكون من الجلد، وكان عنده ﷺ كأس من زجاج أهداه له المقوقس[٣].

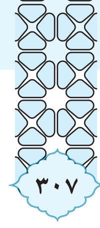
١٤- وكان أكله الطعام مرتبطاً بالإيمان بالله الذي رزقه؛ فلا يأكل ما أهل

---

(١) يا غُنْثُر: كلمة سب تعني الجاهل. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٨٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٥٧).

(٣) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٥٧٠).



لغير الله به وما لم يذكر اسم الله عليه[١]، ويذكر اسم الله عند بداية الطعام[٢]، ويحمد الله بعد الفراغ منه[٣].

وأرشد لاحتساب الأجر في كسب الطعام وإطعامه لمن يَعول فقال: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ**»[٤]، وكان إذا شرب حمد الله، وإذا أكل استشعر عظيم نعمة الله بإطعام الطعام؛ حيث رزقه وأصح البدن ليشتهيه وينتفع به، ولذا يختم طعامه بأنواع من الحمد والاعتراف لله بالفضل ومنها: «**الحَمْدُ لله كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا**»[٥]، وربما قال: «**الحَمْدُ لله الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الحَمْدُ لله غَيْرَ مُوَدَّعٍ، وَلَا مُكَافَئٍ وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ العُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ العَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلاً، الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**»[٦]، ومما ورد عنه قوله: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ**»[٧]، «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي، وَلَا قُوَّةٍ**»[٨].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٩٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٤٥٨).

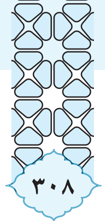
(٤) «صحيح البخاري» (٥٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨).

(٥) «صحيح البخاري» (٥٤٥٨).

(٦) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٠٦٠).

(٧) «سنن أبي داود» (٣٨٥٠).

(٨) «جامع الترمذي» (٣٤٥٨).



خلاصات:

١- كان طعامه ﷺ طعام البيئة العربية، والتي كانت محدودة قليلة التنوع، بسيطة التركيب.

٢- كان يأكل ما تيسَّر، وما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه.

٣- مرت به حالات من قِلَّة الطعام والجوع، وهي حالات عارضة وليست دائمة.

٤- كان يتجنَّب من الأطعمة ماله رائحة شديدة كالبصل والثوم من غير أن يحرمها أو ينهى عنها.

٥- كان يأكل على الأرض ويوضع الطعام أمامه على السفرة، على عادة العرب في زمانه.

٦- من آداب الأكل قوله: «**سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»[(١)]، ونهيه عن الشرب من فم السقاء أو النفخ في الإناء.

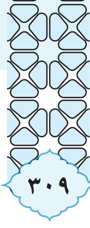
٧- كان الطعام من مواضع المعجزات النبوية فيكثر القليل ويبارك حتى يكفي العدد الكثير، وذلك معجزةٌ لنبيه وكرامةٌ لأصحابه ليزدادوا إيماناً.

٨- كان مجلس الطعام من مشاهد حب الصحابة للنبي ﷺ فيحبون ما يحب، ويشتهون ما يشتهي، ويتبعون أثره في الطعام محبةً وتبركاً.

٩- كان يشارك بطعامه فيؤثر بالقليل ويجمع على الكثير لما في الاجتماع على الطعام من الإيناس والتآلف.

---

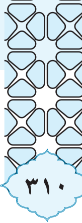
(١) «صحيح البخاري» (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٢).



١٠- كان الغالب على مياه الآبار الملوحة ولذا ينبذون فيها التمر أو الزبيب ليغير طعمها للحلاوة ويسمونه النبيذ، وليس هو النبيذ المسكر ولكن الماء المحلى.

١١- كان أكله الطعام مرتبطاً بالإيمان فيبدأ باسم الله، ويُختَتَمُ بالحمد والامتنان لله.





اللباس النبوي[١]



١ - كان لباسه هو لباس البيئة العربية التي نشأ فيها، ولم يخالف بيئته في لباسها ولم يتغير لباسه بعد النبوة عما قبلها.

ولم يأمر أحداً أن يغير لباس قومه وهيئتهم إلى لباسه هو، وإنما ترك شأن اللباس إلى عادة كل قوم وعُرفِهم، ولذا كان لباسه مما يشترك فيه مع هيئة العرب بمكة والمدينة فلباسه كلباس العرب مسلمهم ومشركهم ليس في لباسه ما يميزه عنهم.

ولذا فإن اتباع سنته في اللباس ليس في اللبس كما كان يلبس بذات الهيئة، ولكن اتباعه في موافقة العرف العام كما فعل هو ﷺ، فلبس كما يلبس أهل زمانه ولم يتميز عليهم بشيء خاص يلفت إليه الأنظار.

وكان لباس العرب في زمانه يغلب عليه البساطة وعدم التعقيد والتزويق، وكان أغلب لباسهم عمامة على الرأس، وقد يلبسون تحتها القلنسوة أحياناً، وهي تشبه الطاقية التي يلبسها الناس في جزيرة العرب، وقميص على الجسد

(١) ينظر: كتاب «اللباس في عصر الرسول» لأستاذنا د. محمد بن فارس الجميل، ومنه استفدت.

ويشبه الثياب المعروفة في الجزيرة العربية، وإزار يلف على وسط الجسد كإزار الإحرام، ورداء يلتحف به على المنكبين والظهر وهو من كمال الزينة وهو يشبه في استعماله البشت في الجزيرة العربية، والسلهام في المغرب، فهذا الشائع والغالب، وهناك ألبسة أخرى تستعمل حسب تيسّرها، ومنها الجبة، والبرنس، والقباء، والخميصة[١] ونحوها، ويسمى ما يباشر الجسد شعاراً كالقميص والإزار، وإذا لبس من جنسٍ واحدٍ سميت حلة، ولا تسمى حلةً إذا كان الثوبان مختلفين كالرداء والإزار، أو الرداء والقميص.

وقد يقل ذلك عند الفقر والحاجة، فلا يجد بعضهم إلا إزاراً ورداءً، وربما لا يجد إلا كساءً واحداً يستر به أعلى جسده وأسفله معاً، كما قال سهل بن سعد: لَقَدْ رَأَيْتُ الرِّجَالَ عَاقِدِي أُزُرِهِمْ فِي أَعْنَاقِهِمْ مِثْلَ الصِّبْيَانِ مِنْ ضِيقِ الأُزُرِ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ لَا تَرْفَعْنَ رُؤوسَكُنَّ حَتَّى يَرْفَعَ الرِّجَالُ[٢]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ، إِمَّا بُرْدَةٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ قَدْ رَبَطُوهَا فِي أَعْنَاقِهِمْ فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقِ وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الكَعْبَيْنِ فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَبْدُوَ عَوْرَتُهُ[٣].

وأما ما تراه في المسلسلات التاريخية من الملابس المتراكبة والمزركشة فهي من خيالات المخرج ولا تمت إلى البيئة العربية في ذلك الوقت ولا إلى طريقة اللباس بصلة.

---

(١) البُرْنُسُ: كلُّ ثوبٍ رأسُهُ منه ملتزقٌ به. والخَمِيصَةُ: كِسَاء أسوَدُ مُرَبَّع لَهُ عَلَمَانِ. ينظر: «النهاية» (١/ ١٢٢)، و«تاج العروس» (١٧/ ٥٦٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٢)، و«صحيح مسلم» (٤٤١).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٢).

٢- وكان من لباسهم ما ينسج عندهم، ولبِس ﷺ من ذلك؛ فعن سَهْلٍ رضي الله عنه، أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ، فِيهَا حَاشِيَتُهَا، أَتَدْرُونَ مَا البُرْدَةُ؟ قَالُوا: الشَّمْلَةُ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدِي فَجِئْتُ لِأَكْسُوَكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجاً إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَحَسَّنَهَا فُلاَنٌ، فَقَالَ: اكْسُنِيهَا، مَا أَحْسَنَهَا! فقال النبي ﷺ: «**نَعَمْ**». ثم دخل فطواها وأعطاها إياه، فقَالَ القَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجاً إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سائلاً، قَالَ: إِنِّي وَاللهِ، مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهُا، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ(١)، وربما لبسوا غيره مما يجلب إليهم من اليمن ومصر والشام.

ومنه ما ينسج في عُمَان، ويسمونه: صحاري، نسبة إلى صحار.

ولبس ﷺ مما ينسج في اليمن وكان أكثر لباسهم من نسج اليمن لقربها منهم، فقد سئل أنس: أي اللباس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟ قال: الحِبَرَة(٢)، وهي من بُرود اليمن.

وعندما توفي النبي ﷺ كفن في ثلاثة أثواب بيض سَحولية(٣)، وسَحول قرية في اليمن قريبة من مدينة إب.

وعَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: أَخْرَجَتْ إِلَيْنَا عَائِشَةُ كِسَاءً وَإِزَاراً غَلِيظاً مما يصنع في اليمن، فَقَالَتْ: قُبِضَ رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَيْنِ(٤).

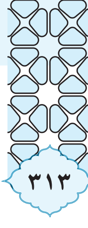
ولبس ﷺ مما ينسج في الشام، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ

(١) «صحيح البخاري» (١٢٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٨١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢٤٦)، و«صحيح مسلم» (٩٤١).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٨١٨).



مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ ذَهَبْتُ أَصُبُّ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ رُومِيَّةٌ ضَيِّقَةُ الْكُمَّيْنِ، فَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ يَدَيْهِ مِنْهَا فَضَاقَتْ عَلَيْهِ، فَأَخْرَجَ يَدَيْهِ مِنْ تَحْتِ الجُبَّةِ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ، وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ[(١)].

ولبس مما ينسج في مصر وتسمى القباطي نسبة إلى القبط وهي من الكتان.

ويكون لباسهم أحياناً ساذجاً غير ملون، ويكون أحياناً ملوناً بخطوط تكون في أطرافه خضراء أو حمراء أو سوداء، ويسمون هذه الخطوط الملونة التي تكون في أطراف الكساء أعلاماً، وإذا وصف كساء بأنه أخضر أو أحمر فالمراد خطوطه لا أنه كله بهذا اللون.

فعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ، فَنَظَرَ إِلَى أَعْلَامِهَا نَظْرَةً، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «**اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ[(٢)] أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا الهَتْنِي آنِفاً عَنْ صَلَاتِي كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى عَلَمِهَا وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ فَأَخَافُ أَنْ تَفْتِنَنِي**»[(٣)].

٣- وكان يلبس القميص، وكان أحب الثياب إليه[(٤)]، ولم يكن يطيل أكمامه ويوسعها، بل كانت كم قميصه إلى الرسغ لا يجاوز اليد[(٥)]، وكان إزاره إلى أنصاف الساقين ولا يتجاوز الكعبين[(٦)]، وكان أحب ألوان الثياب

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١١٠).

(٢) الأنبجانية: مَنْسُوبَةٌ إِلى مَوْضِعٍ اسْمُهُ أَنْبِجان وَهُوَ كِسَاءٌ يُتخذ مِنَ الصُّوفِ لَهُ خَمْلٌ ولا عَلَم له. ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٣٧٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٧٣)، و«صحيح مسلم» (٥٥٦).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٠٢٥).

(٥) «سنن أبي داود» (٤٠٢٧).

(٦) «صحيح مسلم» (٢٠٨٦).

إليه البياض والحِبَرة[١]، وهي البرود المحبرة، وكان يقول: «**الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمِ الْبَيَاضَ، فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ**»[٢]، وربما أطلق أزراره وأبقاها محلولة، وكأن ذلك في حال الاسترخاء ووقت الحر، فعن معاوية بن مرة قال: أتيت النبي ﷺ في رهط من مزينة فبايعوه، وإنه لمطلق الأزرار، فأدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم[٣].

وقد اتفق أن هذه هي الحال التي رأوه عليها لا أن هذا شأنه دائماً، فإن الأزرار لا توضع في الثوب إلا لتزرر وتُغلِقَ الجيب.

ولم تكن عمامته بالكبيرة ولا بالصغيرة، بل وسطاً بين ذلك، وكان يرخيها بين كتفيه كما في حديث عمرو بن حريث قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ عَلَى المِنْبَرِ، وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ، قَدْ أَرْخَى طَرَفَيْهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ[٤]، وأحياناً يديرها تحت حنكه، وتسمى المحنكة، ويُحتاج إلى ذلك عند ركوب الخيل والإبل.

٤- وكان يلبس النعال والخفاف، وأكثر ما يلبس النعال في الحضر، وأكثر ما يلبس الخفاف في السفر فعن عيسى بن طهمان قال: أَخْرَجَ إِلَيْنَا أَنَسٌ نَعْلَيْنِ جَرْدَاوَيْنِ لَهُمَا قِبَالَانِ، فَحَدَّثَنِي ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ بَعْدُ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُمَا نَعْلَا النَّبِيِّ ﷺ[٥].

---

(١) الحِبَرَةُ مِنَ البُرُودِ: مَا كَانَ مَوْشِيّاً مُخَططاً. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٢٨).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٨٧٨).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٠٨٢).

(٤) «صحيح مسلم» (١٣٥٩).

(٥) «صحيح البخاري» (٣١٠٧). والجَرداوَانِ: هي التي لاَ شعرَ عَليهما، والقِبالان، التي لها زِمامان. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٥٦) و(٤/ ٨).

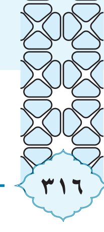
ويلبس الخفاف في السفر لحاجة الرجلين إلى ما يقيهما من الحر والبرد ومن حجارة الأرض وشوكها، فعن المغيرة بن شعبة قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأهويت لأنزع خفيه فقال: «**دَعْهُما فَإنّي أَدْخَلتُهُما طَاهِرَتَيْنِ**». فمسح عليهما[١].

وكان له خفان أهداهما دِحْية الكلبي، قالَ المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: أَهْدَى دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ لِرَسُولِ الله ﷺ خُفَّيْنِ وَجُبَّةً فَلَبِسَهُمَا حَتَّى تَخَرَّقَا[٢].

٥- وكما كان يأكل من الطعام ما تيسَّر من غير تكلف؛ كان يلبس من الثياب ما تيسر من غير تكلف، ولم يكن له شارة خاصة في لباسه يعرف بها، ولذا يتساءل الغريب إذا وصل إلى مجلسه فيسأل: أيكم ابن عبد المطلب؟ فيشير إليه الصحابة ويقولون: هو هذا الأبيض المتكئ[٣]، فيصفون وضاءته ولا يصفون لباسه لأنه يلبس كلباسهم، بل كان ينهى عن لباس الشهرة وهو الذي يُشْهِرُ الإنسان إذا لبسه، إما لرثاثته أو منافرته إلف الناس حتى يلفت أنظارهم فقال: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَوْباً مِثْلَهُ ثُمَّ تُلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ**»[٤].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ أَيُّوبَ قَالَ: دَخَلَ الصَّلْتُ بْنُ رَاشِدٍ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ وَعَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ وَإِزَارُ صُوفٍ وَعِمَامَةُ صُوفٍ فَاشْمَأَزَّ عَنْهُ مُحَمَّدٌ وَقَالَ: أَظُنُّ أَنَّ أَقْوَاماً يَلْبَسُونَ الصُّوفَ، وَيَقُولُونَ: قَدْ لَبِسَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَقَدْ

(١) «صحيح البخاري» (١٧٩٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤). وينظر: «زاد المعاد» (٤/ ٢١٧).
(٢) «جامع الترمذي» (١٧٦٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٦٣).
(٤) «سنن أبي داود» (٤٠٢٩).



حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ لَبِسَ الكَتَّانَ وَالصُّوفَ وَالقُطْنَ، وَسُنَّةُ نَبِيِّنَا أَحَقُّ أَنْ تُتَّبَعَ(١).

ومقصود ابن سيرين بهذا أن أقواماً يرون أن لُبس الصوف دائماً أفضل من غيره فيتحرونه ويمنعون أنفسهم من غيره، وكذلك يتحرون زياًّ واحداً، ورسوماً وأوضاعاً وهيئات يرون الخروج عنها منكراً، وليس المنكر إلا التقييد بها والمحافظة عليها وترك الخروج عنها.

وأفضل الطرق طريق رسول الله ﷺ التي سنَّها وأمر بها ورغَّب فيها وداوم عليها، وهي أن هديه في اللباس أن يلبس ما تيسَّر من اللباس من الصوف تارة والقطن تارة والكتان تارة، ولبِسَ البرود اليمانية والبرد الأخضر، ولبس الجبة، والقباء، والقميص، والسراويل، والإزار، والرداء، والخف والنعل، من غير أن يلتزم شيئاً من ذلك(٢).

٦- وكما كان يتجنب من الطعام ما له رائحةٌ فكذلك كان يتجنب من اللباس ما تظهر له رائحة؛ فعن عائشة، أن رسول الله ﷺ لبس ثوباً من الصوف فوجد له رائحة فنزعه.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بُرْدَةً سَوْدَاءَ، فَلَبِسَهَا، فَلَمَّا عَرِقَ فِيهَا وَجَدَ رِيحَ الصُّوفِ، فَقَذَفَهَا وَكَانَ تُعْجِبُهُ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ(٣).

٧- وكان ﷺ أنيقاً في لباسه، فإذا لبس الثوب لابسه كأنما لا يصلح إلا له، قال البراء بن عازب: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَرْبُوعاً، بَعِيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ،

---

(١) «أخلاق النبي» لأبي الشيخ الأصبهاني (٣٢٩).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ١٣٨).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٠٧٤).

رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ، لَمْ أَرَ شَيْئاً قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ[(١)].

وعن جابر بن سمرة قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إِضْحِيَان[(٢)] وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر[(٣)].

وكان يلبس الثياب الحسنة والحلل الزاهية الجميلة يتجمَّل بها في المشاهد والأعياد ولقاء الوفود، قال ابن عباس: لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الحُلَلِ[(٤)].

وأهدى له أكيدر دومة جُبَّةَ سُنْدُسٍ، فلبسها فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا وجعلوا يلمسونها، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا**»[(٥)]، ورأى عُمَرُ حُلَّةَ إِسْتَبْرَقٍ تُبَاعُ فِي السُّوقِ، فَأَتَى بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ابْتَعْ هَذِهِ الحُلَّةَ، فَتَجَمَّلْ بِهَا لِلْعِيدِ وَلِلْوُفُودِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا هَذِهِ لِبَاسُ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ**»[(٦)]. وذلك بعد تحريم الحرير.

وفعل عمر هذا يدل على أن من فعل النبي ﷺ المعتاد التجمُّل بالثياب الحسنة في مشاهد الناس ومجتمعاتهم.

وقال مرةً: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**». فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ قُسِمَ لِي مِنْ الجَمَالِ مَا تَرَى، وَإِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَناً، وَنَعْلِي

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).

(٢) ليلة إِضْحِيَان: أي مضيئة مقمرة، ويوم إضْحِيان: أي مُضيء لا غَيْم فيه. ينظر: «النهاية» (٣/ ٧٨).

(٣) «جامع الترمذي» (٢٨١١).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٠٣٧).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٦٩).

(٦) «صحيح البخاري» (٣٠٥٤)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

حَسَنَةً أَفَمِنْ الكِبْرِ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**لَا، إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِالكِبْرِ، إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، وَلَكِنَّ الكِبْرَ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(١).

وكان يحضّ على حسن الهيئة في اللباس، قال أَبُو رَجَاءٍ العُطَارِدِيِّ: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مِطْرفُ خزّ(٢)، وقال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ**»(٣)، وعن أبي الأحوص عن أبيه أنه أتى النبي ﷺ فرآه ﷺ أشعث أغبر في هيئة أعرابي فقال: «**مَالَكَ مِنَ المَالِ؟**». قال: من كل المال آتاني الله، قال: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلى العَبْدِ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ تُرَى بِهِ**»(٤).

٨- وقد لا يتوفر له ﷺ الأجود من الثياب فيلبس ما تيسّر بلا تكلف فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عنق النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعطَاءٍ(٥)، وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَات غَدَاةٍ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ(٦) مِنْ شَعَرٍ أَسْوَدَ(٧). وعن أنس قَالَ: لَبِسَ رَسُولُ الله ﷺ الصُّوف،

(١) «صحيح مسلم» (٩١).

(٢) مطرف خز: أي الثوب الذي في طرفيه علَمان. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٢١).

(٣) «مسند أحمد» (١٩٩٣٤).

(٤) «صحيح ابن حبان» (٥٤١٧).

(٥) «صحيح البخاري» (٣١٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٧).

(٦) المُرَحَّل: الذي قد نقش فيه تصاوير الرحال. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢١٠).

(٧) «صحيح مسلم» (٢٠٨١).

وَاحْتَذَى المَخْصُوفَ[(١)]. وَقَالَ: أَكَلَ رَسُولُ الله ﷺ بَشِعاً، وَلَبِسَ خَشِناً[(٢)].

وربما احتاج أن يخصف نعله أو يخيط ثوبه كما قالت عائشة: كَانَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ[(٣)].

وكان إذا استجد ثوباً سمَّاه باسمه ويقول: «**اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**»[(٤)]. وكان إذا لبس قميصه بدأ بميامنه[(٥)].

٩- وكان يلبس من أنواع الألبسة، وينهى عن أنواع من طرائق اللبس، فنهى عن الذهب والحرير للرجال؛ قال عليٌّ رضي الله عنه: أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ حَرِيراً بِشِمَالِهِ، وَذَهَباً بِيَمِينِهِ، ثُمَّ رَفَعَ بِهِمَا يَدَيْهِ فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لِإِنَاثِهِمْ**»[(٦)].

وعنه قَالَ: نَهَانِي حِبِّي ﷺ عَنْ ثَلَاثٍ: ـ لَا أَقُولُ: نَهَى النَّاسَ ـ نَهَانِي عَنْ تَخَتُّمِ الذَّهَبِ، وَعَنْ لُبْسِ القَسِّيِّ[(٧)]، وَعَنِ المُعَصْفَرِ المُفَدَّمَةِ[(٨)]، وَلَا أَقْرَأُ سَاجِداً وَلَا رَاكِعاً[(٩)].

---

(١) احتذى المخصوف: لبس النعل. ينظر: «شرح السندي على ابن ماجه» (٢/ ٣٢٠).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٣٤٨).

(٣) «مسند أحمد» (٢٤٧٤٩).

(٤) «مسند أحمد» (١١٢٤٨)، و«سنن أبي داود» (٤٠٢٠).

(٥) «جامع الترمذي» (١٧٦٦).

(٦) «سنن أبي داود» (٤٠٥٧)، و«سنن ابن ماجه» (٣٥٩٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٥١٤٤).

(٧) القسي: هي ثياب من كتان مخلوط بحرير يؤتى بها من مصر، وقيل غير ذلك. ينظر: «النهاية» (٤/ ٥٩).

(٨) المُفَدَّمَة: المتشبِّعة التي بلغت الغاية. ينظر: «شرح السندي على سنن النسائي» (٢/ ٢١٧).

(٩) «السنن الكبرى» للنسائي (٥١٨٧).



كما نهى لبسة الإسبال فكان إزاره وقميصه إلى أنصاف ساقيه وقال: «**كُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فِي النَّارِ**»[(١)]. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ يَسْتَرْخِي إِزَارِي أَحْيَاناً. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَسْتَ مِنْهُمْ**»[(٢)].

ونهى عن اشتمال الصماء وهي لبسة عند بعض العرب يلتف بالثوب الواحد ويداه في داخله فيكون عرضة لانكشاف عورته إذا أخرج يده أو رفعها، فنهى عن ذلك حفاظاً على الستر والحشمة.

خلاصات:

١- كان لباسه ﷺ هو لباس البيئة التي عاش فيها، ولم يخالف بيئته في لباسها، ولم يغير لباسه بعد النبوة عما قبلها.

٢- اتباع سنة النبي ﷺ في اللباس ليست في لبس ما كان يلبسه، ولكن اتباعه في موافقة العرف العام في اللباس، وتجنب الشهرة والإغراب بما يلفت أنظار الناس.

٣- كان بعض لباسهم ينسج عندهم، وبعضه ينسج في اليمن وعمان، وبعضه في الشام ومصر، ولبس ﷺ من ذلك كله.

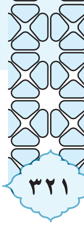
٤- كان يلبس من الثياب ما تيسر من غير تكلف، ولم يكن له لباس خاص يتميز به.

٥- كان أنيقاً في لباسه، ولبس أحسن الحلل إذا تيسرت، وكان إذا لبس لباساً زها عليه كأنه لا يصلح إلا له.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١١٨٧٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٦٢).



٦- وكما لبس الثياب الجيدة الحسنة، فقد لبس الثياب الخشنة إذا لم يتيسر غيرها من غير أن يتقصّدها أو يجعلها شعاراً ونسكاً.

٧- وكان ينهى عن بعض الألبسة كالذهب والحرير للرجال والمعصفر، وينهى عن الإسبال.



المجلس النبوي



كان للنبي ﷺ مجالس معتادة منتظمة ومجالس عارضة حيث يجلس عند من يزورهم، أو حيث يعرض له الجلوس مع أصحابه لحاجة، وأما مجالسه المعتادة فمنها:

١ - مجلسه بعد صلاة الفجر، فإنه يجلس في مصلاه ثم يحف به أصحابه فيتحدثون إليه ويتحدث إليهم، وكثيراً ما سألهم عن رؤاهم أو يخبرهم بما رآه هو[١]، ويتفقّد من غاب منهم ويسأل عنه، ويتحدَّث الصحابةُ في هذا المجلس بين يدي النبي ﷺ، فيشاركهم الحديثَ والاستماع، فربما تحدَّثوا عن حياتهم في الجاهلية، وما كانوا يقعون فيه من أُحْمُوقات الجاهلية التي تَبَدَّى لهم عَوَارُها بعد أَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بالإسلام، فإذا ذكروها ضحكوا من جهلهم، ويتبسَّم رسولُ الله ﷺ، وهو الذي كان ضحكه تبسُّماً[٢]، ولا يزال ﷺ في مجلسه هذا حتى تطلع الشمس حسناء[٣].

٢- ومن مجالسه المعتادة: مجلسه في صدر النهار ضحى، وكان شرقي

(١) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).
(٢) «صحيح مسلم» (٦٧٠، ٢٣٢٢).
(٣) «مسند أحمد» (٢٠٩٦٨).

المسجد في الروضة الشريفة، مستنداً إلى حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويجتمع إليه أصحابه، وكان هذا اللقاء معهوداً، بحيث أن مَن أراد النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في هذا الوقت، فإنه يأتي إليه في المسجد، وكانوا يتناوبون الحضور إلى المسجد، كما وَرَدَ عَنْ عُمَرَ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي المَدِينَةِ وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يَنْزِلُ يَوْماً وَأَنْزِلُ يَوْماً، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ الوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ..[١].

وقد يقلُّ الصحابةُ حولَه أو يكثرون، بحسب فراغهم وظروف حياتهم، فإن كانوا قليلاً تحلَّقوا حوله، وإن كانوا كثيراً جلسوا صَفَّيْن عن يمينه ويساره، حتى يصل إليه الوافد، ويدنو منه السائل[٢].

ولم يكن في المجلس بُسُط يفترشونها ولا وسائد يتكئون عليها، وإنما يجلسون على حصباء المسجد، ومن كان ظهره على الجدار استند إليه، ومن لم يكن وراءه ما يستند إليه واحتاج إلى ذلك احتبى[٣] بردائه.

وكان الصحابة يحفُّون به عن يمينه وعن يساره، ولم يكن لأحد مكان خاص فكل من سبق إلى مكان جلس فيه، ومن جاء بعد جلس حيث ينتهي به المجلس، وربما كان الذي عن يمين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صبيّاً كابن عباس، أو أعرابيّاً.

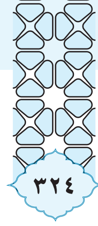
وكان الصحابة إذا جلسوا حوله يغضُّون أبصارهم ولا يؤبِّدونه نظرهم؛ إجلالاً ومهابة له، ولذا قال عمرو بن العاص وهو الذي صحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

---

(١) «صحيح البخاري» (٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٦٩٨).

(٣) الاحْتِبَاء: هُوَ أَنْ يَضُمّ الإِنْسَانُ رِجْلَيْه إِلَى بَطْنه بثَوْب يَجْمَعُهُما بِهِ مَعَ ظَهْره، ويَشُدُّه عَلَيْهَا. وَقَدْ يَكُونُ الاحْتِبَاء باليَدَيْن عوَض الثَّوب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٣٥).



ثلاث سنين: لو سألتموني أن أصف لكم وجه رسول الله ﷺ ما استطعت أن أصفه، وذلك أني لم أكن أملأ عيني منه إجلالاً له[١].

كما كانوا يغضُّون أصواتهم فلا يتكلمون معه كما يتكلمون مع بعضهم؛ إجلالاً ومهابة وخضوعاً لأمر الله الذي أدَّبهم به بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾.

وكان عمر رضي الله عنه وهو الجهوري الصوت إذا خاطب النبي ﷺ خاطبه وكأنه يُسِرّ إليه، ولم يسمعه حتى يستفهمه من شدة خفض صوته[٢].

فإذا جلس ﷺ إلى أصحابه تحدَّث إليهم، وشاركهم ما يتحدثون فيه من أمور حياتهم وشؤون دنياهم، قال زيد بن ثابت: كُنْتُ جَارَهُ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ الوَحْيُ أَرْسَلَ إِلَيَّ، فَكَتَبْتُ الوَحْيَ، وَكَانَ إِذَا ذَكَرْنَا الآخِرَةَ ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الدُّنْيَا ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الطَّعَامَ ذَكَرَهُ مَعَنَا[٣]، وغالباً ما يأخذ حديثُه طابع الحوار وإشراك الحضور في الحديث، إما بسؤال يطرحه ويطلب منهم الإجابة، أو سؤال منهم فيجيب هو عليه.

وبذا يكون المجلس النبوي مجلساً تفاعلياً، وليس كمجالس الكبراء والمتكبرين والتي يستبدون فيها بالحديث، كما يستبدون بالرأي.

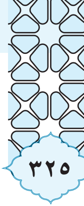
ولم يكن ﷺ يستأثر بالحديث في مجلسه؛ فقد يكون متحدثاً وقد يكون مستمعاً، وقد يكون سائلاً وقد يكون مجيباً، وكان كل من في المجلس يشاركون في الحديث ويتفاعلون معه، ولا تمنع هيبة النبي ﷺ أحداً أن يقول قولاً يبتدئ به الحديث أو يشارك فيه.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٨٤٥).

(٣) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨٦٩٧).



وكان هذا المجلس مجلس علم ووعظ وذكرى، وكان مجلسه هو المساحة الواسعة للدعوة والتعليم، وغالب ما روي من أحاديثه هي أحاديثه في مجالسه ﷺ.

ولكن لم تكن المواعظ ولا التعليم تتم بأسلوب إلقائي أُحادي الاتجاه، وإنما بأسلوب حِواري يعتمد إشراك المتعلِّم في عملية التعليم، ويعتمد الحوار الذي يتيح النمو العقلي والفكري للمتعلِّم.

ولم يكن هذا مجلس علم ووعظ فقط، بل كان مجلس حيوية وتفاعل مع الحياة.

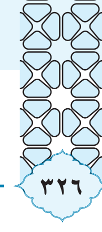
ففي مجلسه يُؤْتَى بصبيان المدينة، فيدعو لهم، ويحنِّكهم بتمرة يمضغها في فيه ثم يضع في أفواههم منها بريقته الطيِّبة المباركة، ويسمِّيهم، ويُبَرِّك عليهم[١].

ومن ذلك: أن أبا أُسيد مالك بن رَبيعة السَّاعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى بابنه المُنذر إلى رسول الله ﷺ حين وُلد، فوضعه النبيُّ ﷺ على فَخِذه، وأبو أُسيد جالس، فشُغل النبيُّ ﷺ بشيء بين يديه، فأَمَرَ أبو أُسيد بابنه فاحتُمل من على فَخِذ رسول الله ﷺ، وردُّوه إلى أهله، فاستفاقَ[٢] رسولُ الله ﷺ فقال: «**أَيْنَ الصَبِيُّ؟**». فقال أبو أُسيد: أقْلبناه يا رسولَ الله. فقال: «**مَا اسْمُهُ؟**». قال: فلانٌ يا رسولَ الله. قال: «**لَا، وَلَكِنْ اسْمُهُ المُنْذِرُ**». فسمَّاه يومئذ: المنذر[٣].

(١) «صحيح البخاري» (٦١٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٤).

(٢) أي: انتبه من شغله وفكره الذي كان فيه.

(٣) «صحيح البخاري» (٦١٩١)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٩).



ويُؤتى في مجلسه ببَواكير ثمار النَّخِيل؛ حيث كان التمر فاكهة أهل المدينة وقوتهم وغذاءهم، فكانوا يفرحون إذا رَأَوْا أول الثمرة، ويأتون به إلى النبيِّ ﷺ، فإذا أخذه قال: «**اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدِّنَا، اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَأَنَا أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ بِهِ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ**». ثم يدعو أصغرَ مَن يحضره من الولدان، فيعطيه ذلك الثمر(١).

وكان في هذا المجلس فسحة للطُّرْفَة والمزاح الجميل، ولم يكن وَقار المجلس النبوي ولا مَهابة محيَّاه ﷺ مما يحجز أصحابه عن عفوية الحياة، فها هو ﷺ يحدِّث أصحابه، وعنده رجلٌ من أهل البادية، فقال ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ اللهُ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ(٢)، فَكَانَ أَمْثَالَ الجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ**»، فلما فرغ النبيُّ ﷺ من حديثه قال الأعرابي: يا رسولَ الله، والله لا تجد هذا الرجل إلَّا قرشيّاً أو أنصاريّاً؛ فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك مَن في المجلس، وضحك النبيُّ ﷺ(٣).

وكان مجلساً مفتوحاً في الهواء الطلق ليس عليه أبواب ولا حجاب، فيصل إلى النبي ﷺ فيه كل من قصده الصغير والكبير، والرجل والمرأة، والمقيم والغريب.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٣٧٣).

(٢) أي: فنبت واستوى وحُصد في طرفة عين. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٣٤٨).

ويبدو أن هذا المجلس هو مجلس استقبال القادمين من الوفود؛ فإن المسافرينَ عادةً يبيتون خارج المدينة، ثم يدخلونها ضحىً، فيَلْقون النبيَّ ﷺ في هذا المجلس.

ومن ذلك: وفد المُضَرِيِّين، وقد أَتَوْا إلى النبي ﷺ في صَدْر النهار، فرأى ما بهم من الفقر والفاقة، فتَمَعَّر وجهُه أَلَماً لحالهم، ثم خطبَ الناسَ بعد صلاة الظهر، وحثَّ على الصدقة، حتى اجتمع عنده كَوْمان من طعام وثياب[١].

ووفد عَبْد القَيْس الذين أَتَوْا إليه ﷺ من الأَحْساء، فرحَّب بهم وقال: «**مَرْحَباً بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدامَى**»[٢].

ويغلب على الظن أنه المجلس الذي أتى فيه جبرائيلُ عليه السلام في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشَّعر، لا يُرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه أحدٌ، فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة[٣].

وأنه المجلس الذي أتى فيه ضِمامُ بن ثَعْلبة رضي الله عنه، فأناخَ جمله في المسجد، ثم قال للنبي ﷺ: ابنَ عبد المطلب؟ قال: «**قَدْ أَجَبْتُكَ**». قال: إني سائلُك، فمُشدِّد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك. قال: «**سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**». فسأله عن أركان الإسلام، فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ والذي بعثك بالحق، لا أزيدُ عليهن ولا أَنْقُصُ. فلما ولَّى قال النبيُّ ﷺ: «**فَقِهَ الرَّجُلُ، لَئِنْ صَدقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَةَ**»[٤].

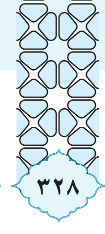
---

(١) «صحيح مسلم» (١٠١٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٠)، و«صحيح مسلم» (٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٣).



وكان هذا المجلس هو مجلس شورى المسلمين فيما يقع لهم، وفيه كانت الشورى ثم قرار الخروج لأُحد، وفيه تقرَّر حفر الخندق، ونحو ذلك مما يستجد في أمور حياتهم، ولم يكن أحدٌ أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[1]، كيف وهو المنزَّل عليه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وكان هذا المجلس من مشاهد تواضع النبي ﷺ وبُعده عن طرائق التكبر والمتجبرين.

فكان ﷺ يجلس في هذا المجلس مع أصحابه كأحدهم، ليس له شَارة تميِّزه عنهم، فيجيء الغريبُ فلا يعرفه من بينهم، وربما سأل: أيكم ابنُ عبد المطلب؟ فلا يجدون ما يميِّزون به رسولَ الله ﷺ، إلَّا وَضاءته وبهاءه، فيقولون: هو هذا الأبيض المُتَّكئ[2]. فلما رأى الصحابة ذلك، أشاروا على النبي ﷺ أن يعملوا له دَكَّةً من الطين؛ حتى يعرفه القادم، فأذن لهم، وكان ذلك في آخر حياته، عام الوفود، سنة تسع[3].

كما كان ينهى أصحابه عن القيام له بحيث يكون جالساً ومن حوله قيام له كما يصنع ملوك الأعاجم تعاظماً وكبراً فكان يقول: «**لا تَقُومُوا كَمَا يَقُومُ الأَعَاجِمُ تُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضاً**»[4]، وهذا غير قيام التلقِّي للقادم.

(١) «صحيح البخاري» (٢٧١١)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٣).
(٣) «سنن أبي داود» (٤٦٩٨)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٩٩١).
(٤) «سنن أبي داود» (٥٢٣٠)، و«سنن ابن ماجه» (٣٨٣٦).

وكان الحضور في مجلسه ﷺ متنوعين في أعمارهم وفي بلدانهم، ففيهم الشيخ والشاب والفتى، والمهاجري والأنصاري والأعرابي، والمسافر العابر والمقيم المستوطن.

وكان للفتيان والشباب حضورهم مع الأشياخ من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن مشاهد ذلك حديث ابن عمر قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً، مَثَلُهَا كَمَثَلِ المُسْلِمِ**». فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَسَكَتُّ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»[١].

وربما خص النساء بمجالس خاصة يجلس لهن فيها، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْماً مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْماً لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: «**مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَاباً مِنَ النَّارِ**». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: «**وَاثْنَتَيْنِ**»[٢].

وكان يحفظ غيبة من غاب عن مجلسه، ويدفع قالة السوء عنهم، فعندما أتي بعبد الله بن حمار ثملاً فجلد في مجلسه ثم ذهب، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[٣].

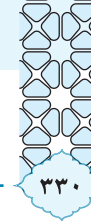
وعندما زار عتبان بن مالك واجتمع إليه أهل الحي في مجلسه فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَقُلْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ:**

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٢)، و«صحيح مسلم» (٢٨١١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٧٨٠).



لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ». قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(١).

وإني لأتساءل: كيف سيكون وقع هذه الكلمات النبوية في الدفاع عن هؤلاء الغائبين إذا بلغتهم، ويقيني أنها بلغتهم كما بلغتنا.

ولذا تربى الصحابة على ذلك وصاروا هم يدفعون قالةَ السوء أن تذكر في المجلس النبوي، فعندما جلس ﷺ في تبوك قال: «**مَا فَعَلَ كَعْبُ ابْنُ مَالِكٍ؟**». قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْراً(٢).

وبذلك يحفظ النبي ﷺ نقاء المجلس أن يكون فيه غيبة لغائب، ويكف الألسنة أن تذكر غائباً إلا بخير.

وكان ﷺ يَقسِمُ بِشْرَه وإقباله في مجلسه بين أصحابه، حتى يتفرَّقوا عنه، وكلٌّ يظن أنه أكثرهم حُظْوَة عنده(٣).

وكان إذا أُتي بشراب فشرب ناوله مَن كان على يمينه وإن كان من على يساره أكبر أو أجل، فقد أُتي بشراب فشرب وعن يمينه ابن عباس وعن يساره أشياخ من قريش، فلما فرغ قال لابن عباس: «**هَلْ تَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ أَعْمَامَكَ؟**». قال ابن عباس: لَا أُوثِرُ بِفَضْلَةِ رسول الله أَحَداً فأعطاه إياه(٤).

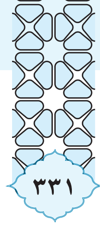
---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٥)، و«صحيح مسلم» (٦٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٣) «الشمائل» للترمذي (٣١٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٦٢٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٠).



وكان جالساً مرة وعن يمينه أعرابي وعن يساره أبو بكر فأُتي بشراب فشرب ثم أعطى الأعرابي[١].

وربما أُهدي للنبيِّ ﷺ طعامٌ وهو مع أصحابه، فيأكلون جميعاً، قال سَمرة بن جُندب رضي الله عنه: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أُتِيَ بِقَصْعَةٍ[٢] فِيهَا ثَرِيدٌ. فَأَكَلَ وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَلَمْ يَزَلِ الْقَوْمُ يَتَدَاوَلُونَهَا إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الظُّهْرِ يَأْكُلُ كُلُّ قَوْمٍ، ثُمَّ يَقُومُونَ، وَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَتَعَاقَبُونَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَلْ كَانَتْ تُمَدُّ بِطَعَامٍ؟ قَالَ: أَمَّا مِنَ الأَرْضِ فَلَا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَانَتْ تُمَدُّ مِنَ السَّمَاءِ[٣].

وأُهديت له ﷺ شاةٌ، والطعام يومئذ قليل، فقال لأهله: «**اطْبُخُوا هَذِهِ الشَّاةَ وَانْظُرُوا إِلَى هَذَا الدَّقِيقِ فَاخْبِزُوهُ وَأَثْرِدُوا عَلَيْهِ**»[٤].

ومما كان يَعْمُر هذا المجلس: الاستغفار الكثير؛ فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يلحظون عدم فتور النبي ﷺ عن الاستغفار والتوبة، وربما عدُّوا له في المجلس الواحد مئةَ مرة[٥] قبل أن يقوم: «**رِبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُور**»[٦].

ويطول هذا المجلس النبوي ويقصُر، بحسب الحال، وما يكون فيه من شأن، حتى إذا تعالَى النهارُ قام ﷺ، ولم يكن يقوم من مجلسه إِلَّا قال: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ**

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٩).

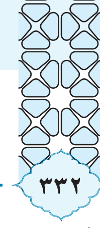
(٢) القصعة: إناء طعام كبير يشبع العشرة. «تاج العروس» (٢٤/ ٥).

(٣) «مسند أحمد» (٢٠١٣٥).

(٤) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٤٦٥٣).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٧٠٢).

(٦) «جامع الترمذي» (٣٤٣٤).



إِلَيْكَ». فقالوا: يا رسولَ الله، إن هذا قولٌ ما كنا نسمعُهُ منك فيما خلا؟ فيقولُ: «**هُوَ كَفَارَةُ مَا يَكُونُ فِي المجْلِسِ**»(١).

وكان يختم بهذا مجالسه كلها حتى مجالس العلم والذكر والدعاء.

فسألته عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فقالت: يا رسولَ الله، أراكَ تختمُ بهؤلاء الكلمات مجلسَكَ وقراءتَكَ وصلاتَكَ؟ فقال: «**مَنْ قَالَ خَيْراً كَانَ هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتُ طَابِعاً**(٢) **عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ قَالَ شَراً كُنَّ كَفَّارَةً لَهُ**»(٣).

وإذا كان ذاك المجلس النبوي الذي لا يقال فيه إلا خير ما يقال، ولا يفشو فيه إلا أعف القول وأفضله وأزكاه، يُختم بكفارة المجلس، فإن مجالسنا التي يسرب فيها لغو القول نقوله ونسمعه ما يجعلنا أشد تعاهداً لتطهيرها بهذا الذكر كفارة لما كان من زلل القول في مجالسنا.

وقلَّما يقوم من مجلس حتى يدعو لأصحابه بهذه الدعوات: «**اللهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تُحولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللهُمَّ أَمْتِعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا**(٤)**، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْثَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا**»(٥). ثم يتفرَّق الصحابةُ إلى أعمالهم أو إلى بيوتهم؛ للقيلولة قبل الظهر.

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٨٥٧-٤٨٥٩).

(٢) أي: خاتماً. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ٢٣٢).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٢٦٨).

(٤) أي: أبق هذه القوات صحيحة سليمة إلى الوفاة. ينظر: «تحفة الأحوذي» (٤/ ٢٥٩).

(٥) «جامع الترمذي» (٣٥٠٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠١٦١).

أما هو ﷺ فقد يرجع إلى بيته؛ لنومة القَيْلولة، وربما تلقَّته أسواق المدينة ماشياً فيها؛ مجيباً لدعوة، أو قاصداً لزيارة، أو ساعياً في قضاء حاجة من الحاجات.

خلاصات:

١- كان للنبي ﷺ مجالس معتادة بعد الفجر وفي الضحى، ومجالس عارضة بحسب ما يعرض له.

٢- كان الصحابة يجلسون حوله ﷺ على الأرض، ولم يكن لأحد مجلس خاص وإنما يجلس كل منهم حيث انتهى به المجلس.

٣- كان الصحابة يغضون أبصارهم بين يديه، ويغضون أصواتهم إذا تحدثوا إليه.

٤- يؤتى إليه في مجلسه بصبيان المدينة فيدعو لهم، وببواكير الثمار فيشارك الفرح بها والدعاء بالبركة عليها.

٥- كان الحديث في مجلسه حوارياً بينه وبين أصحابه، فيسألهم ويسألونه، وكان فيه مساحة للطرفة والمزاح اللطيف.

٦- كان رسول الله ﷺ يجلس بين أصحابه كأحدهم ليس له مجلس يميزه ولا شارة تخصه.

٧- كان مجلسه مفتوحاً بلا أبواب ولا حجاب.

٨- ربما أحضر الطعام إليه في المجلس فيأكل هو وأصحابه في مجلسهم ذلك.

٩- كان يختم مجلسه بدعاء كفارة المجلس ليكون كالطابع على ما كان فيه من خير، وليكون لأمته كفارة لما يكون في المجلس من لغو أو شر.

الرَّسُولُ ﷺ فِي الطَّرِيقِ



كانت المدينة أحياء متفرِّقة ما بين عالية المدينة؛ كقباء وبني سالم بن عوف، وسافلتها؛ كبني سلمة وبني حارثة، وكل حي هو تجمع عشائري لقوم من الأنصار؛ فهنا بنو زريق، وبنو ظفر، وهناك بنو ساعدة، وبنو النجار.. وهكذا.

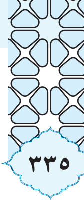
والبيوت مختلطة بالحوائط والنخيل والبساتين، والطرق هي ما بين الدور في الحيِّ، وما بين الأحياء في المدينة.

١- وكان ﷺ يسير في طرق المدينة في زياراته الكثيرة لأحيائها وعشائرها، ولذلك انتشرت مساجده وأماكن صلاته في أنحاء المدينة حيث يصلي عند من يزورهم في مساجدهم.

وكان يسير في هذه الطرق راكباً وماشياً، ولعل غالب المشي في الشتاء، وغالب الركوب في الصيف؛ لأن تراب المدينة في الصيف رمضاء لاهبة وحجارتها جمرٌ متقدٌ.

وكان ﷺ متواضعاً في مركبه، ومن تواضعه ركوبه في الطريق على حمار، وأحياناً يردف عليه بعض أصحابه معه(١).

(١) «صحيح البخاري» (١٥١٣)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٢).



ومن مركوبه في الطرق حماره عُفَيْر[(١)]، وبغلته دُلْدُلُ[(٢)]، وناقته القَصْوَاء[(٣)].

وأما المسافات القريبة فيقطعها ماشياً كالسير بين الدور أو الأنحاء المتقاربة.

٢- وكان ﷺ إذا مشى مشى بقوة وعزم، بعيداً عن التَّواقُر المتكلَّف الذي يتصنَّعه المتعاظمون؛ فينزع رجليه في خطوه كأنما يَتَقَلَّع عن الأرض، ويَتَكَفَّأ[(٤)] كأنما يَنْحَدِرُ من عُلُوٍّ[(٥)]، يَعرف مَن يراه أنه ليس بعاجزٍ ولا كسلان، وإذا التفتَ التفت جميعاً[(٦)]، وكان إذا مشى معه أصحابه مَشَوْا أمامه وحوله، وتركوا ظهره للملائكة[(٧)]، ولم يكونوا يتبعونه من خلفه، ولم يطأ عَقِبَه رجلان[(٨)].

وهذا من تواضعه ﷺ أَلَّا يتقدَّم أصحابَه ويدعهم يتَّبعونه من خلفه، كما يفعل الجبابرة، ولا يرضى لأصحابه مظاهر الذُّل أو الاستصغار، بل يمشي فيهم وبينهم.

٣- وكان يسير في الطرق ببهائه وجماله وحسن مظهره فينفح طيباً إذا مشى، وإذا عبر من طريق بقيت رائحته العطرة فيه فيعلم من سلكه بعده أنه قد عبر منه.

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٠).

(٢) «التاريخ الكبير» للبخاري (٥/ ١٤٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨).

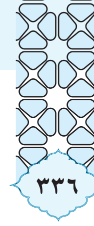
(٤) يتكفّأ: يرفع القدم من الأرض، ثم يضعها، ولا يمسح قدمه على الأرض كمشي المتبختر كأنما ينحط من صبب، أي يرفع رجله عن قوة وجلادة. ينظر: «عون المعبود» (١/ ٥٥).

(٥) «سنن أبي داود» (١٤٣).

(٦) «الأدب المفرد» (١٣١٥).

(٧) «سنن ابن ماجه» (٢٤٦).

(٨) «سنن أبي داود» (٣٧٧٠).



فكان إذا مشى يتوكَّأ أحياناً على عصا من سَلَم أو عَسِيب نخل، وربما جعل في يده عُرجوناً أو مِحْجَناً[١]، وكانت هذه عادة العرب؛ إذ كثيراً ما يعرض لهم ما يحتاجونها له[٢].

٤- وكان في مسيره يتلقَّى حاجات الناس، ويقف لمن يستوقفه، ويذهب في حاجة من يحتاجه، فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. فَقَالَ: «**يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ**». فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا[٣].

وعنه قال: إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ ﷺ، فَمَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهَا حَتَّى تَذْهَبَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ، فِي حَاجَتِهَا[٤]، وفي هذا التعبير مبالغة في التواضع، لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، حيث عمم بلفظ الإماء أيُّ أَمَةٍ كانت، وقوله: حيث شاءت، أي: من الأمكنة حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة[٥].

وعندما حدث عَدِيّ بن حَاتم الطائي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن أول لُقياه النبيَّ ﷺ فقال: بينا أنا أمشي معه، إذ نادتهُ امرأةٌ وَغلامٌ معها: يا رسولَ الله، إنَّ لنا إليكَ حاجةً. فخَلَوْا به قائماً معهما حتى أَوَيْتُ له من طول القيام، قلتُ في

---

(١) العرجون: هُوَ العُود الأصفر الَّذِي فِيهِ شَمَاريخ العِذْق، والمحجن: هي العصا المنشعبة في أعلاها بحيث تكون رأساً ملتقى غصنين. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٠٣) (١/ ٣٤٧).

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٣٢٦).

(٤) «صحيح البخاري» معلقاً (٦٠٧٢)، و«سنن ابن ماجه» (٤١٧٧).

(٥) ينظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤٩٠). والمقصود من الأخذ باليد لازمه، وهو الرفق والانقياد.

نفسي: أشهدُ أنك بَرِيءٌ من ديني ودين النعمان بن المنذر، وأنك لو كنتَ مَلِكاً لم يَقُمْ معه صبيٌّ وامرأة طولَ ما أرى، فَقَذَفَ اللهُ في قلبي له حُبّاً[١].

٥- وكان يتبسَّم لكلِّ مَن يلقاه، قال جريرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ الله ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي[٢].

ما أروع هذه الابتسامة المشعَّة المرحِّبة، التي تُشعِر بالوُدِّ والاختصاص؛ حتى ظنَّ جريرٌ رضي الله عنه أنه ﷺ إنما يفعل ذلك معه وله؛ فوقعت من نفسه هذا الموقع، مع أنه ﷺ يفعل ذلك مع الناس كلهم، كما قال عبد الله بن الحارث بن جَزْء رضي الله عنه: ما رأيتُ أحداً كان أكثرَ تَبَسُّماً من رسول الله ﷺ[٣].

٦- وكان إذا مرَّ بصبيانٍ سلَّم عليهم، ومسح على وجوههم، فعَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مر على غِلْمَانٍ فسلَّم عليهم[٤]، وقال جابر ابن سمُرةَ: خرج النبيُّ ﷺ، وخرجتُ معه، فاستقبله وِلدَانٌ، فجعل يمسحُ خَدَّيْ أحدهم واحداً واحداً، وأما أنا فمسحَ خَدِّي، فوجدتُ ليده برداً وريحاً، كأنما أخرجها من جُؤْنَةِ عطَّار[٥]، فكان الخدُّ الذي مسحه النبيُّ ﷺ أحسنَ من الخدِّ الآخر[٦].

وكان يزورُ الأنصارَ، فإذا جاء إلى دُور الأنصار جاءه صبيان الأنصار، فيدُورونَ حوله، فيدعو لهم، ويمسحُ رؤوسَهم، ويسلِّمُ عليهم[٧].

---

(١) «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٥).

(٣) «جامع الترمذي» (٣٦٤١).

(٤) «صحيح مسلم» (٢١٦٨).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٣٢٩). وجؤنة العطار: سلة صغيرة يحفظ فيها الطيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).

(٦) «المعجم الكبير» للطبراني (١٩٠٩).

(٧) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٠٨٨).

ومرَّ بدُور بني النَّجّار، فتلقَّاه جواري الأنصار، وجعلن يضربن بالدُّفوف ويتغنَّين ويَقُلْنَ:

نحن جَوارٍ من بني النَّجّارِ يا حبَّذا محمدٌ من جارِ

فقال ﷺ: «**اللهُ يعلمُ أنَّ قلبي يحبُّكنَّ، اللهمَّ بارك فيهنَّ**»(١).

ومرَّ في المسجد يوماً، وعصبةٌ من النساء قُعودٌ، فألوَى(٢) بيده إليهنَّ بالسَّلام(٣).

٧- وكان إذا لقي الرجلَ من أصحابه بدأه بالسلام وصافحه ودعا له، وكان إذا صافح أحداً لا ينزعُ يده من يده، حتى يكون هو الذي ينزعُ، وإذا لقي الرجلَ فكلَّمه، لم يصرف وجهه، حتى يكون الرجلُ هو الذي يصرفه(٤).

٨- وكان يمشي بعفوية وتدفُّق، بعيداً عن التزمُّت والتواقر المتكلَّف؛ فيتفاعل مع من يمر بهم مؤانساً وملاطفاً، فقد مرَّ مرَّة في طريقه بشاب يَسْلُخُ شاةً، ولم يكن يُحسنُ السَّلْخَ، فحادَ إليه، فقال له: «**تَنَحَّ حَتَى أُرِيَكَ؛ فَإِنِّي لَا أَرَاكَ تُحْسِنُ تَسْلُخُ**». فأدخل يده بين الجلد واللَّحم، فدَحَسَ بها(٥) حتى توارت إلى الإِبْط، ثم قال ﷺ: «**هَكَذَا يَا غُلَامُ فَاسْلُخْ**». ثم انطلق(٦).

وبذلك كان ﷺ يقيم جسور التواصل بين الأجيال بالاندماج معهم في أحوالهم، وحضوره في تفاصيل حياتهم.

---

(١) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩).

(٢) أي: أشار.

(٣) «سنن أبي داود» (٥٢٠٤).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٧٩٤).

(٥) أي: أدخلها ودسَّها. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٠٤).

(٦) «سنن أبي داود» (١٨٥).

وليت شعري! ما شعور هذا الشاب وهو يرى نبيه ﷺ ينغمس معه في شيء من شأنه الخاص ويعينه عليه؟!

وكيف سيتحدث بذلك مع أمه وأبيه، وكيف سيكون أثر ذلك عليهم ووقعه في نفوسهم؟!

وكان مرةً مع أصحابه في بيت رجل من أصحابه، فأتاه بلالٌ رضي الله عنه يؤذنه بالصلاة، فخرج فمرَّ في طريقه برجل قد وضع بُرْمَتَه[(١)] على النار، فقال له: «**أَطَابَتْ بُرْمَتُكَ؟**». قال: نعم بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله. فتناول منها بَضْعَةً، فجعل يَعْلُكُها[(٢)] وهو يسيرُ، حتى أَحْرَمَ بالصلاة[(٣)].

إنها بساطة الحياة يعيشها مع أصحابه؛ ورفع للحواجز والحجب بينه وبينهم، فهو يتناول بَضْعةً يسيرةً ويظل يمضغها ويسير، ما أبعد ذلك عن سنن المتكبِّرين والجبَّارين!

أما صاحب البُرْمة؛ فكأني به يومه ذلك يحدِّث ويتحدَّث عن طلب النبي ﷺ بَضْعةً من طعامه، ثم أكلها أمامه، حتى لكأن الموقِف وسام العمر له.

٩- وكان يتفاعل مع مَن يلقاهم في الطريق ويظهر الود والمشاركة لهم، قال أنس: رأى النبي ﷺ صبياناً ونساءً مقبلين من عرس، فقام نبي الله ﷺ مُمْثِلاً[(٤)] فقال: «**اللهُمَّ أَنْتُم مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللهُمَّ أَنْتُم مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللهُمَّ أَنْتُم مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ**»[(٥)]. يعني الأنصار، وقال جابر رضي الله عنه:

---

(١) البرمة: القِدْر من حجارة أو فخار. ينظر: «النهاية» (١/ ١٢١).

(٢) أي: يمضغها. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٩٠).

(٣) «سنن أبي داود» (١٩٣).

(٤) مُمْثِلًا: أَيْ مُنْتَصِباً قَائِماً. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٩٥).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٧٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٠٨).

أتى رسول الله ﷺ بني سلمة يزورهم، فلما رجع اجتمع صبيان من صبيانهم، ونساء من نسائهم ينظرون إليه ويتبعونه، فالتفت إليهم فقال: «**أَمَا وَاللهِ إِنَّكُمْ لَئِنْ أَحببتمُوني إِنَّكُمْ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ**»(١).

أيُّ عمق في حياة الناس كان ﷺ يصل إليه بهذه اللفتات الأخَّاذة؟!

١٠- كان يجعل من مسيره في الطريق فرصة للتعليم والدعوة في الوقت والظرف المناسب، فعَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، رسنه ليف فقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»(٢).

فتأمَّل مشهدَ نبيِّك ﷺ يمشي في الأسواق على حمار رسنُه ليف، يقاسم ظهره فتى من الأنصار، في مشهد من مشاهد العبودية والتواضع النبوي الذي يتناءى به ﷺ عن حالِ الجبَّارين والمتكبِّرين.

إنه النبيُّ ﷺ الذي اختارَ أن يكون نبيّاً عبداً، ولم يخترْ أن يكون نبيّاً ملِكاً.

وعن أَبِي طَلْحَةَ زيد بن سهل قال: كُنَّا قُعُوداً بِالأَفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «**مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ؟! اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعُدَاتِ**». فَقُلْنَا: إِنَّمَا قَعَدْنَا لِغَيْرِ مَا بَأْسٍ قَعَدْنَا نَتَذَاكَرُ وَنَتَحَدَّثُ.

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٩٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٠).

قَالَ: «**إِمَّا لَا فَأَدُّوا حَقَّهَا، غَضُّ الْبَصَرِ، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَحُسْنُ الْكَلَامِ**»(١).

وفي هذا الحديث وضع آداباً عامة للطريق تحقق التعاون بين الناس، وتحفظ حقوق السائرين، والجالسين في الطريق.

ومن أحكام الطريق التي كان النبي ﷺ يهذب بها سلوك الناس، ويحفظ للبيئة العامة نظافتها وطهارتها؛ تحريمه قضاء الحاجة في الطريق السالك؛ لما فيه من ضرر على السائرين وتلويث للبيئة، فقال ﷺ: «**اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ**». قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ**»(٢).

ومن الآداب التي حثَّ عليها ورغب بها: إماطة الأذى عن الطريق، وأنها من الصدقة، وخصال الإيمان، فقال ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَى**(٣) **مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»(٤).

ونلاحظ أن أكثر هذه الخصال في الطريق، حتى جعل صيانة الطريق من شعب الإيمان فقال: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ: بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»(٥)، وقال:

(١) «صحيح مسلم» (٢١٢١).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٩).
(٣) السُّلَامَى: جَمْعُ سُلَامِيَة وَهِيَ الْأُنْمُلَة مِنْ أَنَامِلِ الْأَصَابِعِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٩٦).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٩٨٩)، و«صحيح مسلم» (٧٢٠).
(٥) «صحيح مسلم» (٣٥).

«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»[١].

وهكذا كان مسيره في الطرقات أنساً وبركة، وهديه فيها نظافة وطهراً، وحسن تواصل بين العابرين والجالسين، وبذا تكون الطرقات إحدى مرافق المجتمع المطهرة والمأنوسة بالخير والمعروف.

خلاصات:

١- كان ﷺ إذا مشى في الطريق مشى بقوة وعزم كأنما يتقلع عن الأرض.

٢- لم يكن يتقدم أصحابه ويستتبعهم من خلفه وإنما يسير بينهم.

٣- كان يتلقَّى حاجات الناس في طريقه ويقف لمن يستوقفه، ويذهب في حاجة من يحتاجه.

٤- كان يسلم على كل من مر به، ويتبسم في وجه كل من يلقاه.

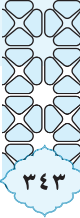
٥- كان يتفاعل مع من يمر بهم ملاطفاً ومؤانساً.

٦- كان في طريقه معلماً لمن يسير معه، أو من سيمر به.

٧- جعل للطريق أحكاماً وآداباً وذوقاً، وجعل صيانته من الصدقات وخصال الإيمان.



(١) «صحيح البخاري» (٦٥٢)، و«صحيح مسلم» (١٩١٤).

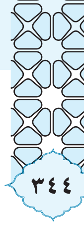


الرَّسُولُ ﷺ والسُّوق

لقد كان من صُنع الله للنبي ﷺ أن خرج مع عمه أبي طالب وعمره اثنتي عشرة سنة في تجارته إلى الشام، ولك أن تتخيَّل فتى في الثانية عشرة من عمره يسير في صحبة قافلة من رجالات التجارة في مكة، وسيذهبون إلى الشام ليبيعوا ويشتروا وستكون أحاديثهم كلها حول تجارتهم، فكان يستمع إليها وكأنه بذلك يُهيَّأ لوعي تجاري يفوق عمره ويسبق سني حياته، ولذلك كانت هذه الرحلة التجارية هي التهيئة لرحلة أخرى بعد اثنتي عشرة سنة؛ عندما ذهب ﷺ إلى الشام مرة أخرى بتجارة خديجة، والتعامل التجاري هو نوع من التأهيل للرسالة؛ لأن التاجر يتعامل مع أنواع من الناس، فكما أن رعي الغنم نوع من تأهيل الأنبياء للرعاية، فكذلك التجارة نوع من التأهيل للتعامل مع أنماط الناس المتنوعة.

ولما رجع النبي ﷺ إلى مكة بتجارة خديجة ثم تزوجها بقي يعمل في أموالها ويتاجر بها، فكان للنبي ﷺ وعي تجاري مبكر.

فلما هاجر ﷺ إلى المدينة كان أول مشروع يقيمه هو مسجده؛ الذي هو مكان الصلاة والعلم والضيافة، والحاوي لأكثر الأنشطة الدعوية



والتعليمية، وكما اختط رسول الله ﷺ المسجد فإنه كذلك اختط السوق، وذلك أن النبي ﷺ عندما قَدِم المدينة كان الاقتصاد في أيدي اليهود، أما الأنصار رضي الله عنهم فكانوا فلاحين في حروثهم ونخيلهم، وكان اليهود قبائل؛ منهم بنو قينقاع، وسكنهم قريب من المسجد النبوي، ومكانهم هو الذي يسميه أهل المدينة اليوم: «سوق العيشة»؛ وهو قريب من أسواق التمر، وبنو قينقاع لم يكونوا فلاحين، وإنما كانوا صاغة وتجَّاراً، وبنو النضير كانوا أهل زراعة وحروث وأهل تجارة وأموال حتى إن ثروة واحد منهم وهو حيي بن أخطب كانت في جلد بقرة مملوء ذهباً وفضة، وهذه الثروة نمت عند يهود بني النضير من التجارة والربا والزراعة، فلما قَدِم النبي ﷺ إلى المدينة كان لابد من تخليص اقتصاد المهاجرين والأنصار من احتكار اليهود، وكان المهاجرون يتاجرون في سوق بني قينقاع؛ كما في قصة عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ آخى بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ ماله، وينزل له عن إحدى زوجتيه ليتزوجها فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ. فدلَّه على سوق بني قينقاع، فَأَتَى السُّوقَ فَرَبِحَ شَيْئاً مِنْ أَقِطٍ وَشَيْئاً مِنْ سَمْنٍ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ. والصُّفْرَة هي: صبغة الزينة للنساء، فإذا رئي الرجل وعليه صُفْرَة فمعناه أن هذا من أثر الصفرة التي كانت على زوجته، فقَالَ له: «**مَهْيَمْ**[1] **يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟**». فَقَالَ: تَزَوَّجْتُ امرأة من الأنصار. فقَالَ النبي ﷺ: «**فَمَا سُقْتَ إِلَيْهَا؟**». قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ: «**فَبَارَكَ اللهُ لَكَ، أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**»[2].

---

(١) مَهْيَمْ: كلمة يَمَانِية مَعْنَاهَا: مَا أَمرك أَو مَا هَذَا الَّذِي أرى بك. ينظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ١٩١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٤٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٣٧).

لقد اتَّجر عبد الرحمن بن عوف وأصبح عنده المال وتزوج هذه المرأة، وكانت هذه التجارة في سوق بني قينقاع، فأراد النبي ﷺ أن يختط سوقاً لأهل المدينة لمصالح منها:

١- تخليص اقتصاد المدينة من احتكار اليهود.

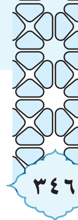
٢- توظيف طاقات المهاجرين الذين كانوا في الأصل تجَّاراً، وهذه فرصة لإطلاق مواهبهم ليحولوا المدينة إلى مركز تجاري.

فتطلَّب النبي ﷺ في بقاع المدينة مكاناً يرتضيه، وقد وقف في أكثر من مكان فلم يرها مناسبة حتى جاءه رجل فقال: يا رسول الله قد وجدت لك مكاناً للسوق، فقال النبي ﷺ: «**أَرِنيهِ**»، فخرج به إلى الجهة الغربية من المسجد ما بين مسجد الغمامة وثنيَّة الوداع، وهي تمر ببني زريق وبني ساعدة، وكان فيه أرض لبني ساعدة فلما رآها النبي ﷺ قال: «**هَذَا سُوقُكُمْ**»[(١)]، وضرب فيه برجله المباركة، واستوهب الأرض من بني ساعدة، ووضع قانون هذا السوق أنه لا يُحتكر، ولا تُضرب عليه الرسوم، ولا يكون فيه حمى لأحد، وإنما يكون سوقاً مفتوحاً، أو حسب تعبيرنا سوقا حرة، ويسمى اليوم «سوق المناخة»، ويقع غربي المسجد النبوي ويمتد جنوباً إلى مسجد الغمامة الذي كان مصلى العيد، وشمالاً إلى ثنيَّة الوداع، وطوله قرابة كيلومتر تقريباً، أما عرضه فيتفاوت اتساعاً وضيقاً بحسب ما يزدحم حوله من المرافق والمباني.

ولو تفكَّرنا في المدينة النبوية وتخيَّلناها ذلك الوقت لرأيناها مدينة صغيرة،

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٢٣٣).



وواحات وقرى متناثرة، لا تحتمل أن يكون سوقها بهذه المساحة الواسعة، فلماذا اختط النبي ﷺ هذا السوق بهذه السعة؟

كأنما كان النبي ﷺ يكشف سُجُفَ الغيب فيرى المدينة وقد كثر أهلها، وازدحم سكانها، وعمرت أسواقها، وصارت مؤهلة أن يكون فيها سوق دولي، ولذلك اختط هذا السوق الواسع الذي بقي عامراً طوال تاريخ المدينة، ولا يزال.

وقد جعله سوقاً حرّاً ليس فيه مكان خاص لأحد، فمَن أتى ببضاعته إلى مكان وسبق إليه فهو أحق به، فإذا انتهى النهار وأخذ بضاعته انتهى اختصاصه بهذا المكان، وبالتالي صار سوقاً جاذباً للبوادي والأرياف التي حول المدينة.

وفي هذا السوق تفاعلت مواهب تجَّار المهاجرين فتحوَّل المهاجرون من كونهم مكفولين إلى أن أصبحوا تجاراً أثرياء أغنياء منفقين، فما كانوا عبئاً على المدينة، وإنما تحوَّلوا إلى قوة اقتصادية فاعلة، وصار هذا السوق يستقبل عبد الرحمن بن عوف، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، فيصْفقون فيه ويتاجرون، ولذلك كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا سمع حديثاً لم يسمعه من النبي ﷺ قال: شَغَلنا الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ[1]. فكان هذا السوق هو المعترك التجاري لهذه المواهب التجارية.

وهذا السوق الذي اختطه النبي ﷺ أول مجيئه إلى المدينة هو أول سوق اختطه نبي، وكأنما يُقدِّم للبشرية هوية الإسلام بهذا، وهو أن هذا الإسلام: دين ومعاملة، وأنه مستوعب لمناشط الحياة كلها.

(١) «صحيح البخاري» (١١٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٣).

وقفات مع النبي ﷺ في السوق:

أولاً: كان النبي ﷺ يدخل السوق ويتخوَّل أهله بالزيارة، ويقوم بما يُعبَّر عنه الآن: بالرقابة على المواد التجارية، فقد دخل النبي ﷺ مرة السوق، فمَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ لصاحبه: «**مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟**». قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله، فقَالَ: «**أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاس؟! مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنّي**»[١]، فكان هذا نوعاً من الرقابة على النشاط التجاري في السوق.

ثانياً: كان النبي ﷺ يربط المعاملات الاقتصادية والتعاملات التجارية بقيم المسلمين وتعاليم دينهم.

يقول أحد الصحابة التجَّار في هذا السوق: كُنَّا نُسَمَّى: السَّمَاسِرَةَ، فَمَرَّ بِنَا رَسُولُ الله ﷺ فَسَمَّانَا بِاسْمٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالْحَلِفُ فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ**»[٢]. أي: تصدَّقوا حتى تكون الصدقة طُهرةً لبيعكم مما قد يشوبه من حلفٍ أو لغوِ قولٍ تذرف به ألسنتكم.

وقال ﷺ وهو يعظ التجَّار: «**إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّاراً إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ**»[٣]. إذن فهو يربط التجارة بالبر وبالتُّقى وبالصدق.

وقال: «**الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»[٤].

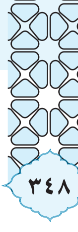
---

(١) «صحيح مسلم» (١٠٢).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٣٢٦).

(٣) «جامع الترمذي» (١٢٥٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٠٧٩)، و«صحيح مسلم» (١٥٣٢).



وأتى مرة من بعض نواحي المدينة فاختار أن يكون طريقه على السوق، فلما رآه أهل السوق مقبلاً ترك كل ما في يده وجاؤوا يتلقّون النبي ﷺ فصار في السوق سِماطَيْن يعني صفين متقابلين، والنبي ﷺ يعبر من بينهما، إجلالاً للنبي ﷺ وشوقاً إلى رؤيته ولقياه، وإذا بالنبي ﷺ يتوجَّه إلى تيسٍ أسكّ[١] ميت، فيُمسكه بأذنه الصغيرة ثم يرفعه في السوق ويبدأ مزاداً على هذا التيس الميت، فيقول: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**». فتعجَّب أهل السوق، وهم تجّار كيف يُقيم مزاداً على تيس ميِّت قد هان على أهله حتى تركوه؟! فقالوا: يا رسول الله، وَالله لَوْ كَانَ حَيّاً كَانَ عَيْباً فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟! وإذا بالنبي ﷺ يُلقيه من يده ويقول لهم: «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»[٢]. وألقاه ومضى.

وكأنما يقول لهم ﷺ: إن هذه الدنيا هيِّنة، إنها أهون على الله من هذا التيس الذي ألقيته وألقاه قبلي أهله، وأنتم ترونه ملقى ولا أحد منكم رغب فيه من هوانه عليكم، «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**». وإذا كانت الدنيا كلها بهذا الهوان عند الله، فهل تستحق سلعةٌ تبيعها أو بضاعةٌ تُنفِّقها أن تحلف عليها يميناً كاذبة؟! أو تكسب بها كسباً حراماً؟! فانظر بلاغة الموعظة ومناسبتها للسوق.

ثالثاً: كان النبي ﷺ يحافظ على حرية السوق الاقتصادية وتفاعله، وأن لا يكون بيد فئة تحتكره، ومن ثمَّ قال: «**لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ**»[٣]، ولما غلا السعر قال له الناس: يا رسول الله سعِّر لنا، فقال: «**إِنَّ اللهَ هُوَ المُسَعِّرُ،**

---

(١) الأسك: هو صغير الأذن، ويعتبر عيباً في خلقته. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٣٥١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٥٧).

(٣) «صحيح مسلم» (١٦٠٥).

القَابِضُ البَاسِطُ الرَّازِقُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ»[١].

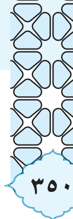
ونهى عن تلقِّي الركبان وهم الذين يأتون ببضائع أو أطعمة أو ماشية من خارج المدينة، فيأتي أحدهم وليس عنده علم بقيمة محصوله في السوق، فيتلقَّاهم السماسرة في الطرق قبل أن يدخلوا المدينة ثم يعرضون عليهم شراءها، فيشترونها بالسعر الذي يفرضونه هم وليس بسعر السوق، وربما اشتروها منهم برخص، ثم يبيعونها بسعر السوق لعلمهم بأثمانها، فنهى النبي ﷺ عن تلقِّي الركبان وقال: «**دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقِ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ**». وفي هذا التوجيه النبوي فوائد منها:

١- أن في ذلك حماية للقادم إلى السوق أن يُغبن في سعر سلعته فتُشترى منه برخصٍ وتُباع بعد ذلك على يد السماسرة بسعر مرتفع، أما إذا قدم صاحب المال بماله إلى السوق فسيبيعه بما يناسبه، وبذلك ترخص البضاعة الغالية؛ لأنه لن يطلب فيها ما يطلبه التاجر المتربِّص.

٢- كما أنه عندما يُتلقَّى الركبان خارج المدينة، فإن البائع سيسلم سلعته ويرجع بالثمن معه، ولو أتى إلى السوق وباع بضاعته فيه واستلم ثمنها فسيشتري هو أيضاً حاجاته من السوق، فما باعه سيشتري بقيمته، وبالتالي تتحرك عجلة السوق أكثر.

ولقد بقي في حديثنا عن النبي ﷺ والسوق أن نشير إلى أن هذا النبي الذي اختط السوق، وفتح فيه هذا النشاط التجاري لم يُنقل لنا عنه منذ دخل المدينة وإلى أن توفي أنه باع شيئاً، ولا خرج من يده شيء بالبيع، فما كان

(١) «سنن أبي داود» (٣٤٥١).



من مالٍ بيده فإنه يخرج منها بالصدقة، أو الهبة، أو الهدية، أما البيع فلم يُنقل لنا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ باع مالاً له في المدينة، وهو الذي أشعل هذا النشاط التجاري الراشد، فأقام للناس دينهم ودنياهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

خلاصات:

١- تفتَّح وعي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على النشاط التجاري في رحلاته إلى الشام، فكانت التجارة نوعاً من التأهيل للتعامل مع أنماط الناس المتنوعة.

٢- لما هاجر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة اختط فيها السوق كما بنى المسجد، فأقام للناس دينهم ودنياهم.

٣- كان سوق المدينة سوقاً حراً له نظامه، لا يُحتَكر، ولا تضرب عليه الرسوم، ولا يكون فيه حِمى لأحد.

٤- في هذا السوق ظهرت مهارات المهاجرين التجارية وساهموا في تفعيل اقتصاد المدينة.

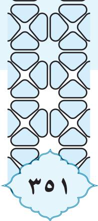
٥- كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يدخل السوق ويقوم بالرقابة على طريقة البيع ونظامه.

٦- كان يربط التعامل التجاري بالقيم الأخلاقية والرقابة الدينية.

٧- كان يحافظ على حرية السوق الاقتصادية وألا يكون بيد فئةٍ تحتكره.

٨- لم ينقل أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ باع شيئاً، وما كان شيء يخرج من ملكه إلا بصدقةٍ أو هبة.





الرَّسُولُ ﷺ وَمُعَامَلَةُ الحَيَوَانِ



أرسل الله نبيه ﷺ رحمة للعالمين، فهو رحمة لعالم الإنس والجن والحيوان والهوام والبيئة، وكل ما جاء به يأتلف لإقامة الحياة وتوازن مكوناتها، وأن الرحمة والإحسان تتعدى الإنسان فتشمل الحيوان والطيور والهوام، ولذا فإن المعاملة النبوية للحيوان تتجاوز الرفق به إلى الإحسان إليه، واعتبار الإحسان إليه من الصدقة التي يتقرَّب إلى الله بها، والإشارة إلى أن الروح والإحساس الذي جعله الله فيه يجعله محلاً للمعروف والإحسان، «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطبةٍ أَجْرٌ**»[١].

وأن اقتدار الإنسان عليها إنما هو من تسخير الله وتذليل قيادها لنا: ﴿**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ**﴾، وأن مِن شُكر الله على إحسانه بها الإحسانُ إليها، وتتجلى رعاية النبي ﷺ لحقوق الحيوان في معالم منها:

أولاً: النهي عن تعذيب الحيوان:

جاءت أحاديث النبي ﷺ محذرة من الإساءة إلى الحيوان بإجاعته

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤).

أو إجهاده، أو فجيعته، أو تشويهه، أو العبث بحياته، واعتبار ذلك من كبائر الذنوب؛ حيث ورد اللعن على بعض ذلك والتوعد بعذاب النار عليه، ومن ذلك:

١- قوله ﷺ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، فقيل لها: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلاَ سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلاَ أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهَا تَنْهَشُهَا إِذَا أَقْبَلَتْ، وَإِذَا وَلَّتْ تَنْهَشُ إِلْيَتَهَا**»(١).

٢- وعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي قَدْ لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا؟**»(٢).

٣- وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمَرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ(٣)، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**». وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ: «**مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟**». قُلْنَا: نَحْنُ. قَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ**»(٤).

٤- وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْراً، وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٤٨٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤).

(٣) تفرش: مِنْ فَرَشَ الطَّائِرُ إِذَا تَرَفْرَفَتْ بِجَنَاحَيْهَا وَتَقَرَّبَتْ مِنَ الأَرْضِ. ينظر: «عون المعبود» (٣/ ٨).

(٤) «سنن أبي داود» (٢٦٧٥).

رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئاً فِيهِ الرُّوحُ غَرَضاً[(١)].

وكذا النهي عن قتل الحيوان لغير حاجة:

٥- فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ إِنْسَانٍ قَتَلَ عُصْفُوراً فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، إِلَّا سَأَلَهُ اللهُ ﷻ عَنْهَا**». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: «**يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا، وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا يَرْمِي بِهَا**»[(٢)].

ثانياً: أمره بالرفق بالحيوان عند ذبحه:

جاءت النظرة الشرعية للحيوان متوازنة، ففيها جواز الانتفاع به ركوباً وأكلاً: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ثم جاء الأمر بالإحسان إليه والرفق به عند استخدامه، والرفق به ورحمته عند ذبحه، ومن ذلك:

١- عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[(٣)].

٢- وعَنْ قرة بن إياس، أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ، وَأَنَا أَرْحَمُهَا ـ أَوْ قَالَ: إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا ـ فَقَالَ: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ، وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**»[(٤)].

٣- وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَاضِعٍ رِجْلَهُ

(١) «صحيح مسلم» (١٩٥٨). وغَرَضاً: أي هدفا للرمي. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١/ ١١٤).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٤٣٤٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٩٥٥).

(٤) «مسند أحمد» (١٥٥٩٢).

عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ وَهُوَ يُحِدُّ شَفْرَتَهُ وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا، فقَالَ: «**أَفَلَا قَبْلَ هَذَا؟! تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ؟!**»[(١)].

٤- وعن جَابِرٍ قال: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْراً[(٢)].

٥- ورأى عمر رضي الله عنه رجلا يجر شاة ليذبحها فضربه بالدّرة وقال: سقها ـ لا أمّ لك ـ إلى الموت سوقاً جميلاً[(٣)].

ثالثاً: الأمر بالرفق بالحيوان عند الاستخدام:

فجاء الأمر بالرفق به فلا يُحمل عليه ما يثقله، ولا يجهد في عمله، ولا يقصر عليه في طعامه، ولا يستخدم فيما لا حاجة إليه، وأكد ذلك بربطه بالتقوى والإيمان، وأن الإحسان سبب للثواب، وفي تعذيبها والمشقة عليها سبب للعقاب.

١- فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ الله ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثاً لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَداً من النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفاً، أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطاً لِرَجُلٍ من الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ[(٤)] فَسَكَتَ، فَقَالَ: «**مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟**». فَجَاءَ فَتىً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ: «**أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي**

(١) «المعجم الأوسط» للطبراني (٣٥٩٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٥٩). وقتله صَبْراً: أَنْ يُمسَك شيءٌ من ذوات الرُّوح حيًّا ثم يُرْمى بِشَيْءٍ حَتَّى يَمُوتَ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٨).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٨٨٧٦).

(٤) ذِفري البعير: أصلُ أذنه. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٦١).

مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟! فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ»[١].

٢- وعَنْ سَهْلِ ابْنِ الحَنْظَلِيَّةِ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ، فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ البَهَائِمِ المُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً**»[٢].

وأمر بالرفق بها عند السفر عليها، وإعطائها حظها من الراحة والإطعام عند السير عليها، ففي الخصب تعطى حظها منه، فلا يسرع بها ولا يعجل عليها لترتع وتأكل من العشب وما أخرج الله من خيرات الأرض.

وفي موسم الجدب يأمر بالإسراع في السير لأنه لا مصلحة لها في أرض مجدبة فتحفظ عليها قوتها حتى تصل حيث تطعم وتراح.

فقال ﷺ: «**إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الخِصْبِ فَأَعْطُوا هَذِهِ الدَّوَابَّ العُجْمَ حَظَّهَا مِنْ الأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ**»[٣].

ونهى عن استخدامها فيما ليس من حاجة الإنسان إليها كاتخاذها منابر وكراسي للخطب والحديث.

٣- فعَنْ معاذ بن أنس، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ وَهُمْ وُقُوفٌ عَلَى دَوَابَّ لَهُمْ وَرَوَاحِلَ، فَقَالَ لَهُمْ: «**ارْكَبُوهَا سَالِمَةً، وَدَعُوهَا سَالِمَةً، وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَالأَسْوَاقِ؛ فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا، وَأَكْثَرُ ذِكْراً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ**»[٤].

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٥٤٩).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٥٤٨).

(٣) «صحيح مسلم» (١٩٢٦).

(٤) «مسند أحمد» (١٥٦٢٩).

٤- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ، فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَتَكُمْ**»(١).

وعلة النهي عن اتخاذها كراسي ومنابر لأنه إجهاد لها من غير ما حاجة، ونوع من التعالي والتكبر أن يقف على الأرض أو يجلس عليها.

ولا يعارض ذلك خطبة النبي ﷺ على راحلته يوم عرفة ويوم النحر وعلى بغلته يوم القر(٢)؛ فإنه فعل ذلك للحاجة، لكثرة الناس حتى يشرف عليهم ويَبلُغَهم صوتُه، وكانت خُطَبه قصيرة لا تطول بحيث ترهق الراحلة وتشق عليها، وكذا وقوفه عليها للدعاء يوم عرفة فإن هذه حاجة عارضة غير متكررة فعلها ﷺ ليشرف على الناس الذين يقصدونه، وليراه من بعد عنه ويراهم، فَفِعْلُه ذلك للحاجة مثل السير عليها.

رابعاً: النهي عن سب الحيوان:

والنهي عن لعن الحيوان وسبه هو نوع من حفظ حقوقه، وحمايةٌ له من تجاوز ذلك إلى ما هو أشد إيذاء أو إجهاداً.

١- فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ**». قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ، مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ(٣).

(١) «سنن أبي داود» (٢٥٦٧).

(٢) هو اليوم الحادي عشر من ذي الحجة، لأن الناس يقرون فيه بمنى.

(٣) «صحيح مسلم» (٢٥٩٥).

فإذا كان لعن الحيوان الذي لا يدركه الحيوان ولا يعيه، ولا يتأذى منه يمنع بهذا المنع البليغ، فكيف بتعذيبه، أو إجهاده؟

٢- ولما سار النبي ﷺ إلى مكة في عمرة الحديبية وبلغ الثنية الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلأَت القَصْوَاءُ[١]، خَلأَت القَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا خَلأَت القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**»[٢]، فانظر كيف دافع النبي ﷺ عن ناقته العجماء أن توصف بغير صفتها وبما ليس من خلقها، ثم بين عذرها وما الذي حبسها.

خامساً: الأمر بالإحسان إلى الحيوان:

وجعل ﷺ رحمة الحيوان من أسباب رحمة الله، فقال: «**والشاةُ إنْ رَحِمتَها رَحِمَكَ اللهُ**»[٣]، والإحسان إليه سبب لإحسان الله ورحمته وغفرانه ذنوب عباده، ودل على ذلك بقوله وفعله.

١- فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَضَعُ لَهَا الإِنَاءَ فَتَشْرَبُ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا. يَعْنِي: الهِرَّةَ[٤].

٢- وعَنْ كَبْشَةَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ـ وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ ـ أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ، دَخَلَ فَسَكَبَتْ لَهُ وَضُوءاً، فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، فَأَصْغَى لَهَا الإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ، قَالَتْ كَبْشَةُ: فَرَآنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَتَعْجَبِينَ يَا ابْنَةَ أَخِي؟

---

(١) أي امْتنعت من المَشْي. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١١٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٣) «الأدب المفرد» (٣٧٣).

(٤) «المعجم الأوسط» (٧٩٤٩).

فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ، إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ**(١) **عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ**»(٢).

٣- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**»(٣).

٤- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**بَينمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَ به العَطشُ فَوَجَد بِئْراً فَنزلَ فِيهَا فَشرِب ثُمَّ خَرجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلهَثُ يَأكلُ الثرى مِنَ العَطَشِ، فَقالَ الرَّجل: لَقدْ بَلغَ هَذا الكَلبَ مِن العَطشِ مِثْل الَّذِي كَانَ بَلغَنِي، فَنَزلَ البِئرَ فَمَلأَ خُفهُ ثُمَّ أَمْسَكَها بِفِيهِ فَسَقَى الكلْبَ فَشكَرَ اللهُ لَه فَغُفِرَ لَه**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وإِنَّ لَنا فِي البَهائِمِ أَجْراً؟ قَالَ: «**فِي كُل كَبدٍ رَطبَةٍ أَجرٌ**»(٤).

وإن تعجب فحق لك أن تعجب أن النبي ﷺ كان يقرر حقوق الحيوان في ذلك الزمان والذي لم يكن يعرف حقوق الإنسان فضلاً عن حقوق الحيوان، وكانت الاحتفالات تقام في مسارح أوروبا كمسرح الكولسيوم في روما وغيره، وفيه تطلق السباع الضارية الجائعة على الأسرى للفرجة والتلهي بهذه الاحتفالية الدموية، ورؤية الدماء المتناثرة والأشلاء الممزقة للحيوان والإنسان، والذي هو عندهم أهون من الحيوان.

(١) جمع الطواف وهو الخادمُ الَّذِي يَخْدُمُك برفْقٍ وعناية، وهنا شَبَّهها بالخَادمِ الَّذِي يَطُوف عَلَى مَولاهُ ويدورُ حَوله. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٤٢).

(٢) «سنن أبي داود» (٧٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٣٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٥٥٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٣٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤).

ولا تزال في بعض دول أوروبا إلى اليوم رعاية هذه الاحتفالية البشعة والتي تسمى: (مصارعة الثيران) فتحتشد الجماهير للتلهي بها، والاستمتاع بالتوحش عليها، ومبارزتها بالسيوف وهي الحيوانات العجماوات العزلاء البريئة، لتقتل تعذيباً وتمزيقاً، بينما النبي ﷺ يأتي في ذلك الزمن ليجعل للحيوان حقوقاً، ويجعل الإحسان إليه ديناً، ويتبع المسلمون هذا الهدي النبوي فتتابع الأوقاف في تاريخ المسلمين للإنفاق على الحيوانات والطيور لإطعامها والرفق بها، وكل ذلك قبل أن تعرف الحضارات كلها جمعيات للرفق بالحيوان.

خلاصات:

١- تجاوزت المعاملة النبوية، الرفق بالحيوان إلى الإحسان إليه، وترتيب الثواب العظيم على رحمته.

٢- أشار ﷺ إلى أن الروح والإحساس الذي جعله الله في الحيوان، يجعله محلاً للبر وتحصيل الأجر: «**فِي كُلِ كَبِدٍ رَطبَةٍ أَجرٌ**».

٣- جاء عنه ﷺ الوعيد الشديد في تعذيب الحيوان، مما يجعله من كبائر الذنوب.

٤- ورد عنه ﷺ الأمر بالرفق بالحيوان في معاملته، بل وعند ذبحه.

٥- جاء عنه النهي عن سب الحيوان ولعنه، مع أن الحيوان لا يدرك ذلك، وهذه رعاية بالغة لحق الحيوان.

٦- جاء عنه ﷺ الإحسان إلى الحيوان والترغيب فيه، وبيان الأجر العظيم المترتب على ذلك، وأن رحمة الحيوان من أسباب رحمة الله ﷻ.

٧- عندما جاء النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بهذه الشرائع لم تكن الدنيا تعرف حقوق الحيوان، بل لم تستكمل رعاية حقوق الإنسان، ليتضح للبشرية أن ما جاء به هذا النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليس ثقافة بشرية، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

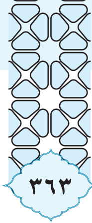




البَابُ الثَّامِنُ

خَوَاتِمُ الكِتَابِ





الرسول ﷺ والموت



أخبر ﷺ أن للموت فزعاً وأمر بكثرة تذكره فقال: «**أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَاتِ المَوْتِ**»(١)؛ لأن تذكر الموت والمصير إليه يجعل الدنيا في حجمها الطبيعي، ويقلل تشبث الإنسان بها، ومن تذكر الموت استعد له وأحسن استقباله وتلقّيه، فإن الموت انتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار العمل إلى دار الجزاء، قال أبو الدرداء: كفى بالموت واعظاً. ومن حضّه ﷺ على استحضار الموت أمره بزيارة المقابر فقال: «**قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، فَقَدْ أُذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ، فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»(٢)، وأول منازل الآخرة الموت.

وكل ميت فهو نذير للأحياء بعده أن هذا هو طريقهم الذي سيلقونه، ومصيرهم الذي ينتظرونه، وكان ﷺ إذا زار القبور قال: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُم لاحِقُون**»(٣)، وقال

---

(١) «مسند أحمد» (٧٩٢٥)، و «سنن الترمذي» (٢٣٠٧).

(٢) «جامع الترمذي» (١٠٥٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٩٧٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٢١٧٨).

عثمان: اعلم أن ملك الموت الذي وكل بك لم يزل يخلفك، ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك، فخذ حذرك واستعد له، ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك[(١)].

وفي الهدي النبوي في التعامل مع الموت معالم منها:

١- نهى ﷺ عن تمني الموت أو الدعاء به فقال: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ مِن ضُرٍّ أصابَهُ، فإنْ كانَ لا بُدَّ فاعِلاً، فَلْيَقُلِ: اللهُمَّ أَحْيِنِي ما كانَتِ الحَياةُ خَيْراً لِي، وتَوَفَّنِي إذا كانَتِ الوَفاةُ خَيْراً لِي**»[(٢)].

٢- وأمر باستقبال الموت بحمد الله فقال: «**إِنَّ اللهَ** ﷻ **يَقُولُ: إِنَّ عَبْدِي المُؤْمِنَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ كُلِّ خَيْرٍ، يَحْمَدُنِي وَأَنَا أَنْزَعُ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ**»[(٣)].

وأن يحسن العبد ظنه بربه عند موته، قَالَ جابر: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** ﷻ»[(٤)].

٣- وأرشد من حضره الموت أن يكون آخر كلامه شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**». وأمر من حضر محتضراً أن يلقنه إياها إذا لم يقلها فقال: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[(٥)].

٤- وكان إذا حضر الأموات تأثر لذلك ورقّ لحالهم وفاضت رحمته بهم عبرات تسيل على وجهه الكريم، فقد رفع إليه ابن بنته وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ

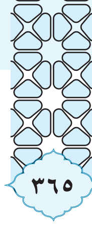
(١) «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٢٣٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٠).

(٣) «مسند أحمد» (٨٤٩٢).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٨٧٧).

(٥) «صحيح مسلم» (٩١٧).



كأنها شَنٌّ[١]، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ له سَعْدٌ: يَا رَسُولَ الله، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[٢].

وعندما دخل على ابنه إبراهيم وهو في سياق الموت بكى وقال: «**يَا إبراهيمُ لَوْلَا أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ وَوَعْدٌ صِدْقٌ، وَسَبِيلٌ مَأْتِيَّةٌ، وَإِنَّ أُخْرَانَا ستلْحَقُ أُولَانَا لَحَزِنَّا عَلَيْكَ حُزْناً أَشَدَّ مِنْ هَذَا، وَإِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ، تَبْكِي العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ**»[٣].

وكان يشارك أصحابه فواجع الموت داعياً للميت، ومواسياً ومعزياً للحي، وكانوا يخبرونه بمن حضره الموت من أصحابه فيحضره ويستغفر له وينتظر موته، قال أبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المدينة كُنَّا نُؤْذِنُهُ لِمَنْ حُضِرَ مِنْ مَوْتَانَا فَيَأْتِيهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، فَيَحْضُرُهُ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ، وَيَنْتَظِرُ مَوْتَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ رُبَّمَا حَبَسَهُ الحَبْسَ الطَّوِيلَ فَيَشُقُّ عَلَيْهِ، فَقُلْنَا أَرْفَقُ بِرَسُولِ الله أَنْ لَا نُؤْذِنَهُ بِالمَيِّتِ، حَتَّى يَمُوتَ، فَكُنَّا إِذَا مَاتَ مِنَّا المَيِّتُ، آذَنَّاهُ بِهِ، فَجَاءَ فِي أَهْلِهِ فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ إِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَشْهَدَهُ، انْتَظَرَ شُهُودَهُ، وَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَنْصَرِفَ انْصَرَفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ طَبَقَةً أُخْرَى، فَقُلْنَا: أَرْفَقُ بِرَسُولِ الله ﷺ أَنْ نَحْمِلَ مَوْتَانَا إِلَى بَيْتِهِ، وَلَا نُشْخِصَهُ، وَلَا نُعَنِّيَهُ، فَفَعَلْنَا ذَلِكَ فَكَانَ الأَمْرُ[٤].

وحضر ﷺ أبا سلمة وقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ، فَأَغْمَضَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الرُّوحَ**

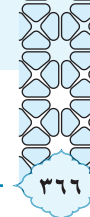
---

(١) شن: هي القربة القديمة اليابسة، يكون لها صوت إذا حُرِّكَت، شَبَّه حشرجة صدر الصبي المحتضر بصوت الشن عند تحريكه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

(٤) «مسند أحمد» (١١٦٢٨).



إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ». فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «**لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**». ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ**»[(١)].

٥- وأمر عند وقوع مصيبة الموت أن لا يقول أهل الميت إلا خيراً ولا يدعوا إلا بخير، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا حَضَرْتُمُ المَرِيضَ أَوْ المَيِّتَ، فَقُولُوا خَيْراً فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**»[(٢)].

ودخل على عثمان بن مظعون يوم مات، فكشف عن وجهه وأكب عليه طويلاً يقبله، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَرَأَوْا فِي عَيْنَيْهِ أَثَرَ البُكَاءِ، ثُمَّ أَحْنَى عَلَيْهِ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَرَأَوْهُ يَبْكِي، ثُمَّ أَحْنَى عَلَيْهِ الثَّالِثَةَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَلَهُ شَهِيقٌ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَبَكَى القَوْمُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَهْ؛ إِنَّمَا هَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ، فَاسْتَغْفِرُوا اللهَ**». ثُمَّ قَالَ: «**أَذْهِبْ عَنْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَلَقَدْ خَرَجْتَ وَلَمْ تَتَلَبَّسْ مِنْهَا بِشَيْءٍ**»[(٣)].

وأمر من أصيب بحبيب أو قريب أن يقول: اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ، فَلْيَقُلْ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهُمَّ عِنْدَكَ أَحْتَسِبُ مُصِيبَتِي، فَأْجُرْنِي فِيهَا وَأَبْدِلْنِي بِهَا خَيْراً مِنْهَا**». فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُهَا، فَجَعَلْتُ كُلَّمَا بَلَغْتُ: وَأَبْدِلْنِي بِهَا خَيْراً مِنْهَا، قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَمَنْ خَيْرٌ

---

(١) «صحيح البخاري» (٩٢٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٩١٩).

(٣) «مسند أحمد» (٢٤١٦٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠٨٢٦).

مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ ثُمَّ قُلْتُهَا: فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا بَعَثَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ يَخْطُبُهَا، فَلَمْ تَزَوَّجْهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ يَخْطُبُهَا عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: أَخْبِرْ رَسُولَ الله ﷺ أَنِّي امْرَأَةٌ غَيْرَى، وَأَنِّي امْرَأَةٌ مُصْبِيَةٌ[1]، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِي شَاهِداً. فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «**ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَقُلْ لَهَا: أَمَّا قَوْلُكِ: إِنِّي امْرَأَةٌ غَيْرَى، فَسَأَدْعُو اللهَ ﷻ فَيُذْهِبُ غَيْرَتَكِ، وَأَمَّا قَوْلُكِ: إِنِّي امْرَأَةٌ مُصْبِيَةٌ فَسَتُكْفَيْنَ صِبْيَانَكِ، وَأَمَّا قَوْلُكِ: إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِكِ شَاهِداً، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِكِ شَاهِدٌ وَلَا غَائِبٌ يَكْرَهُ ذَلِكَ**»[2].

٦- وكان يأمر بمواساة أهل الميت وصنع الطعام لهم، فعندما أتاه نعي جعفر بن أبي طالب قال: «**اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَاماً، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ**»[3]، فإن المحزون في حال ذهولٍ عن إعداد الطعام، فمن مواساته إعداد الطعام لأهله من أقاربه أو أصدقائه أو جيرانه.

٧- وأذن بالبكاء على الميت ونهى عن النياحة ورفع الصوت وشق الجيوب، فقال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**»[4]، لما في ذلك من التسخّط وعدم الرضا بما قضاه الله وقدره.

وأخبر أن الحزن عند الفقد شعور فطري لا يؤاخذ عليه فقال: «**إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا** ـ وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ ـ **أَوْ يَرْحَمُ**»[5]، ولكنه نهى عن استدامة الأحزان وإطالة مظاهرها فقال: «**لَا**

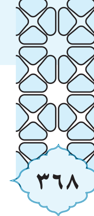
(١) أيْ ذاتُ صِبْيَانٍ وأيْتامٍ. ينظر: «النهاية» (٣/ ١١).

(٢) «مسند أحمد» (٢٦٦٩٧).

(٣) «سنن أبي داود» (٣١٣٢)، و«جامع الترمذي» (١٠١٩)، و«سنن ابن ماجه» (١٦١٠).

(٤) «صحيح البخاري» (١٢٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٣).

(٥) «صحيح البخاري» (١٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٤).



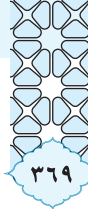
يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً»[(١)].

٨- وكان إذا مرت به جنازة قام لها حتى تغيب عنه، ومَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْساً؟»[(٢)]. فقام ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى تَوَارَتْ[(٣)]. وقال جابر بن عبد الله: مَرَّتْ جَنَازَةٌ، فَقَامَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقُمْنَا مَعَهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهَا يَهُودِيَّةٌ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمَوْتَ فَزَعٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ فَقُومُوا»[(٤)].

٩- وكان يصلي على أصحابه ويخلص الدعاء لهم، قال عوف بن مالك: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَاراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْراً مِنْ أَهْلِهِ وَزَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، أَوْ: «مِنْ عَذَابِ النَّارِ». قَالَ: حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْمَيِّتَ[(٥)].

وعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: «اللهُمَّ إِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِكَ، وَحَبْلِ جِوَارِكَ، فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَقِّ، فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، إِنَّكَ أَنْتَ

(١) «صحيح البخاري» (١٢٨٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٨٦).
(٢) «صحيح البخاري» (١٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٩٦١).
(٣) «صحيح مسلم» (٩٦١).
(٤) «صحيح البخاري» (١٣١١)، و«صحيح مسلم» (٩٦٠).
(٥) «صحيح مسلم» (٩٦٣).



الغَفُورُ الرَّحِيمُ»[١]. وكان يقول: «**إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ**»[٢].

وكان يحرص أن يصلي على من مات من أصحابه ويقول: «**لَا يَمُوتَنَّ فِيكُمْ مَيِّتٌ مَا كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ إِلَّا آذَنْتُمُونِي بِهِ، فَإِنَّ صَلَاتِي عَلَيْهِ لَهُ رَحْمَةٌ**»[٣]، وإذا دفن أحد ولم يعلم به ذهب إلى قبره فصلى عليه، فقد اشْتَكَتِ امْرَأَةٌ بِالعَوالِي مِسْكِينَةٌ، وكان ﷺ يعود المساكين ويسأل عنهم، فَكَانَ يَسْأَلُهُمْ عَنْهَا، وَقَالَ: «**إِنْ مَاتَتْ فَلَا تَدْفِنُوهَا حَتَّى أُصَلِّيَ عَلَيْهَا**». فَتُوُفِّيَتْ، فَجَاؤوا بِهَا إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ العَشاء، فَوَجَدُوا رَسُولَ الله ﷺ قَدْ نَامَ، فَكَرِهُوا أَنْ يُوقِظُوهُ، فَصَلَّوْا عَلَيْهَا وَدَفَنُوهَا بِبَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ جَاؤوا فَسَأَلَهُمْ عَنْهَا، فَقَالُوا: قَدْ دُفِنَتْ يَا رَسُولَ الله، وَقَدْ جِئْنَاكَ فَوَجَدْنَاكَ نَائِماً فَكَرِهْنَا أَنْ نُوقِظَكَ، قَالَ: «**فَانْطَلِقُوا**». فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَشَوْا مَعَهُ حَتَّى أَرَوْهُ قَبْرَهَا، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ، وَصَفُّوا وَرَاءَهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا وَكَبَّرَ أَرْبَعاً[٤].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ[٥] المَسْجِدَ فَفَقَدَهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا فَقَالُوا: مَاتَت، قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟!**». قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا، فقَالَ: «**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا**». فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ القُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ الله ﷻ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»[٦].

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٢٠٢).

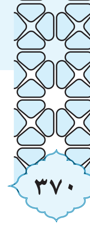
(٢) «سنن أبي داود» (٣١٩٩).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٠٢٢).

(٤) «سنن ابن ماجه» (١٥٢٩).

(٥) أيْ تَجمَعُ القُمامَةَ وهِيَ الكُناسَةُ. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٥٥٣).

(٦) «صحيح مسلم» (٩٥٦).



١٠- وكان يصحب الجنازة وينتظرها حتى تدفن، قال البراء: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى القَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا باللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ**». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً، ثم ذكر حديث القبر الطويل[١].

وكان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»[٢].

١١- وكان يزور الأموات في قبورهم ويدعو لهم، فعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى البَقِيعِ، فَيَقُولُ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَداً مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ**»[٣].

خلاصات:

١- أمر ﷺ بتذكر الموت، وزيارة القبور لتذكر النقلة إليها.

٢- نهى ﷺ عن تمني الموت، وأمر باستقباله بحسن الظن بالله.

٣- أرشد من حضره الموت أن يكون آخر كلامه: «**لَا إِلهَ إِلَا اللهُ**»، وأمر من حضره أن يلقنه إياها.

٤- كان ﷺ يبكي عند موت من يموت ويقول: «**إِنَّها رَحْمَةٌ**».

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٧٥٣).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٢٢١).

(٣) «صحيح مسلم» (٩٧٤).

٥- أمر ألا يقول أهل الميت عند موته إلا خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما يقولون، وأرشد إلى ما يقول من أصيب بمصيبة.

٦- كان يأمر بمواساة أهل الميت وصنع الطعام لهم.

٧- أذن بالبكاء ونهى عن النياحة، وأذن بالحزن ونهى عن استدامته بالإحداد فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً.

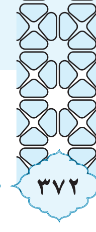
٨- كان يشارك أصحابه فواجع الموت فيدعو للميت ويعزي الحي ويواسيه.

٩- كان يقوم للجنازة إذا مرت به، وإن كانت لغير مسلم، ويقول: «**أَلَيْسَتْ نَفْساً؟**».

١٠- كان يصلي على من مات من أصحابه، ويأمرهم أن يؤذنوه بمن مات حتى يصلي عليه، ويتبع الجنائز إلى المقابر حتى تدفن.

١١- كان يزور الأموات في قبورهم، ويدعو لهم.





إلى الرفيق الأعلى



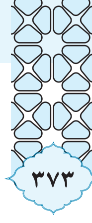
سبق لقاء النبي ﷺ بالموت التهيئةُ من ربه لذلك، فتنزَّلت آيات القرآن تهيئ الأمة لهذا الحدث الضخم والمصاب العظيم، وتهيئ النبي ﷺ لهذا الترقِّي إلى الرفيق الأعلى، فأنزل الله بعد معركة أُحد: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وذلك ليكون موته مما ينتظر في حياة أصحابه.

ثم أنزل الله على رسوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾، قال ابن عباس: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، فَتْحُ مَكَّةَ فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[(١)].

وقالت عائشة: مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: **«سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي»**[(٢)].

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٨١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤).



وفي شهر رمضان من سنة عشر دارسه جبرائيل القرآن مرتين، وكان يدارسه قبل ذلك في كل سنة مرة فعلم أن ذلك لقرب أجله، لأنه إشارة إلى أن القرآن قد اكتمل نزوله، وأن مهمة النبي ﷺ في البلاغ قد انتهت، وأن عليه أن يتهيَّأ للحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى.

فلما حجَّ حجة الوداع ودَّع الناس وقال: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ، لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»[(١)].

وقال: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ**»[(٢)].

ولما مرض مرضه الأخير أسرَّ إلى ابنته فاطمة أن أجله قد اقترب، وأنه مقبوض في وجعه ذلك[(٣)].

ابتدأ رسول الله ﷺ بشكواه، الذي قبضه الله فيه، في أواخر ليالي شهر صفر، وكانت مدة مرضه ﷺ ثلاثةَ عشر يوما، وهو قول الأكثر، وقيل غير ذلك[(٤)].

وكان رسول الله ﷺ في مدة مرضه يصلي بالناس إلى أن ثقل به المرض جدّاً فانقطع عن الصلاة في المسجد، وأمر أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يصلي بالناس.

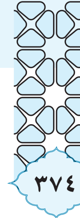
وكان أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من وجعه الصداع الشديد في رأسه الشريف، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جَنَازَةٍ بِالبَقِيعِ، وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعاً فِي رَأْسِي، وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهْ قَالَ:

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٠٦٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٠٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٦٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

(٤) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٤٧٣).



«**بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ**». ثم قَالَ: «**مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي، فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ، وَدَفَنْتُكِ؟**». قُلْتُ: لَكِنِّي أَوْ لَكَأَنِّي بِكَ، وَاللهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ، قَالَتْ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ بُدِئَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ(١).

ثم اشتد عليه المرض في بيت ميمونة فاستأذن أزواجه أن يمرّض في بيت عائشة فما عاد به قدرة على التنقل بينهن، وكان يحب أن يطبب في بيت عائشة فأذنَّ له فخرج معصوب الرأس بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب تخط قدماه في الأرض حتى انتهى إلى بيت عائشة(٢).

واشتدّ برسول الله ﷺ وجعه(٣) وكانت آخر صلاةٍ صلاها بالناس صلاة المغرب، ثم اشتدّ عليه الوجع، قالت عائشة رضي الله عنها: ثقل برسول الله وجعه فقال: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**». قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ، قَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**». فَفَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ، فَذَهَبَ لِيَنُوءَ(٤) فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ ﷺ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**». قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**». فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**». قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللهِ،

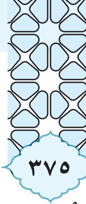
---

(١) «مسند أحمد» (٢٥٩٠٨)، و «سنن ابن ماجه» (١٤٦٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٤١٨).

(٣) الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن المرض بدأ بالنبي ﷺ قبل ذلك ولكن لم يكن بالشديد ولا المتواصل، وأن مرضه كان حمى الملاريا، ولعله أصابته عند نزوله في غدير خم في رجوعه من حجة الوداع، وكان مكاناً وخماً موبوءاً، وأن حمى الملاريا تضاعف تأثيرها مع أثر سم الزرنيخ الذي كان في الشاة المسمومة التي أكل منها في خيبر، وهذه توقعات تستشف ولا يجزم بها ولا يترتب عليها أثر. وينظر كتاب: «طبيب عبر الزمن»، د. منصور الجابري.

(٤) لينوء: لينهض بجهد. ينظر: «فتح الباري» (٢/ ٢٠٥).



فَقَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**». فَقَعَدَ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**». فَقُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي المَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِصَلَاةِ العِشَاءِ الآخِرَةِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ـ وَكَانَ رَجُلاً رَقِيقاً ـ: يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا العَبَّاسُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ لَا يَتَأَخَّرَ، قَالَ: أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ، فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَأْتَمُّ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالنَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ[(١)].

ثم خرج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى الناس في شدة مرضه متوكئاً على الفضل بن العباس عاصباً رأسه بعصابة دسماء، وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه، فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم، ثم جلس والناس مجتمعون حوله، فحمد الله وأثنى عليه واستغفر للشهداء الذين قتلوا في أُحد ثم قال: «**إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فعجب الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وقالوا: ما يبكي هَذَا الشَّيْخ إن يكن الله خَيَّر عبداً بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فاختار ما عنده؟! قال أبو سعيد: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هُوَ المُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ**

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٧)، و«صحيح مسلم» (٤١٨).

فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا خُلَّةَ الإِسْلاَمِ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ»(١).

وعهد إليهم في الأنصار فقال: «أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي(٢)، وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»(٣)، ثم نزل عن المنبر فكانت آخر مرة رأوه عليه.

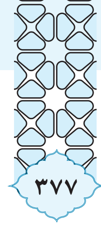
وكانت آخر نظرةٍ نظرها الصحابة إلى رسول الله ﷺ يوم أشرق عليهم وجهه الكريم المبارك في يوم الاثنين، بعد أن غاب عنهم خمسة أيام، خيم عليهم فيها الوجوم والحزن؛ لغياب رسول الله ﷺ عن محرابه الذي طالما وقف فيه، فقد فقدوا تكبيره وقرآنه، وإشراق محيَّاه أياماً، وكان الشيخ المبارك أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصلي بهم صلاة الفجر، وهو الأسيف الذي يُقَطِّع القرآن ببكائه، فما فجأهم إلا سترُ حجرته يُرفع، وإذا هو ﷺ قائم بالباب ينظر إليهم يضحك، وهو يراهم وقوفا كما علَّمهم، خشوعاً كما أدَّبهم، فطفح السرور على وجهه الكريم، فما رأى الصحابة منظراً أعجب إليهم من وجه رسول الله ﷺ وهو ينظر إليهم يضحك، كأن وجهه ورقة مصحف؛ حتى كادوا أن يفتتنوا في صلاتهم، واضطربت الصفوف، فقد ظنوا أنه خرج إليهم ليُصلي بهم، وإذا به يُشير إليهم أن

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٢). والخوخة: باب صغير كالنافذة الكبيرة، وتكون بين بيتين ينصب عليها باب. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٦).

(٢) كَرِشِي وَعَيْبَتِي: أراد أنهم بطانته وموضع سره وأمانته، والذين يعتمد عليهم في أموره، واستعار الكرش والعيبة لذلك؛ لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يضع ثيابه في عيبته. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٦٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٧٩٩) و«صحيح مسلم» (٢٥١٠).



أتموا صلاتكم، ثم أرخى ستر حجرته، فكانت هذه آخر نظرة نظرها إليهم، وآخر نظرة نظروها إليه(١).

فلما تعالى النهار إذا بالنبي ﷺ يُودِّع الدنيا ويذرف آخر أنفاس الحياة، ويختار اللحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى، قالت عائشة رضي الله عنها: وكان بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ(٢) أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَات، اللهُمَ أَعِني عَلى سَكَراتِ المَوتِ**»(٣)، ومع شدائد الموت وكربه فإنه ما ذهل عن أمته ودعوته، فأنفق آخر أنفاس الحياة، وآخر لحظات العمر وصاة لأمته، فعندما نزل به الموت طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «**لَعْنَةُ الله على اليَهُودِ والنَّصارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(٤). قالت: يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا. وجعل ﷺ وهو في سكرات الموت يقول: «**الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**». فَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ بِهَا، وَمَا يَكَادُ يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ(٥).

قالت عائشة: وكان رسول الله وهو صحيح يقول: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُم يُخَيَّرَ**». فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**». فَقُلْتُ: إذن لَا يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٢) الركوة: إِنَاءٌ صَغيرٌ مِن جِلْدٍ يُشْرَبُ فِيهِ الماءُ، يشبه الدلو الصغير. ينظر: «تاج العروس» (٣٨/ ١٧٨).

(٣) «سنن ابن ماجه» (١٦٢٣).

(٤) «صحيح البخاري» (١٣٩٠)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٤٥٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).

الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ[(١)]. ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**». وَمَالَتْ يَدُهُ[(٢)].

وكان آخر ما تكلم به: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الأَعْلَى**». قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى[(٣)]. وتوفي ﷺ وهو بين يدي عائشة رضي الله عنها، مستنداً إلى صدرها.

قَالَتْ رضي الله عنها: قُبِضَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَأْسُهُ بَيْنَ سَحْرِي[(٤)] وَنَحْرِي، فَلَمَّا خَرَجَتْ نَفْسُهُ، لَمْ أَجِدْ رِيحاً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا[(٥)].

وفاضت أطهر روح في الدنيا من جسدها، وصعدت إلى بارئها راضية مرضية، وخرج أكرم إنسان على الله تعالى في هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها، ولم يترك مالاً ولا متاعاً، ولا ولداً إلا فاطمة عليها السلام، وإنما ترك هداية وإيماناً، وشريعة عامة خالدة، وميراثاً نورانياً عظيماً[(٦)].

وكان من حكمة الله وصُنعه لنبيه أن يموت في سنٍّ مبكرة نسبياً، فمات ﷺ وهو مستجمع قوته ونشاطه ويقظته الذهنية، ولم يتمادَّ به العمر إلى مرحلة الوهن الشديد، ولم يدرك حالات العجز أو الحرج، وقد كان مما يستعيذ بالله منه أن يرد إلى أرذل العمر[(٧)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٤٩).

(٣) «صحيح مسلم» (٢١٩١).

(٤) السحر: موضع الرئة، ويراد به هنا الصدر. ينظر: «عمدة القاري» (١٨/ ٧٠).

(٥) «مسند أحمد» (٢٤٩٠٥)، و«صحيح البخاري» (١٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٣).

(٦) باختصار من «السيرة النبوية الصحيحة في ضوء القرآن والسنة» (٢/ ٥٩٤) د. محمد أبي شهبة رحمه الله.

(٧) «صحيح البخاري» (٦٣٩٠).

وبوفاته ﷺ انقطع الوحي من السماء، وأظلم من المدينة كل شيء، وكانت المصيبة به أعظم المصائب على الأمة كما قال ﷺ: «**فَإِنَّ أَحَداً مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي**»[١].

فهو الذي لم يوجد مثله يوم وُجد، ولن يُفقد مثله يوم فُقد:

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد[٢]

ذهب الرسول وبقيت الرسالة، وتوفي الداعي وبقيت الدعوة، ومات النبي وبقيت الأمة.

توفي ﷺ بعد أن أكمل الله به الدين، وأتم النعمة، ورضي الإسلام ديناً، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

توفي ﷺ بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكمُ

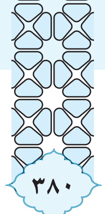
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرمُ

أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته ... عند الصراط إذا ما زلت القدم[٣]

(١) «سنن ابن ماجه» (١٥٩٩).

(٢) من شعر حسان بن ثابت. «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦٨).

(٣) «الأذكار» للنووي (ص٢٠٦).



خلاصات:

١- سبقت وفاة النبي ﷺ إرهاصات التهيئة لهذه النقلة، ومنها: سورة النصر، ومدارسة جبرائيل القرآن مرتين في آخر رمضان، وتوديعه ﷺ الناس في حجة الوداع.

٢- خرج إلى الناس في مرضه الذي توفي فيه فألمح إلى وفاته، وأوصاهم وعهد إليهم.

٣- كانت آخر نظرة نظرها الصحابة إلى رسول الله ﷺ يوم وفاته حين كشف الستر ينظر إليهم في صلاة الفجر ضاحكا كأن وجهه ورقة مصحف.

٤- أنفق ﷺ آخر أنفاسه وصاة لأمته، يحذرها من أسباب الغلو، ويعهد إليها بالصلاة وما ملكت أيمانهم.

٥- ذهب الرسول وبقيت الرسالة، وتوفي الداعي وبقيت الدعوة، ومات النبي وبقيت الأمة.



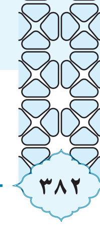
عالم الرسول الرحيب[١]

يتسع عالم الإنسان الذي يعيش فيه أو يضيق بحسب سعة علمه وضيقه، وييسر الله تعالى له أسباباً للعلم وكلما توفر له منها قدر أكبر كان علمه أكثر.

وأعظم العلم وأشرفه وحي الله تعالى، الذي يعلمه الأنبياء علماً مباشراً أو بوساطة ملائكته، ويَعْلَمُه سائر الناس بتبليغ الأنبياء.

ولما كان رُسُل الله أحب خلق الله إلى الله، فلا جرم آتاهم من العلم بنفسه تعالى وبخلقه ما لم يؤت غيرهم، وآتاهم من أسباب العلم ووسائله ما لم يؤت أحداً من سائر خلقه. ومحمد ﷺ هو أحب رسل الله إلى الله، فلا جرم كان أعلمهم به وبخلقه، ولا جرم كان عالمه الذي يعيش فيه أرحب عالم، وآفاقه الكونية الواسعة أرحب من مدركات البشر، ورؤيته للعالم تتجاوز هذا العالم المرئي، ونظره إلى الماضي والمستقبل مشاهدةٌ تُرفَعُ فيها حجب الزمن وأستار الغيب.

(١) أصل المقال مذاكرة مع شيخي جعفر شيخ إدريس، وما كتبته هو صياغة لفكرته، وهذه مقدمة مختصرة من مقدمته لمقالة: «عالم النبوة الرحيب».



وإذا كان الله يرفع الولي إذا أحبه إلى منزلة عالية ليست لغيره من البشر؛ «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[(١)].

فكيف بمنزلة الرسل وهم أفضل الخلق وأكرمهم؟ فكيف بسيدهم وأفضلهم وأحبهم إلى الله؟ وأقرب الخلق إليه من كل ملائكته ورسله، ومن له الوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة، والمقام المحمود؟

وقد كان ﷺ يعيش في عالمٍ أرحب من كل عالم بشري، ويسَّر الله لنبيه من وسائل العلم ومصادره ما لم ييسره لأحدٍ غيره، وكانت المصادر الأساسية التي تلقَّى عن طريقها معارفه هي:

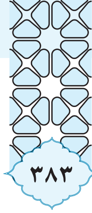
أولاً: فطرته السليمة وفؤاده الخير العاقل؛ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ وقال ابن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته[(٢)].

ثانياً: القرآن الذي أوحاه الله إليه، والسنة التي آتاه إياها؛ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

ثالثاً: حواسه المتميزة، وملاحظته الدقيقة، وما وهبه الله من مواهب جعلت هذه العلوم تؤتي ثمارها إلى أقصى غاية، ويوضح ذلك حديثه عن الجهنميين الذين يخرجهم الله من النار، قال: «**يُخْرِجُهم مِنْهَا وهم لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ قَدْ**

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٠٢).

(٢) «مسند أحمد» (٣٦٠٠).



عَادُوا حُمَماً، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالبَادِيَةِ[١].

وبهذه المواهب اجتمع للمصطفى ﷺ من أنوع العلوم وكثرتها ونفعها ما لم يحظ بمثله بشرٌ قبله ولا بعده، فعاش بهذا العلم في عالم لا يدانيه عالمٌ في سعته ورحابته.

رابعاً: ما كشف الله له من الحجب، وأطلعه عليه من الغيوب، فقد كشف له من آفاق الكون، وعالم الغيب، وأحداث المستقبل ما لم يكشف لبشرٍ غيره كالذي رأى ليلة الإسراء والمعراج وما أوحي إليه من مستقبل الدنيا وأحوال الآخرة، مما لم يطلع عليه غيره، ولا أدركه علم أحدٍ سواه. ومن سعة علمه وعالمه:

١- علمه بالله:

أشرف علومه وأعظمها علمه بالله ﷻ، فكان ﷺ أعلم الخلق بالله، وقال عن نفسه: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا**»[٢].

وهنالك علاقة قوية بين العلم بالله وخشيته وتقواه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

ولما كان رسول الله ﷺ أخشى الناس لله، فقد أحبه الله وجعل هذا الحب جوهر الصلة بينه وبين نبيه ﷺ، فكان حباً بلغ الغاية التي جعلت

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠).

النبي ﷺ خليل الله، والخلة هي أعلى درجات المحبة، وهذه الخلة هي التي جعلت النبي يستغني بها عن اتخاذ أحد غير الله تعالى خليلاً، كما قال ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً، لاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلاً، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ الله**»[(١)].

وقد رتَّب الله تعالى على هذه الخلة بينه وبين عبده ونبيه محمد ﷺ أموراً كثيرة منها: أنْ جعل اتباعه دليلاً على حب العبد لله: ﴿**قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**﴾.

وجعل الله ﷻ طاعة خليله طاعة له سبحانه: ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا**﴾.

وجعل تقديم حبه على حب غيره شرطاً في الإيمان، كما قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[(٢)].

وإذا كان الله تعالى قد أحب محمداً أكثر من حبه لغيره، فكيف يكون الإنسان مؤمناً وهو يحب أحداً غير محمد حبه لمحمد ﷺ؟

ومنها أنه أعطاه الوسيلة التي هي أرفع درجات الجنة، كما أعطاه المقام المحمود، وكان النبي ﷺ بهذا سيد ولد آدم. وإذا كان سيد ولد آدم وكان بنو آدم هم أكرم الخلق كان محمد ﷺ أكرم الخلق أجمعين، وكانت نتيجة هذا الحب في حياة النبي ﷺ الدنيوية الواقعية، أن صارت حياته كلها معبرة عنه، فكان ﷺ يحب كل ما أحب الله ويكره كل ما كره الله، ولعل في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ[(٣)]. إشارة إلى هذا المعنى.

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٨٣).

(٢) «صحيح البخاري» (١٥).

(٣) «صحيح مسلم» (٧٤٦).

وكان النبي ﷺ دائم الصلة بالله يظل عند ربه يطعمه ويسقيه، وكانت صلة لا يقطعها حتى النوم فكان ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه. وهل تكون خلة مع انقطاع الصلة بين الخليل وخليله؟ وكانت قرة عينه في الصلاة التي تزيد العبد صلة بربه ولا سيما وهو ساجد. وكان مع مغفرة الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقوم حتى تفطَّرت قدماه فإذا سئل عن ذلك قال: «**أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟**». وكيف لا يشكر المحب حبيبه الذي حَبَاهُ وأعطاه ما لم يؤت غيره؟[1].

٢- اطلاعه على ما لم يطلع عليه غيره:

ومن سعة علمه وعالمه ﷺ اطلاعه على ما لم يطلع عليه غيره، ومن ذلك:

أ. علوه إلى الملأ الأعلى، وارتفاعه إلى مستوى لم يبلغه غيره، ولم يرتفع إليه سواه.

أَسرى بِكَ اللَّهُ لَيلاً إِذ مَلائِكُهُ ... وَالرُسلُ في المَسجِدِ الأَقصى عَلى قَدَمِ

جُبتَ السَماواتِ أَو ما فَوقَهُنَّ بِهِمْ ... عَلى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُجُمِ

حَتّى بَلَغتَ سَماءً لا يُطارُ لَها ... عَلى جَناحٍ وَلا يُسعى عَلى قَدَمِ

وَقيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِندَ رُتبَتِهِ ... وَيا مُحَمَّدُ هَذا العَرشُ فَاستَلِمِ[2]

فرفع إلى سدرة المنتهى، ووصل إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، وتلقَّى الخطاب الإلهي، وغمرته أنوار الحجاب النوراني، فقال حين سئل:

---

(١) باختصار من مقال شيخنا جعفر شيخ إدريس: «عالم النبوة الرحيب».

(٢) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

هل رأيت ربك؟ قال: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ، رَأَيْتُ نُوراً**»[(١)]. وهو نور الحجاب النوراني الذي قال فيه ﷺ: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[(٢)].

ورأى الجنة رأي عين، فرأى قصورها وأنهارها وتربتها، فقال في حديث الإسراء: «**ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ**»[(٣)].

ورأى الكوثر الذي أعطاه ربه قال: «**بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ، الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ**»[(٤)].

ورأى قصره في الجنة مثل الغمام، فعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ، قال: صلى النبي ﷺ ثم أقبل بوجهه على الناس فقال: «**هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُم رُؤياً؟**». فقلنا: لا، قال: «**لَكِنّي رَأَيْتُ اللَيْلَةَ رَجُلَينِ أَتَيانِي فَأَخذَا بِيَدِي وَأَدْخَلانِي دَاراً لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصِبْيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلانِي دَاراً هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ، قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ، قَالاَ: نَعَمْ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ**»[(٥)].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٥٨١).

(٥) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

ب. وعرضت عليه ﷺ الجنة في صلاة الكسوف حتى مد يده إليها، ورأى النار حتى تكعكع عنها، وقال: «**قَدْ دَنَتْ مِنِّي الجَنَّةُ، حَتَّى لَوِ اجْتَرَأْتُ عَلَيْهَا، لَجِئْتُكُمْ بِقِطَافٍ مِنْ قِطَافِهَا، وَلَوْ أَخَذْتَهُ لَأَكَلْتُم مِنْهُ إِلى مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَدَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ: أَيْ رَبِّ، وَأَنَا مَعَهُمْ؟، فَلَمْ أَرَ كَاليَوْمِ مَنْظَراً أَفْظَع**»[١].

فرأى النار يحطم بعضها بعضاً، ورأى المعذبين فيها، فرأى عمرو بن لحي يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سيب السوائب، وَحملَ العَرَبَ عَلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ[٢]، ورأى امرأة تخدشها هرة قال: «**قُلْتُ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، لَا أَطْعَمَتْهَا، وَلَا أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**»[٣].

ج. ورأى الملائكة فرأى جبرائيل وهو في مكة على هيئته التي خلقه الله عليها قد سد الأفق له ستمئة جناح، ورآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى.

ورأى خزنة كل سماء يوم اسْتَفْتَحَ له جبريل ليلة المعراج، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جاء، وهكذا استفتح كل سماء وتلقَّاه ورحب به ملائكتها[٤].

وخاطبه ملك الجبال حين رجع من الطائف يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، فقال: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[٥].

---

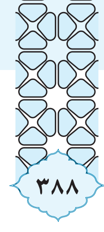
(١) «مسند أحمد» (٣٣٧٤)، و«صحيح البخاري» (٧٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٢١)، و«صحيح مسلم» (٩٠١).

(٣) «صحيح البخاري» (٧٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).



د. ورأى رسل الله الذين سلفت أزمانهم قبله، فرآهم في بيت المقدس حين أسري به وصلى بهم.

ورأى منازلهم في السماوات حين عرج به فرأى في السماء الأولى آدم، وفي الثانية يحيى وعيسى ابني الخالة، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم.

ووصف هيئاتهم فقال عن موسى: «**رَأَيْتُ مُوسَى رَجُلاً آدَمَ، كَثِيرَ الشَّعْرِ، طِوَالاً، جَعْداً، شَدِيدَ الخَلق، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ**[١]». وقال عن عيسى: «**مَرْبُوعَ الخَلْقِ، حَدِيدُ البَصَرِ، إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ، سَبْطَ الرَّأْسِ كَأَنما خَرَجَ مِنْ دِيماس**[٢]». وقال عن يوسف: «**أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ**». وقال عن إبراهيم: «**وأمَّا إِبْرَاهِيمُ، فَلَا أَنْظُرُ إِلَى إِرْبٍ مِنْ آرَابِهِ**[٣]**، إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنِّي، فَانْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ**»[٤].

٣- مشاهد الآخرة وتفصيل أحوالها:

وصف ﷺ مشاهد الآخرة وحال الناس إذا نشروا من قبورهم وعرضوا على ربهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعاً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**»[٥].

---

(١) حي من اليمن ينسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، قال الداودي: رجال الأزد معروفون بالطول. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٢٩).

(٢) الديماس: الحمام. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٣٣).

(٣) إرب من آرابه: أي عضو من أعضائه. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٩).

وعن أبي هريرة قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَةٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً[١]، وَقَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ القَوْمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ بِمَ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي**»، فيذهبون إلى نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، يسألونهم الشفاعة إلى ربهم، وكلهم يقول مثل ذلك، ثم يأتون إلى رسول الله ﷺ فيقولون: «**يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فأقول: أنا لها، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»[٢].

٤- أبعاد الزمان والمكان:

وكما رأى نبي الله الخَضِرُ المستقبلَ فرأى مستقبل السفينة، ومستقبل الغلام، وكنز اليتيمين، رأى النبي ﷺ مستقبل أمته في قابل أيامها فقال لعوف بن مالك: «**اعْدُدْ يَا عَوْفُ سِتّاً بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَوَّلُهُنَّ مَوْتِي**». قَالَ:

---

(١) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٣٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

فَاسْتَبْكَيْتُ حَتَّى جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يُسْكِتُنِي. قَالَ: قُلْتُ: إِحْدَى. «وَالثَّانِيَةُ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ». قُلْتُ: اثْنَيْنِ. «وَالثَّالِثَةُ مُوتَانٌ يَكُونُ فِي أُمَّتِي يَأْخُذُهُمْ مِثْلَ قُعَاصِ الغَنَمِ». قَالَ ثَلَاثاً. «وَالرَّابِعَةُ فِتْنَةٌ تَكُونُ فِي أُمَّتِي ـ وَعَظَّمَهَا ـ قُلْ: أَرْبَعاً، وَالخَامِسَةُ: يَفِيضُ المَالُ فِيكُمْ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْطَى المِئَةَ دِينَارٍ فَيَتَسَخَّطُهَا، قُلْ: خَمْساً، وَالسَّادِسَةُ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ فَيَسِيرُونَ إِلَيْكُمْ عَلَى ثَمَانِينَ غَايَةً». قُلْتُ: وَمَا الغَايَةُ؟ قَالَ: «الرَّايَةُ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلفاً فُسْطَاطُ المُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فِي أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الغُوطَةُ، فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ»[١].

ورأى مستقبل دينه الذي بعث به فقال: «لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ، وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ كَلِمَةَ الإِسْلَامِ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا يُعِزُّهُمُ اللهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا»[٢].

ورأى الفتن التي ستصيب أمته ورأى مواقعها كمواقع القطر: فَعَنْ أُسَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُمٍ مِنَ الآطَامِ، فَقَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي أَرَى الفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ مَوَاقِعَ القَطْرِ»[٣].

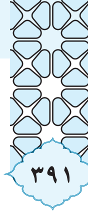
٥- عالم الحيوان:

كما علم الله داود وسليمان منطق الطير فقد علَّم نبينا من أحوال الطير والبهائم ما لا يعلمه غيره، دَخَلَ ﷺ حَائِطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ

(١) «مسند أحمد» (٢٣٩٨٥).

(٢) «مسند أحمد» (٢٣٨١٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٨٥).



فَسَكَتَ، فَقَالَ: «**مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟**». فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ: «**أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**»(١).

وعندما بركت ناقته القصواء فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ، حَلْ خَلَأَت القَصْوَاءُ(٢) مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا خَلَأَت، وَمَا ذَلِكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**»(٣).

وعندما جاءت حمرة ترفرف حوله قال: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ؟**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا يَا رَسُولَ الله أَخَذْتُ بِيضَاتٍ لَهَا، أَوْ فِرَاخاً، فَأَمَرَهُ، فَرَدَّهَا(٤).

٦- عالم الجمادات:

وكما سخر الله مع داود عليه السلام الجبال تسبح معه، سُخِّرت الجبال والأحجار والأشجار مع نبينا ﷺ، فكان يقول: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الآنَ**»(٥). وكان يعتمد على جذع إذا خطب يوم الجمعة فلما عمل له المنبر ورقي عليه سُمِع لذلك الجذع حنين كحنين العشار، ثم نزل النّبيّ ﷺ فضمَّه إليه فسُمِعَ يئن أنين الصبيِّ الذي يُسَكَّت، قال ﷺ: «**كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَ**»(٦).

وعندما صعد جبل أُحد هو وأبو بكر وعمر وعثمان رجف بهم الجبل

---

(١) «مسند أحمد» (١٧٥٤)، و«سنن أبي داود» (٢٥٤٩).

(٢) أي امْتنعت من المَشْي. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١١٣).

(٣) «سنن أبي داود» (٢٧٦٥).

(٤) «سنن أبي داود» (٢٦٧٥).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٢٧٧).

(٦) «صحيح البخاري» (٣٥٨٤).

فخاطبه النبي ﷺ قائلاً: «**اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ**»[(١)].

وتبادل الحب معه فقال: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[(٢)].

وهكذا نرى من خلال هذه المشاهد أن عالم النبي ﷺ في ملكوت الله غاية في الرحابة والسعة، وأن آفاقه المدرَكَة تتجاوز المدرَكَ البشري فتمتد إلى الملأ الأعلى والدار الأخرى، وأن عالمه في آماد الزمن يمتد في الغيب الماضي البعيد وفي الأحقاب القادمة حتى رأى مستقبل دينه ومُلك أمته، وملاحم آخر الزمان، ولحظة نهاية العالم، وانتهاء الدنيا حين ينفخ في الصور، فيكون أول من يسمعه رجل يلوط[(٣)] حوض إبله فيصعق ويصعق الناس معه[(٤)].

٧ - رؤية مشارق الأرض ومغاربها:

ورأى نواحي الأرض وأقاصيها فقال: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ**»[(٥)].

ورأى قصور المدائن فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ المَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**».

ورأى قصور الشام فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**».

---

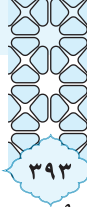
(١) «صحيح البخاري» (٣٦٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).

(٣) يلوط: أي يطيّن ويصلح. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٧٧).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٩٤٠).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٨٨٩).



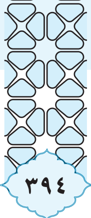
ورأى قصر صنعاء فقال: «اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»[١].

إنها رحابة عالم النبي ﷺ في المكان وفي الزمان، فهو الإنسان الكامل، والرسول الخاتم، والبشر الذي يوحى إليه، والمجتهد المعصوم، الذي اتصلت ـ في سيرته ـ الأرض والسماء، وامتزج فيها النسبي بالإطلاق والخلود، فهو ﷺ روح في جسد ككل البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لكن روحه ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليه سطوة روحانية، وهو بمنزلة العقل من الإنسان، إنه إمام أولي العزم من الرسل، الذين ميزهم الله بالفطرة السليمة، وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها.

نعم، لهذا التميز والامتياز الذي جعل من الرسول ﷺ نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب وعقل الإنسانية والبشرية، ولتميز رسالته بالإتمام والإكمال للدين والأخلاق، وبالعالمية والخلود، وبالدولة والاجتماع، والحضارة مع الدين، لكل ذلك تميزت سيرته ﷺ عن كل سير القادة والمصلحين والعظماء والأنبياء، والمرسلين[٢].

(١) «مسند أحمد» (١٨٦٩٤).

(٢) من مقدمة د. محمد عمارة لـ«النور الخالد» (٩).



خلاصات:

١- كان ﷺ يعيش في عالم أرحب من كل عالمٍ بشري، ويسَّر الله له من وسائل العلم ما لم ييسره لغيره.

٢- أشرفُ علومه وأعظمُها علمه بالله ﷻ، فهو أعلم الخلق بالله وأخشاهم له.

٣- اتسعت آفاق الرسول ﷺ بارتفاعه إلى الملأ الأعلى، وعلوه إلى سدرة المنتهى، ووصوله إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام.

٤- عُرِضت عليه الجنة والنار في صلاة الكسوف فرآها رأي عين.

٥- اتصل بعالم الملائكة ورأى جبرائيل على صورته، وسمع ملك الجبال، ورأى خزنة السماوات العلى.

٦- رأى رسل الله الذين سلفت أزمانهم، وصلى بهم في المسجد الأقصى، ولقيهم في منازلهم في السماوات، ووصف هيئاتهم وملامحهم.

٧- وصف لنا مشاهد الآخرة وأحوالها وأهوالها كأنا ننظر إليها.

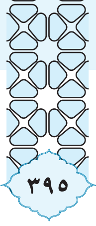
٨- رأى مستقبل أمته، وعَلِمَ بأهم أحداثها، ورأى مستقبل دينه، والفتن التي ستقع لأمته، ورأى مواقعها كمواقع القَطْر.

٩- وعَلِمَ من منطق الطير والبهائم ما لا يعلمه غيره.

١٠- وسُخِّرَت معه الجبال، والأحجار، والأشجار وتعاطى معها الحب والخطاب.

١١- ورأى مشارق الأرض ومغاربها وما سيبلغه ملك أمته منها.

١٢- كان ﷺ يعيش في نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب، فهو وفد الآخرة إلى أهل الدنيا.



دلائل النبوة من سيرته[١]



كانت معجزة النبي ﷺ الكبرى والخالدة هي القرآن الكريم، وهي المعجزة التي وقع بها التحدي ولا يزال وسيبقى، وهي المعجزة المتجددة على تعاقب الأجيال، وتتابع الأزمان.

جاءَ النبيّونَ بالآياتِ فَانصَرَمَتْ ... وَجِئتَنا بِحَكيمٍ غَيرِ مُنصَرِمِ

آياتُهُ كُلَّما طالَ المَدى جُدُدٌ ... يَزينُهُنَّ جَلالُ العِتقِ وَالقِدَمِ[٢]

ولكن دلائل النبوة أوسع من المعجزات، ولا يلزم أن تكون الدلائل معجزات خارقة، بل إن الخوارق التي حصلت للنبي ﷺ كتكثير الطعام، ونبع الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في يده ونحوها، حصلت أمام قوم مؤمنين ليزدادوا إيماناً، ولم تكن أمام كافرين على سبيل التحدي لهم.

وكان من أظهر دلائل نبوته سيرتُه ﷺ في حياته كلها، فإنها تدل على أنها سيرة نبي، وقد تجلى ذلك للصحابة الذين عرفوه فقد تبين لهم أن

---

(١) ينظر: كتاب «الأدلة العقلية على نبوة خير البرية» د. عبد المحسن بن زبن المطيري، ومنه استفدت في هذا المبحث.

(٢) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

من كان هذا حاله فلا يمكن أن يكون مدَّعياً ولا متقوِّلاً على ربه، ومن ذلك حديث عَبْدِ الله بْن سَلَامٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ[(١)]. فكانت ملامحه تدل على صدقه؛ فليس وجهه وجه المريب، ولا حاله حال المدعي.

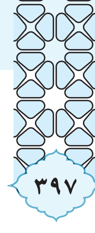
ومن ذلك: حديث ثُمامة بن أُثال الذي كان يتوعد النبي ﷺ وهو في اليمامة فلما أُسِر وجِيءَ به إلى النبي ﷺ أمر بربطه في المسجد ثلاثة أيام، ولم ينله في أسره مساءة أو أذى، وهي ثلاثة أيام قضاها يراقب النبي ﷺ فيرى صلاته، ويستمع تلاوته، وينظر حاله مع أصحابه، ومجلسه معهم، ولم يَرِد أن النبي ﷺ عرض عليه الإسلام بالأمر أو بالقول المباشر، ولكن عرضه عليه بطريقة عملية يشاهدها، ثم بعد ثلاثة أيام أمر النبي ﷺ أن يحل رباطه ويخلى سبيله، فلما خرج من المسجد وملَكَ أمره عاد إلى النبي ﷺ معلناً إسلامه، وشهد شهادة الحق بين يدي النبي ﷺ وهو يقول: وَالله مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلَادِ إِلَيَّ[(٢)]. فما الذي استدل به ثمامة على النبي ﷺ وجعله يحبه أحب من كل أحد؟ إنه سيرته التي رآها خلال ثلاثة أيام.

وكذا لما جاء عدي بن حاتم إلى النبي ﷺ انطلق به النبي ﷺ إلى بيته وفي الطريق دعته امرأة ومعها صبي فنادته فقالت: يا رسول الله إن

---

(١) «مسند أحمد» (٢٣٧٨٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).



لي إليك حاجة، فوقف لها وعدي ينظر، قال: حتى أشفقت عليه من طول القيام وقلت: والله ما هذا بملك[١].

ولما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ لم يكن في أسئلته الأحد عشر سؤال عن معجزة خارقة، ولكنها كانت أسئلة عن حال النبي وسيرته، وفيها: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ هَلْ يَغْدِرُ؟... إلى آخرها، ثم استدل منها على صدق نبوته وقال لأبي سفيان: وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ[٢].

إنك متى وقفت على مجموعة صالحة من هذه السيرة الكريمة، لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك بأنها لا يمكن أن تكون إلا سيرة نبي مبلغ عن الله رسالته.

وذلك أن للحقيقة قوة غلابة تنفذ من حجب الكتمان، فتُقْرأُ بين السطور وتُعرَفُ في لحن القول، والإنسان مهما أمعن في تصنّعه ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله، تنمّ على طبعه إذا أُحفظ أو أُحرج، أو احتاج أو ظفر، أو خلا مع من يطمئن إليه.

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مَنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

فما ظنك بهذه الحياة النبوية، التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة

(١) «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).

(٢) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

صافية لنفس صاحبها، فتريك باطنه من ظاهره، وتريك الصدق والإخلاص ماثلاً في كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله. بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته وحسنت فراسته، يرى أخلاقه العالية تلوح في محيّاه ولو لم يتكلم أو يعمل.

ومن هنا كان كثير ممن شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله على ما قال برهاناً؛ فمنهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته، ومنهم الغريب الذي عرفه بسيماه في وجهه[١].

وإذا نظرنا إلى سيرته ﷺ وجدنا دلالتها ظاهرة على صدق نبوته في مراحل حياته كلها فمن ذلك:

أولاً: أن النبي ﷺ عاش بين ظهراني قريش أربعين سنة قبل النبوة، ومجتمع قريش مجتمع عشائري محصور لا يخفى فيه حال أحد، فلما أعلن نبوته وأعلنت قريش عداوته لم تجد موقفاً واحداً في تاريخه السابق تذكره عنه فتعيبه به، بل إنه مع كثرة خصال الخير فيه والتي ذكرتها خديجة في قولها: إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ[٢]، إلا أن أشهر ما عرفته قريش به الصادق والأمين ـ وهي أهم صفة تدل على صدق نبوته ـ ولذا قال هرقل: لقد علمت أنه لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ.

وقال النضر بن الحارث لقريش: إنه قد والله نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما

(١) «النبأ العظيم» (٦٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر...[(١)].

يـا جاهِلِيـنَ عَلى الهـادي وَدَعوَتِهِ ... هَـل تَجهَلونَ مَكانَ الصادِقِ العَلَمِ
لَقَّبتُمـوهُ أَميـنَ القَـومِ فـي صِغَـرٍ ... وَمـا الأَميـنُ عَلـى قَـولٍ بِمُتَّهَمِ[(٢)]

فكانت سيرته قبل النبوة من دلائل صدق نبوته بعد بعثته.

ثانياً: عُرِفَ النبي ﷺ بصفات شريفة قبل النبوة لكن لم يعرف عنه المنافسة على الرئاسة والزعامة في قومه، ولم يؤثر عنه أنه دخل دار الندوة، وذلك حتى لا يظن ظان أنه أعلن النبوة ليكرس زعامةً، أو يستجلب سيادةً، بل لما عرضت عليه قريش أن يملكوه عليهم رفض ذلك بإباء، فلم تكن رسالته دعوة لحظ نفسه ولكن لهداية غيره.

ثالثاً: عندما نزل عليه الوحي أول مرة في غار حراء رجع خائفاً ترعد فرائصه، يقول: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**». ويقول لزوجته خديجة: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»[(٣)]، وهذا يدل على أنه لم يكن مستشرفاً للنبوة ولا متوقعاً لها، كما أخبر عنه ربه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فلو كان مدّعياً لما رجع فزعاً خائفاً، وإنما جاء فرحاً صارخاً معلناً للناس في نواديهم، فكانت رهبة الفجاءة الأولى من دلائل الصدق فيما بلَّغ صلوات الله عليه[(٤)].

رابعاً: عندما أعلن دعوته ونادى في قبائل قريش كان أول من تصدى

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٩٩).
(٢) «نهج البردة» لأحمد شوقي.
(٣) «صحيح البخاري» (٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).
(٤) ينظر: «محمد الرسالة والرسول» د. نظمي لوقا (١٢٤).

له عمه أبو لهب فقال: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(١) وكون عمه يكذّبه ويرفض دعوته، وكون عشيرته لم يبادروا إلى إجابة دعوته يبين أنها ليست دعوة عشائرية، وليست من المنافسة بين بني هاشم وبقية عشائر قريش.

خامساً: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث في مكة في وادٍ غير ذي زرع، ناءٍ في حاشية جزيرة العرب، ومع ذلك أعلن دعوته أول ما أعلنها على أنها رسالة عالمية لأهل الأرض كلهم، وكانت نداءات القرآن في مكة عالمية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فهل يستطيع إنسان مهما بلغ خياله أن يتخيل أن صارخاً في مكة سيبلغ نداؤه أهل الأرض كلَّهم، خاصة إذا تصورنا صعوبة التواصل والبلاغ حينها؟!

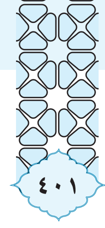
إن هذا اليقين لا يمكن أن يتحقق بالمقاييس البشرية ما لم يكن وحياً من الله.

سادساً: أُمِّيَّةُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه ما قرأ مكتوباً، ولا كتب مقروءاً، ومع ذلك جاء بكل هذا العلم الذي لا يحيط به العلماء، ليتضح أن مصدر علمه ليس ما هو مكتوب قبله، ولكن مصدره وحيُ الله إليه، قال ابن تيمية: وَكَوْنُ مُحَمَّدٍ كَانَ نَبِيّاً أُمِّيّاً هُوَ مِنْ تَمَام كَوْنِ مَا أَتَى بِهِ مُعْجِزاً خَارِقاً لِلْعَادَةِ، وَمِنْ تَمَامِ بَيَانِ أَنَّ تَعْلِيمَهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ تَعْلِيمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فَغَيْرُهُ يَعْلَمُ مَا كَتَبَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ عَلَّم النَّاسَ مَا يَكْتُبُونَهُ وَعَلَّمَهُ اللهُ ذَلِكَ بِمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ(٢)، وقال صاحب «المسكة الفائحة»: قلت لأبي: اذكر لي بعض المعجزات وأوجز، فقال: أحدنا يقرأ عمره ولا يحصل على شيء، وهذه الكتب التي ترى كلها إنما

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٦/ ٢٦٦).



هي مستفادة من بعض علومه ﷺ، مع أنه لم يقرأ كتاباً، ولا خط حرفاً، فأي بيان أوضح من هذا البيان، وأي برهان أعظم من هذا البرهان؟!(١).

سابعاً: أن المحن والشدائد التي مرت به كان بعضها يزلزل العزائم، ويذهبُ بالرجاء، ويصيب باليأس، ومع ذلك كان ﷺ أكثر ما يكون يقيناً وأثبت ثباتاً في هذه الشدائد، فعن خَبَّاب بن الأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، وقد لقينا من المشركين شدة فقُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو الله لَنَا؟ قَالَ: «**وَالله لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»(٢). ففي أشد الشدائد عليه في مكة يبشر بالأمن بين صنعاء وحضرموت.

وفي الغار وقريش محيطة به وقد أهدرت دمه وخرجت تتعقّبه يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

وفي طريق الهجرة يبشر سراقة الذي خرج يطارده بسواري كسرى(٣).

وفي شدة الفزع يوم الأحزاب يبشر بقصور فارس وقصور الشام وقصور اليمن(٤).

وفي وقت شدة الجوع الذي يشتكيه الصحابة إليه يقول لهم: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَتْ أُخْرَى وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ؟**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله نَحْنُ يَوْمَئِذٍ

(١) «حاشية البردة» للزركشي (٢١٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦١٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ١٤٨).

(٤) «مسند أحمد» (١٨٦٩٤).

خَيْرٌ مِنَّا الْيَوْمَ نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ وَنُكْفَى الْمُؤْنَةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَأَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ**»(١).

إن هذا اليقين في وقت الشدة والكرب لا يكون إلا بوحيٍ من الله.

ثامناً: أنه أصيب في أُحُدٍ مصاباً شديداً فقُتل عمُّه، واستشهد أصحابُه وكُسِرَت رباعيته(٢)، وسال الدم على وجهه، وهي حال تملأ النفس غيظاً وحنقاً، ثم ينزل القرآن ليقول له: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ**﴾(٣).

وهذا لا يمكن أن يصدر من بشر حديث عهد بمصيبة من عدوه، بل إن هذه الآية كانت مبشرة بتوبة الله عليهم، ولذا أسلم قواد جيش المشركين في أُحد جميعاً أبو سفيان وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل.

وكذلك لما صدَّته قريش عن مكة عام الحديبية وهو قد أحرم بالعمرة وساق الهدي وكذا المسلمون معه كلهم فصُدُّوا عن البيت ثم رجعوا ولم يعتمروا، وكان المسلمون مغيظون محنقون من صدِّ قريش لهم أشد الغيظ فأنزل الله: ﴿**عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، فهل يمكن أن يقول ذلك إنسان في مثل هذا الظرف؟ وهل تستجيب مشاعره أن يتحدث عمن صدوه عن دخول الحرم معتمراً بعد أن أحرم وساق الهدي وأن يبشر بأنه ستكون بينه وبينهم مودة، إلا إذا كان يتلقّى الوحي من الله؟

(١) «جامع الترمذي» (٢٤٧٦).

(٢) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلْإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٣) «صحيح مسلم» (١٧٩١).

تاسعاً: عبادة السر التي رويت عنه، كما في حديث ابن عباس أنه بات عند رسول الله في بيت خالته مَيْمُونَةَ لَيْلَةً فلما كان نصف الليل استيقظ النَّبِيُّ ﷺ فنظر إليه وقال: «**نَامَ الغُلَيِّمُ؟**». ثم جلس يمسح النوم عن وجهه ويقرأ الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران، ثم قام إلى شَنٍّ[1] مُعَلَّقٍ فتوضأ وُضُوءاً خَفِيفاً وَقَامَ يُصَلِّي، قال ابن عباس: فقمت فتمطّيت كما يصنع النائم، ثم تَوَضَّأْتُ نَحْواً مِمَّا تَوَضَّأَ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ، عَنْ يَسَارِهِ فَحَوَّلَنِي فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ صلى حتى ذهب هوي من الليل، وكانت صلاته ثلاث عشرة ركعة[2]. وهذا التهجد في جوف الليل وكل من حوله نيام لا يمكن أن يفعله مدع وإنما يفعله الموقن أشد اليقين.

وعَنْ مُطَرِّفِ بن عبد الله بن الشِّخِّير، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ من البكاء[3].

ولم يكن النبي ﷺ يعلم بمجيء عبد الله بن الشخير، ولكن توافق مجيئه والنبي ﷺ بهذا التأثر والبكاء.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: افْتَقَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَتَحَسَّسْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ، فَإِذَا هُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ يَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**». فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي لَفِي شَأْنٍ وَإِنَّكَ لَفِي شأن آخَرَ[4].

وعنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت

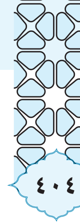
---

(١) هي القربة القديمة اليابسة وهي أشدُّ تبريدا للماء من الجدد. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٨)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

(٣) «سنن أبي داود» (٩٠٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٤٨٥).



يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهو منصوبتان وهو يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي نِعَمَكَ وَلَا ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكِ**»(١).

فهذه العبادات الخفية لا يمكن أن تصدر من متقوِّل يتظاهر أمام الناس، ولكنها دليل على أنه أعظم الخلق يقيناً بما يدعو إليه.

عاشراً: قصة موت ابنه إبراهيم، فإنه لما مات قال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، وذلك بناء على عقيدة جاهلية هي أن الشمس تكسف لموت عظيم أو مولده، فقام النبي ﷺ وهو يغالب أحزانه ليصحح لهم هذا التصور الجاهلي: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا، فَقُومُوا، فَصَلُّوا**»(٢)، فلو كان مدّعياً لكانت هذه فرصته ليؤكد دعواه بهذا التصور، ولكن دلائل الحق معه أقوى من أن يتزيد لها، بل نفى تصور الجاهلية ذلك وأبطله.

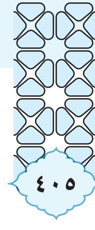
يقول إميل در منغم: ولد لمحمد ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيراً ولحده بيده، ووافق موته كسوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموت إبراهيم، ولكن محمداً كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك، فقال: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ...**»؛ فقولٌ مثل هذا لا يصدر عن كاذب دجال(٣).

الحادي عشر: التوازن في حياته ﷺ وهذه من معجزات سيرته، فإنك

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٠٤١)، و«صحيح مسلم» (٩٠٤).

(٣) «الأدلة العقلية على نبوة خير البرية» عبد المحسن بن زبن المطيري (٨٢).



قلَّما تجد نابغاً في أمرٍ ومتميزاً في منحى من مناحي الحياة إلا وجدت هذا التميز على حساب نواح أخرى في حياته، فقد نجد النابغ في علمه ولكن ذلك على حساب علاقاته العامة، أو علاقاته الاجتماعية، وقد تجد القائد العظيم ولكن إقباله على ذلك أحدث ضموراً في حصيلته العلمية، أو أخلاقه في التعامل مع العامة ونحو ذلك، أما النبي ﷺ فلا تنظر إلى ناحية من نواحي حياته إلا شعرت أنها مشبعة تماماً وكأنه قد تفرغ لها وحدها، فإذا نظرت إليه ﷺ رسولاً، وداعياً، ومعلماً، وزوجاً، وأباً، وقائداً، وصاحباً، ومحارباً، ومسالماً إلى غير ذلك من مناحي حياته وجدتها كلها كاملة ليس في شيء منها نقص أو ضمور.

إن هذا التوازن والتكامل لا يمكن أن يتحقق بالمقاييس والقدرات البشرية ما لم تكن تأييداً ومدداً من الله.

الثاني عشر: عدم التكثُّر من الدنيا، بل عبَرها أزهد ما يكون فيها، فقد دخل المدينة على حالٍ من القلة، وبنى بيته فيها متقارب الجدر قليل المتاع صغير المساحة فالبيت غرفة واحدة وفناء صغير أمامها لكل واحدة من زوجاته، ثم فتح الله عليه وكثر أتباعه وقدمت عليه الأموال فلم يتغير بيته ولا أثاثه، ولم يتخول من هذه الدنيا شيئاً، بل قسم الأموال حثواً في الثياب، وعاد إلى بيته الأول الذي بناه أول ما قَدِم وعاش فيه ومات فيه، وكانت أشواقه هناك في الملأ الأعلى، أما الدنيا فما تأثلها ولا تكثر منها.

فعن عُمَرَ بْن الخَطَّابِ قال: دخلت على النبي ﷺ وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَم حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظاً مَصْبُوباً، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أُهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ،

فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟**»[(١)].

وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود قَالَ: اضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ فِي جِلْدِهِ، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي، يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ كُنْتَ آذَنْتَنَا فَفَرَشْنَا لَكَ عَلَيْهِ شَيْئاً يَقِيكَ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَنَا وَالدُّنْيَا؟! إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[(٢)].

بل كان النبي ﷺ يلزم خاصته وأهله بالتقلل من الدنيا أيضاً، فقد خير أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بين البقاء معه على هذه الحال ولهن الجنة، وبين الدنيا ويطلقهن ويمتعهن ويسرحهن سراحاً جميلاً، فاخترن كلهن البقاء معه على تلك الحال.

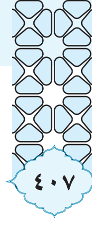
وجاءته ابنته فاطمة عليها السلام تسأله خادماً من السبي، فوزعه النبي ﷺ على الناس، ولم يعط فاطمة منه شيئاً، مع شدة حبه لها، وشدة حاجتها إليه، فعن عَلِي رضي الله عنه: أَنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ تَشْكُو إِلَيْهِ مَا تَلْقَى فِي يَدِهَا مِنَ الرَّحَى، وَبَلَغَهَا أَنَّهُ جَاءَهُ رَقِيقٌ، فَلَمْ تُصَادِفْهُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ، قَالَ: فَجَاءَنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْنَا نَقُومُ، فَقَالَ: «**عَلَى مَكَانِكُمَا**». فَجَاءَ فَقَعَدَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى بَطْنِي، فَقَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَالتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَسَبِّحَا ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرَا أَرْبَعاً وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**»[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٩١٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٤١٠٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).

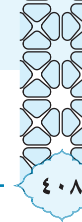


ولما مات لم يورث مالاً لورثته، ولا منصباً لقرابته، وبلغ رسالات الله وعاش في الدنيا كفافاً من غير أن يرزأ الناس شيئاً من دنياهم وإنما تركها لهم ينتثلونها من بعده، وعبرها ولم يتأثلها، وقال لأهل الدنيا كلهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾.

الثالث عشر: حاله مع زوجاته، فقد توفي ﷺ عن تسع زوجات، وإن الإنسان الكاذب قد يستطيع أن يتحرَّز من الناس في حياته الخارجية، لكن هذا لا يحصل للإنسان مع زوجته في حياته الخاصة؛ فإن العادة جرت بسقوط الكلفة، وانبساط الرجل مع أهله، وزوجته أعلم الناس بحاله وخاصة شأنه، فالنبي ﷺ مع كثرة أزواجه وهنَّ من عدَّةِ قبائل ومن أعمارٍ متفاوتة، وكون آباء بعضهن أعداء له، ولكن لم تنقل إحداهن عن حياته الخاصة إلا كل كمال يمكن أن يوصف به إنسان، ولا يمكن أن يتواطأن كُلُهُنَّ على إخفاء ما ينافي حال نبوته وكماله؛ فهذا في غاية من البعد، وكن يعشن معه على الكفاف لا كما تعيش نساء الملوك، حتى اشتكين إليه ذلك فنزلت آية التخيير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فكلهن اخترنه ولو كان فيهن من لم تكن على يقين من نبوته لكان هذا التخيير فرصتها؛ لكنهن آثرن الآخرة على الدنيا، وصبرن على تلك الحال، وبقين بعده وَفياتٍ لعشرتهن معه، متشوقات للحاق به في أكرم موعود.

الرابع عشر: بُعده عن الغرض الشخصي، فكان ينهى عن إطرائه بالغلو فيه ومجاوزة قدره ومنزلته، ويقول: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ،**



فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»(١). وينهى عن القيام له ويقول: «**لَا تَقُومُوا لِي كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ، يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضاً**»(٢)، وعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ، حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»(٣).

ولما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟**». فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللهُ؟ قَالَ: «**أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ، وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ وَاللهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي**»(٤).

فما الذي كان يمنعه أن يتقوَّل ما يشاء في شأنٍ هو بعد الموت، وهو لا يخشى من يراجعه فيه، إلا أنه رسول من عند الله صادق في بلاغه عن الله؟(٥).

وهكذا لا يزال المرء يقلب نظره في سيرة هذا النبي الكريم ويتتبع أحواله في حياته حتى يثمر له يقينا راسخا أن هذه حال نبي كريم، وما هي بحال مدَّع ولا متقوِّل، وأن أحوال حياته شواهدُ على صدقه، ودلائلُ على نبوته ﷺ.

---

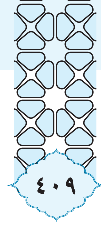
(١) «صحيح البخاري» (٣٤٤٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٥٢٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٠٠١).

(٤) «صحيح البخاري» (١٢٤٣).

(٥) «الأدلة العقلية على نبوة خير البرية» (٦٨).



خلاصات:

١- معجزة النبي ﷺ الخالدة هي القرآن، ولكن دلائل النبوة كثيرة.

٢- ليست الدلائل كلها معجزات ولكن كل ما دل على صدقه فهو من دلائل نبوته.

٣- كانت سيرته بعمومها دالةً على صدقه، بل كل من نظر إليه رأى أخلاقه تشع من محيَّاه ولو لم يتكلم أو يعمل.

٤- من دلائل نبوته نقاء سيرته قبل البعثة، ولذا عندما عادته قريش بعد النبوة لم تأثر عنه ما تعيبه به قبل النبوة.

٥- برغم كثرة خصال الخير فيه إلا أنه عرف قبل النبوة بالصادق الأمين، وهي أهم ما تعرف به نبوة النبي ﷺ.

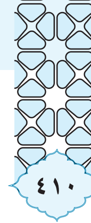
٦- لم يعرف عنه قبل النبوة ولا بعدها المنافسة على الرئاسة والزعامة فيقال إنه ادعى النبوة لتكريس زعامته.

٧- عندما نزل عليه الوحي أول مرة في حراء فزع وخاف على نفسه، ولو كان مدعياً لرجع فرحاً صارخاً بذلك.

٨- عندما أعلن دعوته كان أول من تصدّى له عمه أبو لهب، وكان في ذلك برهان على أنها ليست دعوة عشائرية ولكنها رسالة عالمية.

٩- بعث النبي ﷺ في مكان ناءٍ من الأرض، ومع ذلك أعلن دعوته للعالمين كلهم، وهذا ما لا يدركه خيال أحد.

١٠- من دلائل النبوة: أُميَّة النبي ﷺ ومع ذلك أتى بعلم تفنى فيه الأعمار وتتعاقب في تحصيله الأجيال.



١١- ومنها: ثبات النبي ﷺ وتفاؤله في أشد الشدائد وأصعب المحن، ولا يكون هذا إلا بيقين الوحي.

١٢- ومنها: عبادة السر التي لا تكون إلا من مؤمن، ولا تكون من مدَّع متقوِّل.

١٣- ومنها: قصة موت ابنه إبراهيم وتصحيحه ظن الناس أن الشمس كسفت لموته، ولو كان مُدَّعيا لتكثَّر بها.

١٤- ومنها: التوازن في حياته، فليس ثمَّ جانب من جوانبها إلا وفيه كماله وعظمته.

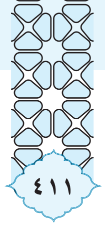
١٥- ومنها: زهده في الدنيا وعدم تكثره منها، فلم يرزأ الناس شيئاً من دنياهم وإنما أحتسب أجرَه كله على الله.

١٦- ومنها: حاله مع زوجاته مع كثرتهن وتنوعهن واطلاعهن على ما لا يطلع عليه غيرهن، فإنهن اتفقن على اليقين الإيماني به ومحبته وتعظيمه.

١٧- ومنها: نهيه عن إطرائه والغلو فيه وتجاوز الحد في تعظيمه: «**فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ الله، وَرَسُولُهُ**»[١]. مما يدل على بعده عن الأغراض الشخصية.



(١) «صحيح البخاري» (٣٤٤٥).



نظرة إجمالية للحياة النبوية



باستعراض هذه الأحوال المتنوعة للحياة النبوية العريضة، يتجلَّى لنا من خلالها دلالات عامة منها[١]:

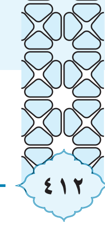
١ - ترى في حياته ﷺ تحقيق قوله: «**وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[٢]. فالصلوات منتشرة في مساحة يومه؛ فرائضَ وسُنناً وقيامَ ليل، فهي منازل الاستراحة النفسية في مسيرة اليوم، وكأنما يتلقَّى في صلاته تلك مَدَدَ ربه وفتوحه عليه؛ ليتجدَّد له بعد كل صلاة؛ قوة وعزم ومَضاء، لقد كانت الصلاة قُرَّة عينه وراحة نفسه، حتى كأنما يستبطئ الصلاةَ وقد حان وقتها، فيقول من شدَّة شوقه إليها: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلالُ**»[٣]. ولا أفصح ولا أدقَّ في تصوير أشواق روحه العالية من قوله: «**أَرِحْنَا بِهَا**» فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه[٤].

(١) باختصار من كتاب «اليوم النبوي» للمؤلف.

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٩٣٩).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٩٨٥، ٤٩٨٦).

(٤) «وحي القلم» (٢/ ٩).



وذكر ابن القيم أن مجموع وِرْده ﷺ الرَّاتب بالليل والنهار أربعونَ ركعةً، كان يحافظُ عليها دائماً؛ سبعةَ عَشَرَ فرضاً، وعشرُ ركعات أو ثنتا عشرةَ سُنَّةً راتبةً، وإحدى عشرةَ أو ثلاثَ عشرةَ ركعةً قيامه بالليل، والمجموع أربعونَ ركعة، وما زاد على ذلك فعارضٌ غير راتب، كصلاة الضحى، وصلاته عند مَن يزوره، وتحية المسجد ونحو ذلك، فينبغي للعبد أن يواظب على هذا الورد دائماً إلى الممات، فما أسرعَ الإجابةَ وأعجلَ فتْحَ الباب لمَن يَقْرَعُهُ كلَّ يوم وليلة أربعينَ مرَّةً[(١)].

٢- صلاته بالليل هي أعمق صلاته حضوراً واستغراقاً وتلذُّذاً بالمناجاة؛ بل هي حالة من حالات التجلِّي الروحي والاستغراق التعبُّدي.

٣- يلفت نظرَك إلى حد الإدهاش، أن هذا النبيَّ الذي تلقَّى بشائر الله له أنه قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، هو أكثرُ الناس استغفاراً؛ فهو يَستقبل صَبيحةَ كل يوم بالاستغفار مئةَ مرة، ويُعَدُّ له في المجلس الواحد أكثر من مئة مرة: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَليَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ**»[(٢)]. ثم يستغفر ربَّه بضراعة وخشوع في صلاته الليلية: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[(٣)].

يستغفرُ هذا الاستغفار، وهو الذي غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وهو المعصوم أن يقارف ذنباً أو يكسب إثماً، ماذا نقول نحن، وأوقات حياتنا لا تكاد تفلت من وقوع في خطأ، أو مقارفة لخطيئة؟! اللهمَّ غَفْراً.

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٣٢٧).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٤٣٤).

(٣) «صحيح البخاري» (١١٢٠).

٤- لَهَجُ النبيِّ ﷺ بالذِّكر؛ بحيث تستشعر أن هذا النبي الكريم يعيش حالة من الحب والشوق لله ﷻ، وكأنه يتراءى جلالَ ربه، فلا يفتُر لسانه عن ذكره، فهو أول ما ينطق به إذا استيقظ، وآخر ما تتحرَّك به شفتاه إذا نام، يستقبل بالذكر صَبَاحات نهاره، ومَسَاءات ليله، ولا يزال لسانه رَطْباً بذكر الله فيما بين ذلك كله، إنه الاستحضار العميق لمعاني العبودية والحب والإجلال لله ﷻ.

٥- التوازن في أداء الحقوق، والتوازن في استيعاب مناشط الحياة؛ فأداؤه لعباداته، وبلاغه لرسالاته، وقيامه بحقوق أهله، وعشرته لأصحابه، ومراعاة حق نفسه، وغير ذلك من متطلباته؛ كل ذلك يسير متوازياً متوازناً، من غير أن تَرَى تقصيراً في حقٍّ، أو إخلالاً بواجب، وإنما الاستيعاب المتوازن للحقوق الخاصة والعامة، بحيث ترى في حياته التطبيق العملي لوُصاته يوم قال: «**إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وإِنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وإِنَّ لِصَدِيقِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**»(١). وقد أَعطى ﷺ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

٦- حياته ﷺ مزدحمة وحافلة، ولكنها ليست متوتِّرة ولا مرتبكة؛ فبرغم كثرة المشاغل وازدحامها، فإن نفْسَه هادئة مسترخية، فلا تجد اضطراباً ولا توتُّراً، وإذا نظرت إليه في حالٍ ظننتَ أن ليس له عمل قبلها ولا بعدها، فحاله في بيته لا تدل على أن أعباء الحياة ومشاغلها تنتظره في الخارج، وجلوسه مع أصحابه لا يَدُلُّكَ على أنه في حال تحفُّز أو قلق لعمل آخر ينتظره؛ فهو مقبل عليهم بكلِّه، مسترخٍ بنفسه معهم، يَسَعُهُم جميعاً

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦٨، ١٩٧٥)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

حسنُ خلقه، وكأن عمله الوحيد هو هذا المجلس الذي هو فيه، إن هذه حالة استواء نفسي تستوعب الأعمال دون أن تتوتَّر أو ترتبك.

٧- حياته ﷺ حياة مُرَتَّبة وليست رَتِيبة، فهي مرتَّبة، ولكنها أيضاً مَرِنَة، بحيث تسمح بالتموُّج تبعاً لمقتضيات الحال؛ فليس في حياته فوضى أو ارتباك، وليس في حياته رَتَابة وصَرَامة، ولكن ترتيب ومرونة؛ فوقت الصلوات وقت محدَّد يرتِّب ما بينها، ومجلسُه ﷺ يمكن أن يطول ويقصُر بحسب مستجدات الأحوال، وبذلك تحقَّقت في حياته إيجابيات التنظيم، وتخلَّص من سلبيات الرَّتَابة وحَدِّيَّة الصرامة.

٨- في حياته ﷺ عَفْوية الحياة وبساطتها، فحياته ﷺ بعيدة عن التواقر المتكلَّف والجِديَّة الصارمة.

ولكن للعَفْوية والبساطة حضورها، فهو الذي يبتهج مع البهجة، ويأنس مع الأُنس، ويتوثَّب في نشوة الفرح، حتى يسقط رداؤه ليتلقَّى حبيباً جاء بعد طول غياب[(١)]، ويسير في طريقه ثم يحيد إلى شاب يسلخ شاة، فيَحْسِرُ عن ذراعه؛ ليُرِيَه كيف يُحْسِنُ السَّلْخ[(٢)]، ويمرُّ برجل يطبخ لحماً في بُرْمة، فيقول: «**أَطَابَتْ بُرمَتُك؟**». ثم يتناول منها بَضْعَةً فيأكلها[(٣)].

إن هذه العَفْويَّة في التعامل مع الناس حَطَّمت كل الحواجز؛ بحيث أفضى إليهم بقلبه، وأَفْضَوْا بقلوبهم إليه، وشعروا أنهم مع النبي ﷺ أبناءٌ مع أبٍ لهم.

---

(١) «الموطأ» (٢٠٠٣).

(٢) «سنن أبي داود» (١٨٥).

(٣) «سنن أبي داود» (١٩٣).

٩- الأُنْس والبهجة حاضرةٌ في بيته؛ فقد كان في بيته ضَحُوكاً بَسَّاماً، وحاضرةٌ في مجلسه؛ ففيه فُسحة للطُّرْفَة الجميلة والمداعبة المُؤْنِسة، وحاضرةٌ في حياته؛ فهو الذي يخرج وينظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فيستمتع بمنظر لهوهم، ويدعو زوجته لتشاركه أُنْس المنظر، ثم يقول مؤصِّلاً لهذا الهَدْي: «**العَبُوا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ تَعْلَمَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**»[١]. لقد كان في دينه سَعة، وفي حياته سَعة للأُنْس والبهجة.

١٠- قوة العلاقة العاطفية الزوجية، وإشباع هذه العاطفة، التي تظهر في مناولة قدح الماء، ومناولة لقمة الطعام، والمؤانسة في الحديث الليلي، والتعاهد بالزيارة النهارية، والمشاركة في مِهْنة البيت، والتواصل الزوجي الحميم على فراش الزوجية وتحت لحافها.

١١- تفهُّمه لفِطَر الناس وحاجاتهم ومشاغلهم، حتى في أدائه للعبادة، فكان أقصر الناس صلاة إذا صلَّى بالناس، مع أنه كان أطولهم صلاة إذا صلَّى لنفسه، وكان يدخل الصلاة وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبيِّ فيخفِّفها؛ لِمَا يعلم من وَجْدِ أُمِّه[٢].

١٢- يظهر من أحوال حياته ﷺ أنه كان يعيش حياة طيبة سعيدة.

أما سعادته الإيمانية؛ فأُفُقٌ عالٍ لم يصل إليه بشر قبله؛ فهو أعرف الخلق بالله وأعظمهم إيماناً وأصدقهم يقيناً.

وما ظنُّك بمَن رُفع فوق السَّبع الطِّباق إلى مستوى يسمع فيه صَرِيف

(١) «صحيح البخاري» (٩٨٦)، و«صحيح مسلم» (٩٤٩)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٨٦٨)، و«صحيح مسلم» (٤٧٠).

الأقلام، ورأى الجنةَ رأي عين، حتى هَمَّ أن يتناول منها قِطْفاً، ورأى الكوثرَ الذي أعطاه ربُّه، فإذا طينُه المسك الأَذْفَرُ، وإذا رَضْرَاضُهُ اللُّؤْلُؤُ؟[١].

كيف سيكون حال نبي قُرِّب هذا القرب ورُفِع إلى تلك المنزلة حينما يناجي ربَّه ويدعوه ويمجِّده ويُثني عليه: «**إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**»؟![٢].

إن تلذذه بالعبادة وتذوقه لحلاوة الإيمان لا يمكن مقارنته بأي لذة من لذائذ الحياة الدنيا.

وهو أيضاً سعيد في حياته الدنيوية، وهذه السعادة تجدها في لفتات حياته كلها، وتستشعر تذوقه لهذه السعادة وعميق امتنانه لربه بها؛ فقد أجاره ربه من الهم والحزن، وأعاذه من سيِّئ الأَسْقام، فعاش في عافية بدنية وعافية نفسية وعافية أُسرية، عاش في عفو وعافية ومعافاة دائمة.

فله ﷺ الزوجة الوَضِيئة التي يحبها وتحبه، يقاسمها أجمل عواطف المودة والحب.

وله الابنة الطاهرة وابناها ريحانتا دنياه، يُغْدِقُ عليهم أعذب مشاعر الأُبوَّة.

وله الأصدقاء الصادقون: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، يقاسمهما أعباء الحياة، فيُسمع كثيراً يقول: «**دَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَذَهَبْت أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»[٣].

(١) «صحيح البخاري» (١٢١٢)، و«صحيح مسلم» (٩٠١).
(٢) «صحيح البخاري» (١٩٦١)، و«صحيح مسلم» (١١٠٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٦٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٩).

وله الصِّهر والنَّسيب القريب في نسبه وداره الذي يحبه، ويعلم أن الله في ملئه الأعلى يحبه: أبو الحسن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وله أصهارُ برٍّ ووفاء، حدَّثوه فصَدَقوه ووعدوه فوَفَوْا له: عثمان بن عفان وأبو العاص بن الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وله الأصحاب المرضيُّون الذين ينزل وحي ربه في تزكية سرائرهم وما في قلوبهم: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

فكان سعيداً بمَن حوله ومَن معه.

ثم عاش حياةً تتدافع الإنجازات الكبار فيها، وأعظم السعادات في الحياة تحقيق الإنجازات، ثم تحقيق الهدف الأكبر له في الحياة، وهو بلاغ رسالات الله، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

لا أستطيع أن أتخيَّل تلك السعادات على قلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو يرى هذه الجموع في مسجده تكثر، ومساحة الإسلام تتَّسع، والناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

بل لا أستطيع أن أُصوِّر مشاعري لمجرد تخيل مشاعره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهو في حَجَّة الوداع يسمع تلك الجموع حوله من كل أنحاء الجزيرة، تقول بفم واحد: نشهد أنك قد بلَّغت ونصحت وأدَّيت الذي عليك.

إن هذا كله بعض عطاء الله الغامر له يوم قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

١٣- تجد في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تذوُّق لذائذ الحياة، واستشعار جمال ما يرى، ولذة ما يتذوَّق، والامتنان لله بالنعمة عليه بذلك، ففي الشَّربة يشربها واللُّقمة

يأكلها يتذوق لذَّة ذلك بامتنان عظيم لله: «**الحَمْدُ لله كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنىً عَنْهُ رَبَّنَا، الحَمْدُ لله الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الحَمْدُ لله غَيْرَ مُوَدَّعٍ، وَلَا مُكَافَىءٍ وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَغْنىً عَنْهُ، الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ العُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ العَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلاً، الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**»[١].

وفي يقظته من نومه يستشعر فضل الله عليه بنومة تتمنَّاها عيون مُؤرَّقة، ثم استيقاظه بعافية وحيويَّة، فيتذكَّر فضل واهب الفضل: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[٢].

إذا كان هذا في الأَكْلة المعتادة والنومة المعتادة التي يُذهبُ الاعتيادُ استشعار نعيمها، فكيف بالنعم المتجدِّدة والأَفضال المتتابعة؟! إنك تستشعر أنه يقف عند كلِّ نعمة، فيتذوقها كاملة، ثم يستشعر فضل الله عليه بها، حتى لكأنك تسمعه يهاتف ربه قائلاً: «**الحَمْدُ لله الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَل، الحَمْدُ لله الَّذِي أعْطَانِي فَأَجْزَل، الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ**».

وإذا كان ﷺ يلفت أبصار بصائرنا إلى ما نألفه حتى لا نكاد نحس به؛ المبيت الآمن، مع طعام ليلة وعافية بدن، فيقول: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ، مُعَافىً فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»[٣].

فكيف كان تذوقه هو ﷺ لذلك وما هو أكثر من ذلك؟!

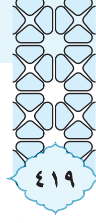
إن استشعار النِعَم وتذوقها وتعظيمها في النفس يزيد مساحة السعادة

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٠٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١).

(٣) «جامع الترمذي» (٢٣٤٦).



بها، ويجعل الحياة أكثر بهجة ورُواءً، والنفس أعظم ما تكون سكينة ورضاً وامتناناً للوهَّاب الذي هذه هبته، والكريم الذي هذا فضله، فتثمر النعمة نعماً، وتزداد الحياة اتِّساعاً وتجدُّداً وتوهُّجاً، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

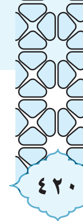
١٤- عندما ترى هذه الحياة النبوية الحافلة، وهذا التفاعل الحي مع الحياة، فَتَذَكَّر كَمَّ الآلام والأحزان التي استقبلها النبيُّ ﷺ في حياته ثم تجاوزها، لقد تلقَّاه في أول إقباله على الحياة؛ اليُتم المتكرِّر في الطفولة، ثم الأَذَى البالغ بعد البعثة، وفجيعته بزوجته خَدِيجة أحب الناس إليه، ثم ثكله ببنيه وبناته في حياته، وفراق بلده التي هي أحب البلاد إليه، ومصابه في قرابته وأصحابه في أُحُد، وآلام حادثة الإفك، وغير ذلك من أوصاب حياته وبلاءاتها.

ولكنه مع ذلك كله كان يتمتَّع بقدرة عظيمة عجيبة على تجاوز المشاعر السلبية، ولياقة فائقة على استئناف الحياة، والتفاعل الإيجابي مع كل لحظاتها!

إنك وأنت ترى هذا الزَّخَم العظيم في كل يوم من أيام حياته، لتكاد تقول: هذه سيرة مَن لم تمر به شدَّةٌ قطُّ، ولم يَعْرِض له بلاءٌ قطُّ.

وما كان ـ بأبي هو وأمي ـ كذلك، ولكنه يتجاوز هذه الآلام ولا يستصحب آلامها، فلكل لحظة في عمره مشروعها وإنجازها وبهجتها؛ إنها الحياة المتدفِّقة المتجدِّدة، إنها الحياة كما ينبغي أن تكون الحياة.

١٥- الرحلة مع المصطفى ﷺ في أحواله المتنوعة مددٌ لحبه العظيم في قلوبنا؛ ولذا كان صحابة رسول الله ﷺ أشدَّ الناس له حبّاً وأكملَ الخلق له تعظيماً؛ لأن كل ما يرونه من لفتات حياته يُتْرِعُ قلوبهم حبّاً له وتعظيماً، فحياته ﷺ بكل تفاصيلها حياة جاذبة، ولئن فاتنا أن نرى ما رأوه، فلن يفوتنا أن نعلمَ به ونتعلَّمه، ولا تَزَال تتروَّى مما رآه الصحابة من



رسول الله ﷺ وما سمعوه، حتى يعمُرَ قلبَك من حُبِّه ما عَمَرَ قلوبَهم، وإن صحبةَ النبي ﷺ في تفاصيل حياته مددٌ وِجداني لخزائن الحب النبوي في قلوبنا؛ فهو الذي كلما ازددت به معرفة ازددت له حبّاً، وكلما ازددت صحبةً لخبره ازددت شوقاً إلى رؤيته.

ويا لَكَمْ طوت لي حُجُبَ الزمن أخبارٌ أَتَرَوَّاها، حتى لكأني أعيشُ الخبرَ رأي عين، فأستشعر الدُّنو إليه، وأكاد أنغمرُ في أنواره، وأستنشق عطر أنفاسه، وأَهُمُّ أن أدنو منه الثَمُ يديه وأجد بَرْدَ كفَّيه، وأهتف في مسامعه من كل قلبي: والله يا رسولَ الله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ من نفسي.

يا رَبِّ هَبَّتْ شُعوبٌ مِن مَنِيَّتِها وَاستَيقَظَت أُمَمٌ مِن رَقدَةِ العَدَمِ

فَالطُف لِأَجلِ رَسولِ العالَمينَ بِنا وَلا تَزِد قَومَهُ خَسفاً وَلا تُسِمِ

يا رَبِّ أَحسَنتَ بَدءَ المُسلِمينَ بِهِ فَتَمِّمِ الفَضلَ وَامنَح حُسنَ مُختَتَمِ(١)

اللهمَّ إنَّا آمنا بنبيك محمد ﷺ، وأحببناه واتَّبعناه وما رأيناه، اللهمَّ فلا تحرمنا رؤيته يوم القيامة، واحشرنا في زمرته، وأنلنا شفاعته، وأوردنا حوضه، وارزقنا مرافقته في جنات الفردوس الأعلى مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

---

(١) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

فهرس الموضوعات



كتب للمؤلف



١. قصص نبوية.



٢. اليوم النبوي.



٣. الآثار نبوية.



٤. صفة حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كأنك معه.



٥. سماء الذاكرة.



٦. حديث الغدير.



٧. القبر المقدس.



٨. سنام الإسلام.



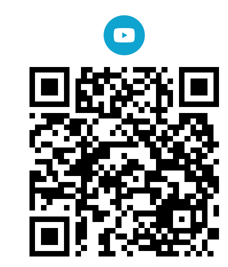
٩. أماكن نبوية.



للتواصل مع المؤلف

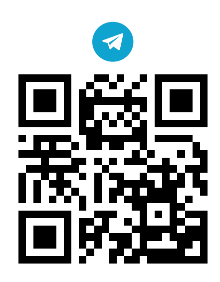






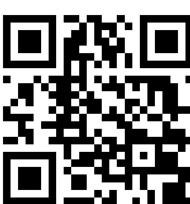




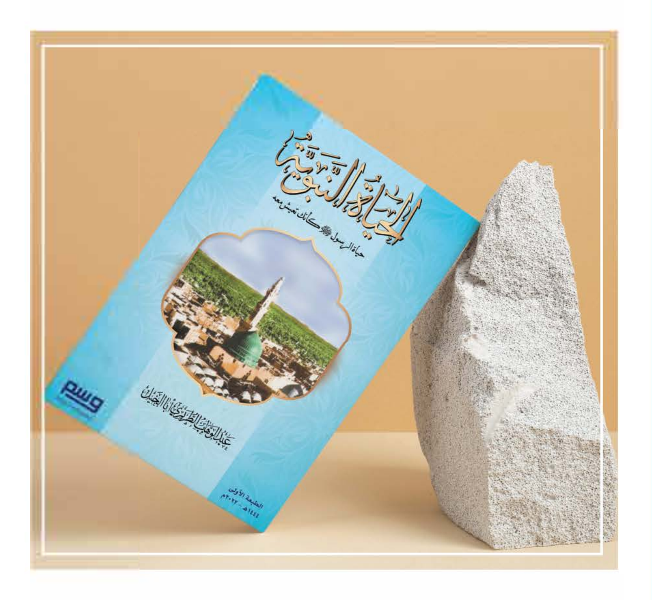












لئن كان النبي ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى، فقد ظل ـ بسيرته المحفوظة الواضحة المشرقة ـ حاضرا في وجدان أمته كأنما تتراءاه رأي عين، فهي تعرف عنه تفاصيل حياته، ودقائق أحواله، تعرف ملامح وجهه، وخطوات مشيه، وكلامه إذا تكلم، وتلاوته إذا قرأ، وصلاته إذا صلى، تعرف لباسه الذي يلبسه، وطعامه الذي يأكله، وبيته الذي يسكنه، وتعرف عشرته مع أصحابه، وأنسه مع زوجاته، وحاله في كل شأنه، حتى كأنما هو حيٌ يعيش بيننا.

وقد سبق أن جمعت كتيباً عن البرنامج اليومي لنبينا ﷺ، وما الذي يعمله في يومه من الصباح إلى الصباح، بعنوان: «اليوم النبوي»، فرأيت تتميماً لذلك جمع كتاب يقدم «الحياة النبوية» بامتدادها وسعتها وتنوعها، وينظر إليها من زواياها المتعددة، ويروي من أحواله وهديه ما يشترك الناس فيه معه.

